وقف لله تعالى

إغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات قبل هجوم هادم اللذات ومشتت الشمل ومفرق الجماعات

جمع الفقير إلى عفو ربه

عبد العزيز المحمد السلمان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

ومن أراد طباعته لوجه الله تعالى لا يريد به عرضاً من الدنيا فقد أذن له وجزاه الله عني وعن المسلمين خيراً. أسأل الله الكريم العلي العظيم الرؤف الرحيم أن ينفع به من قرأه ومن سمعه وأن يأجر من دل عليه أو سعى به إلى من ينتفع به، اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الطبعة الثالثة سنة ١٤١٠ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لِلّهِ نَحْمَدُهُ ونَستَعِينُهُ ، ونَسْتَغْفِرُهُ ، ونَستَهْدِيْهُ ، ونَتُوبُ إليْه ، ونَعُوذُ به مِن شُرورِ أَنْفُسِنا وسَيِئاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ لا إلهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ .

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمداً عبده ورسوله الداعي إلى التوحِيْد ، الساعي بالنُّصْحِ لِلْقَرِيْبِ والبَعِيْد ، المُحَذِّرِ لِلْعُصَاةِ مِن نارٍ تلَظَى بِدَوَامِ الوَقِيد ، المُبَشِّرِ للمؤمنين بِدَارٍ لا يَنْفَذُ نَعِيْمُهَا ولا يَبِيْد ، صلى الله عليه وعَلَى آله وأَصْحَابِهِ ، صَلَاةً لا تَزَالُ على كَرِّ الجَدِ يْدَيْنِ في تَجْدِيْدِ ، وسَلَّم تسليماً كثيرا .

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُه خَلَقَ الخلقَ لِيَعْرِفُوْهُ ويَعْبُدوه ويَخْشَوْهُ ويَخَافُوْهُ ونَصَبَ لَهُمُ الأَدِلَّةَ الدالةَ على عَظَمَتِهِ وكِبْرِيَائِهِ لِيَهَابُوه ، ويَخَافُوْهُ خَوْفَ الإجْلَالِ والتَّعْظِيم .

وذَكَرَ جَلَّ وعَلا شِدةَ عَذَابِهِ ودَارَ عِقَابه الَّتي أعَدَّهَا لِمَنْ نبذ أَمْرَهُ وَعَصَاه لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأَعمال .

ودَعَا عِبَادَهُ إلى خَشْيَتِهِ وتَقْواهُ والمُسَارَعَةِ إلى امتثال مَا يَأْمُرُ بِهِ ويُحِبُّهُ ويرْضَاه ، واجْتِنَابِ ما يَنْهَى عنه ويَكْرَهُهُ ويَأبَاه .

وبَعْدَ فقَدْ عَزَمْتُ إنْ شَاءَ اللهُ تَعالى أَنْ أَجْمَعَ مِن كَلامِ اللهِ جَلَّ جَلالُه وتقدَّسَتْ أَسْمَاؤُه ، ومِن كَلامِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم ، ومِن كَلام أهل العلم ، ما يَحُثُّنِي وإخْـوَاني المسلمين على التَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ لِما أَمَامَنَا ، مِن الكُرُوْبِ والشَّدَائِدِ والأَهْوَالِ والأُمُورِ العظائمِ والمُزْعِجَاتِ المُقْلِقَاتِ الصِّعَاب .

وسَمَّيْتَ هَذَا الكِتَابَ « إغْتِنَامَ الأَوْقَاتِ في الباقياتِ الصالِحَاتِ قبل هُجُوم هَادِمِ اللَّذاتِ ، ومُشَتِّتِ الشَّمْلِ ومُفَرِّق الجماعاتِ » .

وأسأل اللهَ الكَريم رَبَّ العرشِ العَظِيم أن يَنْفَعَنَا به وإخْوَانَنَا المسلمين إنه القادر على ذلك وصلى الله على محمد وعلى آله وصَحَابَتِهِ أجْمَعِين .

(فصـــــل)

تَكَلَّمَ أحَدُ العلماء في صفة يوم القيامة ودَوَاهِيْهِ وأسَامِيْهِ فقال : فاسْتعد يا مِسْكِين لِهذا اليومِ العَظِيمِ شأنهُ المَدِيْدِ زَمَانهُ القَاهِرِ سُلْطَانُهِ القَرِيْب أوانُه يومٌ تُرى السَماءُ فيه قَد انْفَطَرَتْ ، والكواكب قد انْتَثَرتْ ، والبحار قَد سُجِّرَتْ ، والنُجُومُ قَدْ انْكَدَرَتْ ، والشَّمْسُ قد كُوِّرَتْ ، والجبالُ قد سُيِّرتْ ، والعشارُ قد عُطِّلَتْ ، والوُحُوشُ قد حُشِرَتْ ، والنفوسُ قَد زُوِّجَتْ ، والجَحِيْمُ قد سُعِّرَتْ ، والجَنَّةُ قَدْ أُزْلِفَتْ ، والجبالُ قد نُسِفَتْ ، والأَرْضُ قَـدْ مُدَّتْ .

يَوْمٌ تُرَى الارْضُ فيه قَدْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالَها ، يَوْمٌ فيه تُخْرِجُ الارْضُ أثْقَالَها ، وتُحَدِثُ أخْبَارَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أشتاتاً لِيُروا أعْمَالَهُم ، يَوْم تُحْملُ الأَرْضُ والجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وقَعَتِ الواقعة ، وانْشَقَّتِ السماءُ فهي يومَئِذٍ واهِيَة ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش رَبِكَ فوقَهم يومئِذٍ ثمانِيَة ، يومئذ تُعرضُون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

يَوْمٌ فيه تُسَيَّرُ الجبَال وترى الأرض بارزة ، يَوْمٌ تُرجُّ فيه الأرض رجًا ، وتُبَسُّ فِيْه الجَبال بَسًّا ، فكانت هَبَاءً مُنْبَثا ، يَوْم يكونُ النَّاس فِيْهِ كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش .

يَوْمٌ تَذْهَلُ فِيْهِ كل مُرْضِعةٍ عما أرضَعَتْ ، وتضع كلُ ذات حَمْل حملها ، وتَرى الناسَ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض ، والسمٰوات وبَرَزُوا لله الواحدِ القهار .

يوم تنْسَفُ الجَبال فيْهِ نَسْفًا فَتُتْركُ قاعا صَفْصَفاً لا تَرى فيها عِوجاً ولا أَمْتَا ، يوم تَرى الجِبال تَحْسَبُهَا جامدة وهي تَمُرُ مَرَّ السحاب ، يَوْمٌ تَّنْشَقُّ فيه السماء فتكون وَرْدَةً كَالدهان ، فَيَوْمَئِذً لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان يوم فيه يُعْرَفُ المَجرِمونَ بسيماهِم فيُؤْخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تَعْلَمُ فيه كُلُ نَفْسٍ ما أُحْضَرتْ ، يَوْمٌ تَنْطِقُ فيه الجوارح .

يوم شَيَّبَ ذِكْرُهُ سَيِّد المُرسَلين إذا قال له الصديقُ رضى الله عنه أرَاكَ قد شبْتَ يا رسُولَ الله قال صلى الله عليه وسلم : « شَيَّبَتْنِي هُـوْد وَأَخواتُها » وهي الواقعةُ والمرسلاتُ وعَمَّ يتَسَأَلُونَ ، وإذا الشمسُ كُوِّرَتْ .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في ذِكْرِ بَعْضِ أَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ :

وَتحَدِّثُ الأرضُ التِيْ كُنَّا بهَا ... أَخْبَارَهَا في الحَشْرِ لِلرَّحمـٰـنِ
وتَظلُ تَشْهَدُ وهْيَ عَـدْلٌ بالذي ... مِن فَوقِها قد أحَدَثَ الثَّقـلانِ
وتُمَدُّ أيضـاً مِثْلَ مَـدِّ أديمِـنَا ... مِن غيرِ أَوْدِيةٍ ولا كُثْبَـانِ
وَتَقْيءُ يومَ العَرضِ مِن أكبـادِهَا ... كالأُصْطِوَانِ نَفَـائِسَ الأَثْمَـانِ
كلُ يَراهُ بعَيْنِـهِ وعِيَـانِهِ ... ما لِامِـرْئٍ بالأخـذِ منه يَدَانِ
وكذا الجِبـالُ تُفَتُ فَتاً مُحكَماً ... فَتعُودُ مِثْلَ الرَّمْـلِ ذِي الكُثْبَان
وتَكُونُ كالعِهْـنِ الذي ألـوانُهُ ... وصِبَـاغُـه مِن سَـائِر الألْـوَانِ
وتُبَسُ بَسـاً مِثْلَ ذاكَ فَتَنْثَنِـي ... مِثْـلَ الهَبَـاءِ لِنَـاظِرِ الإنْسـانِ
وكَـذَا البِحَـارُ فإنَّهـا مَسْجُـورَةٌ ... قد فُجِـرتْ تَفْجِـيرَ ذِي السُلطَانِ
وَكَـذَا لِكِ القَمَـرَان يَأْذَنُ ربُنَـا ... لَهُمَـا فَيَجْتَمِعَـانِ يَلْتَقِيَـانِ

هَذِيْ مُكَوَّرةٌ وَهَـذا خَاسِـفٌ   وكِلاَهُمَـا في النَـارِ مطْـرُوحَانِ
وكَوَاكِب الأَفْلاكِ تُنْثَـرُ كُلُّهَـا   كَلآلِـيءِ نُثِـرَتْ عَلى مَيْـدَانِ
وكَـذَا السَّمَاءُ تُشَقُّ شَقـاً ظاهِراً   وتَمُـورُ أيضـاً أَيَّمَـا مَـوَرَانِ
وتَصِيرُ بعدَ الانْشقَـاقِ كَمِثْلِ هَذا المُهْـلِ أَوْ تَلكُ وَرْدَةً كَدِهَانِ

وقال القحطاني رحمه الله :

يَوْمُ القِيَامَةِ لَوْ عَلِمْتَ بِهَـوْلِهِ   لَفَرَرْتَ مِن أهْـلٍ ومِن أوْطَـانِ
يَوْمٌ تَشَقَّقَتِ السَّـمَاءُ لِهَـولِهِ   وتشيبُ مِنـه مَفَـارِقُ الوِلْـدَانِ
يَوْمٌ عَبُوْسٌ قَمْطَـرِيْرٌ شَـرُهُ   في الخَلْقِ مُنْتَشِـرٌ عَظِيْم الشَّـأنِ
يَوْمَ يَجِيءُ المُتَقُـونَ لِرَبِهِـم   وَفْـداً عَلَى نُجُبٍ مِن العِقْيَـانِ
ويَجيءُ فيـه المُجْـرِمُونَ إلى لَظَى   يَتَلَمَّظُـونَ تَلَمُظَ العَطْشَـانِ

« موعظـة »

فَيَا أيُّهَا المُهْمِلُونَ الغَافِلُون تَيَقَّظُوا فَإلَيْكُم يُوجَّهُ الخَطَابُ ويَا أَيُّهَا النَّائِمونَ انْتَبِهُوا قَبْل أنْ تُنَاخَ لِلْرحِيْلِ الركابْ قَبْلَ هُجُوم هَادِمِ الذَّاتِ ومُفَرِق الجَمَاعَاتِ ومُذِلِّ الرِّقَابِ ، ومُشَتِّت الاحْبَابِ ، فَيَا لَهُ مِنْ زَائِرِ لا يَعُوقُهُ عَائِق ولا يُضْرَبُ دُوُنَهُ حِجَاب ، وَيَالَهُ من نازِلٍ لا يَسْتَأذِنُ على المُلوُكِ ولا يَلِجُ مِنْ الأبْوَابِ ، ولا يَرْحَمُ صَغِيراً ولا يُوَقِّرُ كبْيراً ولا يَخَافُ عَظِيماً ولا يَهَابُ أَلاَ وإنَّ بَعْدُهُ مَا هُوَ أعْظَمُ مِنْهُ مِنْ السُّؤَآلِ والْجَوَابِ ، وَوَرَاءَهُ هَوْلُ البَعْثِ والحَشْرِ وأحْوَالِهِ الصِّعَاب مِن طُوْل المَقَامِ والازدِحَامِ في الأَجَسَامِ والمِيْزانِ والصِّرَاطِ والحِسَاب وَالجَنَّة أَوِ النَّار .

اللَّهُمَّ انْظُمْنَا في سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ المُتَّقِيْنَ الذِيْنَ

أَعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جِنَاتِكَ ، وأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ فِي دَارِ أَمَانِكَ ، وَعَافِنَا يَا مَوْلَانَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ جَمِيْعِ البَلَايَا ، وَأَجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِب فَضْلِكَ وَهِبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَر إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِديْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاء مِنْهُمْ وَالمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ على مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

إِعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ أنَّ الموتَ أَعَانَنَا اللهُ وإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلمين على شدائِدِهِ وسَكَراتِهِ وغُمُومِهِ هو الخَطْب الأفظَع ، والأَمْرُ الأَشْنَع ، والكَأْسُ التي طَعْمُهَا أَكْرَه وأَبْشَع .

وإنَّه الحادثُ الهائل العظيم ، الهادِمُ لِلَّذَات ، والأقطَعُ للراحات ، والأَجْلَبُ لِلْكَرِيْهَاتِ ، وإنَّ أمْراً يُقَطِّعُ أَوْصَالَكَ ، ويُفَرقُ أَعْضَاءَكَ ، ويُفَتِّتُ أَعْضَادَكَ ، ويُهَدِّدُ أَرْكَانَكَ ، لَهُو الأَمْرُ العَظِيم ، والخَطْبُ الجَسِيْم ، وإنَّ يَومَهُ لَهُو اليومُ العَقِيم .

وما ظَنُّكَ رَحِمَكَ اللهُ بِنازِلٍ يَنْزِلُ بِكَ ، فَيُذْهِبُ رَوْنَقَكَ وبَهَاءَك ، ويُغَيِّرُ مَنْظِرَكَ وحُسْنَكَ ويَمْحُو صُوْرَةَ جَمَالِك ، ويَمْنَعُكَ مِن اجْتَماعِكَ واتِّصَالِكْ .

ويَرُدُّكَ بَعْدَ النِّعْمَةِ والنَّظْرَةِ والسَّطْوَة والقُدْرَةِ والنَّخْوَةِ والعِزَّةِ إلى حَالَةٍ يُبَادِرُ أَحَبُّ النَاسِ لَكَ وَأَرْحَمَهُم بِكَ وأَعْطَفُهُمْ عَلَيْكَ فَيَقْذِفُكَ في حُفْرَةٍ مِن الأَرْضِ قَرِيْبَةٍ أَنْحَاؤُهَا مُظْلِمَةٍ أَرْجَاؤها مُحْكَم عَلَيْكَ طِيْنُهَا وأَحْجَارُهَا مُتَحَكِّمُ فِيْكَ هَوَامُّهَا ودِيْدَانُها .

ثم بَعْدَ ذلكَ يَتَمَكَّنُ مِنْكَ الإِعْدَام ، وتختَلِطُ بالرُّغَام ، وتَصِيْر تُرَاباً تُوطَؤُ بالأَقْدَام ، ورُبَّمَا ضُرِبَ مِنْكَ إناءُ فخَّارٍ أَوْ أُحْكِمَ مِنْكَ بِنَاءُ جدَارٍ أَوْ طِلْيَ مِنْكَ مَحْبَسُ مَاءٍ أو مَوْقِدُ نار .

أو نحو ذَلكَ .

لَعَلَّ إنَـاءٌ مِنْهُ يُصْنَعُ مِـرَّةً فَيَكْلُ مِنْ أَرَادَ ويُشـرَبُ
ويُنقَلِ مِن أَرَضٍ لأُخْرى وما دَرى فواهًا لَهُ بَعْدَ البلا يَتَغَرَّبُ

ثم إعلِم وفقنا الله وإياك للاسْتِعداد لِما أَمَامَنَا مِن الأَهْوَالِ والشَّدائِدِ والكُروبِ والأمورِ المُزْعِجَاتِ .

أَنَّه جَدِيرٌ بِمَنِ الموتُ مَصْرَعُه ، والتُرابُ مَضْجَعُه ، والدُوْدُ أنِيسُهُ ومُنْكَر ونَكِيْر جَلِيْسُه ، والقَبْرُ مَقَرُّهُ ، وبَطْنُ الأرض مُسْتَقَرُّهُ ، والقِيَامَةُ مَوْعِدُهُ ، والجنةُ أو النارُ مَوْرِدُهُ .

أَنْ لا يكُونَ لَهُ فِكْر إلاَّ في الموتِ ، ولا ذِكْر إلاَّ لَهُ ، ولا اسْتعْداد إلاَّ لِأَجْلِهِ ، ولا تَدْبِير إلاَّ فيه ، ولا تطَلُّعٌ إلا إليه ، ولا تَأَهُبٌ إلاَّ لَهُ ، ولا تعْرِيْج إلاَّ عليه ، ولا اهْتِمَام إلاَّ بِهِ ، ولا انْتِظَارٌ ولا تَرَبُّصٌ إلا لهُ .

وحَقِيْقٌ بالعَاقِلِ أَنْ يُعدَّ نَفْسَهُ مِنِ الموتَى ويَرَاهَا مِن أُصْحَابِ القُبُورِ ، فإنَّ كُلَّ مَا هُو آت قريب قال الله جَلَّ وعلا : ﴿ اقْتَرَبَ للنَّاس حَسَابهُم وهم في غَفَلة مُعْرِضُونَ ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ أتى أمر اللهِ فلا تستَعْجِلوه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « الكَيِّس مَن دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموت » الحديث .

واعْلمْ أَنَّه لَوْ لَمْ يَكَنْ في الموت إلاَّ الإعْدَامُ وانحْلَالُ الأَجْسَامَ ونِسيَانُكَ أُخْرَى الليالي والأيام ، لَكَانَ واللهِ لِأَهْل اللَّذَاتِ مُكَدِّرَا ، ولَأُصْحَابِ النَّعِيم مُنَغِّصاً ومُغيّرا ، ولأَرْبَاب العَقول الرَّاجحَةِ عن الرّغَبةِ في هَذِهِ الدارِ زَاجِراً ومُنَفِّرا ، ولِلْمُنْهَمِكِ في الدنيا وزَخارِفها مُنذراً ومُزْعِجاً ومُحَذِّرا .

قال مُطَرِّفُ بْنُ الشِّخِيْرِ : إنَّ هَاذا الموتَ نَغَّصَ على أَهْل النَّعِيمِ نعِيْمَهُمْ ، فاطْلُبُوا نَعِيْماً لا مَوْتَ فيه ، فكيْفَ وَوَرَاءَهُ يوم يُعَدُّ فيه الجَوَابُ وَتَدْهَشُ فيه الأَلْبَابُ ، وتَفْنَى في شَرْحِهِ الأَقْلَامُ والكُتَّابُ .

وَلَمْ يَمْرُرْ بِهِ يَوْمٌ فَظِيْـعٌ أَشَدَّ عَلَيْـهِ مِنْ يَوْمِ الحِمَـامِ
ويَوْمُ الحَشْـرِ أفْظَـعُ منهُ هَوْلاً إذا وَقَفَ الخـلائق بالمَقَـامِ
فكَمْ مِنْ ظَـالمٍ يَبْقَـى ذَلِيـلاً ومَظْـلُومٍ تَشَمَّـرَ لِلْخِصَـامِ
وشخْصٍ كانَ في الدُّنْيَـا فَقِيراً تَبَـوَّأَ مَنْـزِلَ النُّجْبِ الكِـرَامِ
وعَفْـوُ اللهِ أوْسَـعُ كُلِّ شـيءٍ تَعَـالَى اللهُ خَـلَّاقُ الأنَـامِ

ومن كلامِ بَعْضِهِم يا ابْنَ آدمَ لَوْ رَأَيْتَ مَا حَلَّ بكَ وما أَحَاطَ بأَرْجَائِكَ لَبَقِيتَ مَصْرُوْعاً لما بك ، مَذْهُولاً عن أَهْلِيكَ وأصْحَابِكَ .

يَا ابْنَ آدمَ أمَا عَلِمْتَ أنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ يَوْماً يُصِمُّ سَمَاعُهُ الآذانْ ، ويَشِيْب لِرَوْعِهِ الِولدانْ ، ويُتْرَكُ فيه ما عَزَّ ومَا هَان ، ويُهْجَر لَهُ الأهْلُون والأوطَان .

يَا ابْنَ آدَمَ أما تَرَى مَسِيْرَ الأيامِ بِجِسْمِكَ ، وذَهَابَهَا بِعُمْرِكْ ، وإِخْراجَهَا لَكَ مِن سَعَةِ قَصْرِكْ إلى مَضِيْقِ قَبْرِكْ ، وبَعْدَ ذلك ما لِذِكْرِ بَعْضِهِ تَتَصَدَّعُ القلوبُ ، وتَنْضِجُ له الجوانح وتَذُوْب ، ويَفِرُ المرءُ على وجْهِهِ فلا يَرْجِعُ ولا يَؤُوْب ، ويَوَدُّ الرجْعَةَ وأنَّى لَهُ المَطْلُوب .

قال اللهُ جَلَّ وعَلا وتَقَدَّسَ : ﴿ وأنْذِرْهُم يَوْمَ الحَسرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهم في غَفْلَةٍ ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ ان تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرطْتُ في جَنْبِ اللهِ وإن كنْتُ لمن الساخِرين أو تقول لو أن الله هداني لكنتُ من المتقين أو تقول حِيْنَ تَرى العذاب لو أن لِي كرةً فأكون من المحسنين ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ هنالك تَبْلُو كُلُ نَفسٍ ما أَسْلَفَتْ ﴾ وقال عَزَّ مِن قائِل : ﴿ اقترب للناس حِسَابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ، وقال : ﴿ أيود أحدكم أنْ تَكُونَ له جنة مِن نخيل وأعْنَاب تجري من تحتِهَا الأنهار لَهُ فيها مِن كُلِّ الثمراتِ وَأصَابهُ الكبر ولَهُ ذريةٌ ضُعَفاء فأصَابَها إعْصَار فيه نَارَ فاحْتَرَقَتْ كذلك يُبَينُ اللهُ لكم الآياتِ لعَلكم تَتَفَكَّرون ﴾ ، وقال : ﴿وجيءَ يومئِذٍ بجَهَنَّم يَومَئِذٍ يَتَذَكر

الإنسانُ وأنى له الذكرى يقول يا لَيْتَني قَدَمْتُ لحيْاتي ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ فإذا جَاءَت الطامةُ الكبرى يومَ يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نَفسٍ ماعملت مِن خير محضرا وماعملت من سُوء تود لو أنَّ بينها وبَيْنَهُ أَمَدا بَعِيدا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ واتَّقُوا يوماً لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون ﴾ ، وقال جل وعلا : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم مِن قبل أن يأتي أحَدَكم الموت فيقول رَبٌّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

شَعِـرا :

لِأَمْرٍ ما تَصَدَّعَتِ القُلُوبُ   وَبَاحَ بِسِرِّهَا دَمْعٌ سَكِيْبُ
وَبَاتَتْ في الجَوانِحِ نَارُ ذِكْرَى   لَهَا مِن خَارِجٍ أَثَرٌ عَجِيْبُ
وَمَا خَفَّ اللَّبِيْبُ لِغَيْرِ شيءٍ   ولا أَعْيَا بِمَنْطِقِهِ الأَرِيْبُ
ذَرَاهُ لَائِمَاهُ فَلَا تَـلُوْمَا   فَرُبَّتَ لأئِمٍ فِيْهِ يَحُـوْبُ
رَأَىَ الأَيَّامَ قَدْ مَرَّتْ عَلَيهِ   مُرُوْرَ الرِيْحِ يَدْفَعُهَا الهَبُوْبُ
وَمَا نَفَسٌ يَمُرُّ عَلَـيه إلاَّ   ومِنْ جُثْمانِهِ فِيْهِ نَصِيْبُ
وَبَيْنَ يَدَيْهِ لَوْ يَدْرِي مَقَامٌ   بِهِ الوِلْدَانُ مِنْ رَوْعٍ تَشِيْبُ
وَهَذَا الموتُ يُدْنِيْهِ إليْـهِ   كَمَا يُدْنِي إلَى الهَرَمِ المشَيْبُ
مَقَامٌ تُسْتَلَذُّ بِهِ المنَـايَا   وتُدْعَى فِيْهِ لَوْ كَانَتْ تُجِيْبُ
وماذا الوَصْفُ بَالِغُهُ ولَكِنْ   هِيَ الأَمْثَالُ يَفْهَمُهَا اللَّبِيْبُ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَوَفّقْنَا لِلْقيامِ بِحَقِّكَ وَبارِكْ لَنَا في الحلالِ مِن رِزْقَكَ ولَا تَفْضَحْنَا بين خَلْقِكَ يَا خَيْرَ مَنْ دَعَاهُ داع وأَفْضَلَ مَن رجَاهُ راجٍ يا قاضي

الحاجاتِ ومُجيْبَ الدعواتِ هَبْ لَنَا ما سَأَلْنَاهُ وَحَقِّقْ رَجاءَنَا فِيْمَا تَمَنَّيْنَاهُ يَا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السَّائِلِين ويَعْلَمُ ما فِي ضَمَائِرِ الصَّامِتِينَ أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وحَلَاوَةَ مَغْفِرَتِكَ يَاأَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعِين .

موعظـــة

الحمدُ لِلَّهِ المستحِقِّ لِغَايَةِ التَّحْمِيْد ، المُتَوَحِّدِ في كِبْرِيَائِه وعَظَمَتِهِ الوَلِي الحَمِيْد ، الغَنِّي المُغْنِي المُبْدِىءُ المُعِيْد ، المعطي الذي لا يَنْفَذُ عَطَاؤُهُ ولا يَبِيْدُ ، المانِعِ فلا مُعْطِي لِما مَنَعَ ولا رَادَّ لِما يُرِيْد .

خَلَقَ الخَلَائِق وأَوْضَحَ لَهُمْ أَحْسَنَ طَرِيق ، وهَداهُم إلى الأَمْرِ الرَّشِيْد ، وصَوَّرَهُم فأَحْسَنَ صُوَرَهُم ، وبَشَر مَنْ أطاعَهَ بالجنةِ والنَّعِيْمِ والتَّخْلِيد ، وحَذَّرَ مَنْ عَصَاهُ مِن العَذابِ الشَدِيد .

وحَثَّهُمْ على ذِكرِهِ وحَمْدِهِ وشُكْرِهِ وَوَعَدهُم بالمزِيْد ، فقال جَلَّ وَعَلا وهو أصْدَقُ القائِلين وأَوْفى الواعِدِيْنَ : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيْدَنكمُ ولَئِنْ كَفَرتُمْ إن عَذَابِي لشديْد ﴾ .

وحَكَمَ على خَلْقِهِ بالفَنَاءِ فَمَا لِأَحَدٍ عنه مَحِيْصٌ ولا مَحِيْدٌ ، فكم أَبْكَي الموتُ خليلاً بِفِرَاقِ خَلِيْلِهْ ، وكَمْ أَيْتَمَ طِفْلاً فَشَغَلَهُ بِبُكَائِهِ وعَوِيْلِهْ .

أَوْحَشَ المنازِلَ مِن أَقْمَارِهَا ، ونَفَّرَ الطُيُورَ مِن أَوْكارِهَا ، وعَوَّضَهُمْ مِن لَذَةَ العَيْشِ بالتَّنْغِيْصِ والتَّنْكِيْدْ .

فَالمِلِكُ والمَمْلُوكُ والغَنِّيُ والصُّعْلُوكُ والقَويُّ والضَّعِيْف ، تَسَاوَتْ قُبُورُهُمْ في القفرِ والبيْد .

فَسُبْحانَهُ مِن إلَهٍ أَذَلَّ بالمَوْتِ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيْدٌ ، وكَسَرَ بِهِ من الأَكَاسِرَةِ كُلَّ جَبَّارٍ صِنْدِيْد ، وأُخْرِجُوا مِنْ سَعَةِ القُصُور إلى ضِيْقِ القُبُور ، وقُطِعَ حَبْلُ أَمَدِهِمْ المَدِيْدْ .

أَخَذَ بِهِ الأَبَاءَ والجُدُوْدْ والأطفالَ مِن المُهُوْد ، وأسْكَنَهُم بَعْدَ اللَّيْنِ والسَّعَةِ والرَّفَاهِيَّةِ مَضِيْقَ اللُّحُوْد ، وعَفَّرَ وجُوهَهُمْ في التُّرابِ بَعْدَ لِيْنِ الوَسَائِدِ والفرشُ الناعِمَة والتَمْهِيْد وَبَقُوا في تَحْتَ الأرضِ إلى يَومِ الوعيد .

فَيَا بُؤسَ للدُّنيا شَدٌّ مَا عَن ثَدْيَها فَطَمَتْهُمْ ومِنْ سُمِّهَا أطْعَمَتْهُمْ وبِيَدِها البَاطِشةِ لَطَمَتْهُمْ ، وفي ظُلُمَاتِ الأرضِ وغياباتِ الثُّرى طَرَحَتْهُمْ ، فَقَلَبَتْ قَائِم تِلْكَ الأَعْيَان ، وطَمَسَتْ تِلْكَ الوجُوهِ الحِسان .

وأَعْمَتْ تِلْكَ الأبْصَار ، وأصَمَّتْ تِلْكَ الآذان وأسَالَتْ الحَدَقَ على الخُدود والوَجَنَات ، وغَسَّلَتْ بالصَّدِيْدِ جمِيْلَ القَسَمات ، ومَلأَتْ بالتُرابِ اللَّهازِمَ واللَّهَوات .

وكَسَرَتْ تِلْكَ الضَّواحِكَ والرَّبَعِيَاتِ ، وعَبَثَتْ الدِّيْدَانُ بِجُسُوم أُولَئِكَ الفِتْيَانِ والفتَيَاتِ ، لَطَالَمَا اغْرَبُوْا ضاحِكْينَ ، وتَقَلَّبُوْا فاكِهِيْنَ ، وباتُوا عَلى سُرُرَهِم مُطْمَئِنِيْنَ آمِنِيْنَ .

فكَمْ بهَا مِن لِسَانٍ فَصِيْحٍ ، طَالَمَا ما أَنْشَدَ وخَطَبَ ، وأَرْهَبَ وأرْغَبْ ، ومَدَحَ وأطْنَبْ ، وكَم مِن فَصِيْحِ لِسَان وعَظِيْم بَيَان أخْرَسَهُ الحَدَثان ، وتَحَكَّمَتْ في جَسَدِهِ الهَوَّامُ والدِّيْدَانُ .

وَلَو كَشَفَ الأجْدَاثَ مُعْتَبِراً لَهُمْ لِيَنْظُرَ آثارَ البلا كَيْفَ يَصْنَعُ
لَشَاهَدَ أحْدَاقاً تَسِيْل وَأَوْجُهاً

مُعَفَّرَةً في التُّـرْبِ شُـوْهـاً تُفَـزعُ
غَـدَتْ تَحْتَ أَطْبَاق الثّرى مُكْفَهِرَّةً
عَبُوْساً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ البِشْرِ تَلْمَعُ
فَلَمْ يُعْرَفِ المَوْلَى مِنَ العَبْـدِ فِيْهِم
وَلَا خَـامِـلاً مِنَ نَـابِهِ يَتَـرَفَّـعُ
وَأَنَّى لَهُ عِـلْمٌ بِـذَلِكَ بَعْـدَمَا
تَبَيَّنَ مِنْهُمْ مَا لَهُ العَـيْنُ تَـدْمَـعُ
رَأَى مَا يسُـوءُ الطَّرْفَ مِنْهُمْ وَطَـالَمَا
رَأَى مَا يَسُـرُّ النَّـاظِرِيْنَ وَيُمْتِـعُ
رَأَى أَعْظُمـاً لَا تَسْتَـطِيْعُ تَمَـاسُكاً
تَهَافَتَ مِنْ أَوْصَـالِهَـا وَتَقَـطَّعُ
مُجَـرَّدَةً مِنْ لَحْمِهَـا فَهِيَ عِبْـرَةٌ
لِذِيْ فِكْـرَةٍ فِيْمَـا لَهُ يَتَـوقَّـعُ
تَخَـوَّنَها مَـرُّ اللَّيَـالِي فَأَصْبَحَـتْ
أَنَابِيْبَ مِنْ أَجْـوَافِهَـا الرِّيْحُ تُسْمَـعُ
أُزِيْلَتْ عَنِ الأَعْنَـاقِ فَهِيَ نَـوَاكِـسٌ
عَلَى التُّرْبِ مِنْ بَعـدْ الوَسَـائِدِ تُرْفَـعُ
عَـلَاهَا ظَـلَامٌ لِلْبِلَى وَلَطَـالَمَـا
غَدَا نُورُهَـا في حِنْـدِسِ الظُّـلْمِ يَلْمَعُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْماً عَلَا مَفْرِقاً لَهَا
نَفَائِسُ تِيْجَـانٍ وَدُرٍ مُـرَصَّـعُ
تَبَـاعَدَ عَنْهُمْ وَحْشَـةً كُلُّ وَامِـقٍ
وَعَـافَهُمُ الأَهْـلُونَ والنَّـاسُ أَجْمَـعُ

وَقَاطَعَهُــمْ مَنْ كَانَ حَــالَ حَيَــاتِهِ
بِوَصْلِهِمُ وِجْـداً بِهِمْ لَيْ
يُبَكِّيهِمْ الأَعْـدَاءُ مِنْ سُـوءِ حَالِهِمْ
وَيَرْحَمُهُمْ مَنْ كَانَ ضِـــ
فَقُـلْ لِلّذِي قَـدْ غَـرَّهُ طُـوْلُ عُمْـرِهِ
وَمَا قَـدْ حَـوَاهُ مِنْ زَخَـا
أَفِقْ وَانْظُرِ الدُّنْيَـا بِعَيْنِ بَصِـيْرَةٍ
تَجِـدْ كُلَّ مَا فِيْهَـا وَدَ
فَأَيْنَ المُـلُوكُ الصَّيْدُ قِدْماً وَمَنْ حَوَى
مِنَ الأَرْضِ مَا كَانَتْ بِهِ ا
حَـوَاهُ ضَـرِيْح مِنْ فَضَـاءِ بسِيْطِهَا
يُقَصِّـرُ عَنْ جُثْمَـانِهِ حِ
فَكَمْ مَلِكٍ أَضْحَـى بِهَــاذَا مَذَلَّةٍ
وَقَـدْ كَانَ حَيّـاً لِلْمَهَ
يَقُـودُ عَلَى الخَيْـلِ العِتَـاقِ فَوَارِسَاً
يَسُـدُّ بِهَـا رَحْبَ الفَيَـــ
فَأَصْبَحَ مِنْ بَعْـدِ التَّنَعُّمِ فِي ثَـرَىٰ
تُـوَرِي عِظَـاماً مِنْـهُ بَهْ
بَعِيْـداً عَلَى قُـرْبِ المَـزَارِ إِيـابُـهُ
فَلَيْسَ لَـهُ حَتَّى القِيَــامَ
غَرِيْبـاً عَنِ الأَحْبَـابِ والأَهْـلِ ثَاوِياً
بِأَقْصَى فَـلَاةٍ خَـرْقُـهُ لَا

تُلِحُّ عَلَيْــهِ السّــافِيَــاتُ بِمَنْــزِلٍ
جَـدِيْبٍ وَقَدْ كَانَتْ بِهِ الأَرْضُ تُمْـرِعُ
رَهِيْنـاً بِهِ لَا يَمْلِكُ الدَّهْرَ رَجْعَـةً
وَلَا يَسْتَطِيْعَنَّ الكَـلَامَ فَيسْـمَـعُ
تَوَسَّدَ فِيْهِ التُّرْبَ مِنْ بَعْدِ مَا اغْتَدَىٰ
زمَاناً عَلَى فُرُشٍ مِنَ الخَـزِّ يُـرْفَـعُ
كَذَلِكَ حُكْمُ اللّٰهِ في الخَلْقِ لَنْ تَرَى
مِنَ النَّاسِ حَيّـاً شَمْلهُ لَيْسَ يُصْـدَعُ

اللَّهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المُفْلِحين وأَلْبِسْنَا خِلَعَ الإِيْمَانِ واليَقِيْن ، وَخُصَّنَا مِنْكَ بالتَّوْفِيْقِ المُبين ، وَوَفِّقْنَا لِقَوْلِ الحَقِ واتْبَاعِهِ وَخلِّصْنَا مِنَ البَاطِل وابْتِدَاعِهِ ، وَكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا وَلَا تَجْعَل لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا يَدَا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغَدَا وَلَا تُشْمِتْ بِنَا عَدوَّاً وَلَا حَاسِداً ، وارْزُقْنَا عِلْمَاً نافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلَا ، وَفَهْمَاً ذَكِيّاً وَطَبْعاً صَفِيّا وَشِفَاً مِنْ كُلِّ دَاء ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيع المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين. وصَلَّى اللّٰهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــل)

وقال رحمه الله :

إِعلم وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وجَمِيعَ المسلمين لما يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ أَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ الموتِ تَرْدَعُ عن المعاصي وَتُلَيِّنُ القَلْبَ القَاسي ، وتُذْهِبُ الفَرَحَ بالدُنْيا وزِيْنَتِهَا وزَخَارِفِها ولَذَّاتها .

وتَحُثُكَ على الجِد والاجتهادِ في الطاعاتِ وإصلاحِ أَحْوَالِكَ وشُؤنِك

والتَّنَسُخِ مِن حُقُوقِ اللهِ وحقوقُ خَلْقِهِ ، وتَنْفِيذِ الوَصَايَا وَأَدَاءِ الآماناتِ والدِيُون .

قال بَعْضُهم فَضَحَ الدنيا والله هذا الموتُ فلم يَترِكْ فيها لِذِي عَقْلٍ فَرَحاً .

وقال آخَرُ مَا رَأَيْتُ عاقِلاً قَطُّ إلا وجَدْتُهُ حَذِراً مِن الموتِ حَزِيْناً مِن أَجْلِهِ .

وقال آخَرُ مَن ذَكَرَ الموتَ هَانت عليه مَصَائِبُ الدنيا .

وقا آخَرُ : مَن لم يَخَفْهُ في هذه الدار رُبَّمَا تَمَنَّاهُ في الآخِرة فلا يُؤتَاه .

وقال آخر يُوْصِيْ أخَاً له : يا أخي إحْذِرِ الموتَ في هذه الدار مِن قَبْلِ أَنْ تَصِيْرَ إلىَ دارٍ تَتَمَنَّى بها الموتَ فلا يُوْجَد .

وقال آخر : وأَمَا ذِكْرُ الموتِ والتَّفَكُرُ فيه ، فإنَّهُ وإنْ كان أَمْراً مُقَدَّراً مَفْرُوْغاً منه ، فإنه يكْسُبَك بِتَوْفيْقِ اللهِ التَّجَافِي عن دَارِ الغُرُوْرِ ، والاسْتِعْدَادِ والإنَابَةِ إلى دَارِ الخلودِ ، والتَفَكرُ والنَّظَرُ فيما تَقْدَمُ عَليه وَفيما يَصِيْرُ أمْرُكَ إليه .

ويُهَوِّنُ عَلَيْكَ مَصَائِبَ الدنيا ويُصَغِرُ عَندكَ نَوائِبَها ، فإن كانَ سَبَبُ مَوْتِكَ سَهْلاً وأَمْرُهُ قَرِيْباً فَهو ذَاك ، وإن كانَتِ الأُخرى كُنْتَ مأجُوراً مَعَ النيةِ الصالِحَةِ فيما تُقَاسِيْهِ ، مُثَّاباً على ما تَتَحَمَّلُه مِنْ المَشَاقِّ .

واعلم أنَّ ذِكْرِ الموتِ وَغيرِهِ مِن الأَذْكَارِ إنما يَكُوْنُ بالقَلْب وإقْبالِكَ على مَا تَذكرهُ . قال الله جلا جلاله وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤه : ﴿ إن في ذلك لذكرى لِمَنْ كان له قلبٌ أوْ أَلْقى السمع وهو شهيد ﴾ فأيُ فائِدةٍ لَكَ رَحمكَ اللهُ في تَحْرِيْكَ لِسَانِكَ إذا لم يَخْطُر بقَلْبكَ .

وإنما مَثَل الذِكْرِ الذي يَعْقِبُ التنبيه ، ويكون مَعَهُ النفعُ والإيْقَاظِ مِن الغَفْلةِ والنومِ أنْ تُحْضِرَ المذكورَ قَلْبَكَ وتَجْمَعَ لَهُ ذْهْنَكَ وتَجْعَلَهُ نَصْبَ عَيْنَيْكَ ومِثَالاً خاطِراً بَيْنَ يَدَيْكَ ، وأنْ تنظر إلى كل ما تحبهُ مِن الدنيا مِن وَلَدٍ أوْ أهْلٍ أو مالٍ أو غير ذلك ، فَتَعْلَم عِلْماً لا يَشُوْبُهُ شَكٌّ أنَّكَ مُفَارِقُهُ إمَّا في الحَيَاةِ أوْ في المَمَاتِ ، وهذهِ سُنَّةُ اللهِ الجَارِيَةُ في خَلْقِهِ وحُكْمُهُ المُطَّرِد .

وتُشْعِر هذا قَلْبَكَ وتُفَرِّغُ لَهُ نَفْسَكَ فَتَمْنَعُهَا بذَالكَ عن الميل إلى ذلك المحبوب والتَّعَلُقِ بِهِ والهلَكَةِ بِسَبَبِهِ .

فَعُقْبَى كُلِّ شيءٍ نَحْنُ فيهِ ... مِن الجَمْعِ الكثيفِ إلَى شَتَاتِ
وَمَا حُزْنَاهُ مِن حِلٍّ وَحُرْمٍ ... يُوَزَّعُ في البَنِيْنِ وفي البَنَاتِ
وفِيْمَنْ لَمِ نُؤَهِّلْهُمْ بِفَلسٍ ... وقِيْمَةِ حَبَّةٍ قَبْلَ المَمَاتِ
وتَنْسَانا الأَحِبَّةُ بَعْدَ عَشْرٍ ... وَقَدْ صِرْنا عِظَاماً بَالَيَاتِ
كَأنَّا لَمْ نُعَاشِرْهُمْ بِوُدٍّ ... ولَمْ يَكُ فيهِمُ خِلٌّ مُوَاتِ

واعْلَمْ رَحِمكَ اللهُ أنَّ مّما يُعِيْنُكَ على الفِكْرَةِ في الموت وَيُفَرِّغُكَ لَهُ ويُكْثِرُ اشْتِغَالُ فِكركَ بِهِ تَذَكُرُ مَن مَضَى مِنْ إخْوانَكَ وخِلَانِكَ وأصْحَابِكَ وأقْرانِكَ وزُمَلَائِكَ وأسَاتِذَتِكَ وَمَشايخَتِكَ الذين مَضَوْا قبلك وتَقَدَّمُوا أمَامَكَ .

كانُوا يَحْرِصُونَ حِرْصَكَ ويَسْعَوْنَ سَعْيَكَ ، ويَأمَلُونَ أَمَلَكَ ، ويَعْملُونَ في هذه الدنيا عَمَلَكَ وَقَصَتِ المُنوْنُ أعْنَاقَهُم وقَصَمَتْ ظُهُورَهُم وأَصْلَابَهُم ، وفَجَعَتْ فِيْهِمْ أهْلِيْهِمْ وأَحِبَّاءَهُم وأقْرِباءَهم وجيرانَهُم فأصْبَحُوا آيةً لِلْمُتَوسِّمِيْن وعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرين .

ويَتَذَكَر أيْضَاً ما كانوا عليه مِن الاعْتِنَاءِ بالملابِسِ ونَضَافَتِها ونَضْرَة بَشَرَتِهمْ ، وما كانوا يَسْحَبُونَه مِن أرْدَيِة الشَّبَاب وأنَّهُم كانُوا في نَعِيْم يَتَقَلَّبُون ، وعلى الأسِرَةِ يَتَّكِئُون ، وبِمَا شَاؤا مِن مَحَابِهِم يَتَنَعَمُّوْن .

وفي أمَانِيِّهم يَقُومُون ويَقْعُدُون ، لا يُفكِّرُوْنَ بالزَّوَالِ ، ولا يَهُمُّونَ بانتقالَ ، ولا يَخْطُرُ الموتُ لَهُمْ على بال ، قد خَدَعَتْهُمْ الدُنْيا بِزَخارِفها ، وخَلَبَتْهُمْ وخدَعَتْهُمْ بِرَوْنَقِهَا ، وحَدَثَتْهُم بأحَادِيثها الكاذِبَةِ ، وَوَعَدَتْهُمْ بمواعِيْدِهَا المُخْلِفَة الغَرارةِ .

فَلَمْ تَزَل تُقَرِّبُ لَهُمْ بَعِيْدَهَا ، وتَرْفَعُ لَهُم مَشِيْدَهَا ، وتُلْبِسُهُمْ غَضَّهَا وجَدِيْدهَا ، حتى إذا تَمكنَتْ مِنهم علائِقُهَا ، وتَحَكَّمَتْ فيهم رَوَاشِقُهَا ، وتَكَشَّفَتْ لهم حَقَائِقُهَا ، ورَمَقَتْهُمْ مِن المَنِيَّةِ رَوَامِقُهَا .

فَوَثَبَتْ عليهم وثْبَةَ الحَنِقِ وأَغَصَّتْهُمْ غُصَّةَ الشَّرِق ، وقَتَلَتْهُمْ قِتْلَة المُخْتَنِقْ ، فَكَمْ عَليهم مِن عُيُون بَاكِيَةٍ ، ودُمُوعٍ جَارِيَةٍ ، وخُدُوْدٍ دَامِيَةٍ ، وقُلُوبٍ مِن الفَرح والسُرُوْرِ لِفقْدِهم خَالِيَة . وأَنْشَدُوا في هذا المَعْنَى :

وريَّانَ مِن مَاء الشَّبَابِ إذا مَشَى
يَمِيْدُ عَلَى حُكْمِ الصِّبَا ويَمِيْدُ
تعَلَّقَ مِن دُنْيَاهُ إذْ عَرَضَتْ لَهُ
خَلُوباً لِألْبابِ الرجال تَصِيْدُ
فأصْبَحَ منها في حَصِيْدٍ وقائِم
ولِلْمَرْءِ منها قائِمٌ وحَصِيْدُ
خَلَا بالأماني واسْتَطَابَ حَدِيْثَها
فَيَنْقُصُ مِن أطْماعِهِ ويَزِيْدُ
وأدْنَتْ لَهُ الأشيَاءَ وَهْيَ بَعَيْدةُ
وتَفْعَلُ تُدْنِي الشيءَ وهُوَ بَعيْدُ
أُتِيْحَتْ لَهُ مِن جَانِب الموتِ رَمْيَةٌ
فَرَاحَ بها المَغْرُوْرُ وهُوَ حَصِيْدُ

وصَارَ هَشِيْماً بَعدَمَا كانَ يانِعاً
وعَادَ حَدِيْثاً يُنقَضِي وَيَبِيْدُ
كأَنْ لَمْ يَنَلْ يَوْماً مَنَ الدَّهْرِ لَذَّةً
ولا طَلَعَتْ فيه عَلَيْه سُعُوْدُ
تَبَارَكَ مَن يُجْرِيْ عَلَى الخَلْقِ حُكْمَهُ
فَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عنه مَحِيْدُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأعْمَالَ ، ونَجِّنَا من جميعِ الأَهْوَالِ ، وأَمِّنَا مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزِلْزَالْ ، واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

واعْلمُوا رحِمَكُمْ اللهُ أَنَّ النَّاسَ في ذِكرِ الموتِ على أَقْسَامٍ فَمِنْهُم المُنْهَمِكُ في لَذَّاتِهِ المُثَابِرُ على شَهَوَاتِهِ ، المُضَيِّعُ فِيهَا مَا لا يرجِعُ مِن أَوْقَاتِهِ ، لا يَخْطرُ الْمَوْتُ لَهُ عَلَى بَال ، ولا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِزَوَال ، واتَّخَذَ إلهَهُ هواه ، فأصَمَّهُ وأَعْمَاه وأَهْلَكَهُ وَأرْدَاه .

فإنَّ ذُكِرَ لَهُ الموتُ نَفَرَ وَشَرَد ، وإن وُعِظَ أَنِفَ وبَعُدْ ، وقامَ في أمرِهِ الأول وقَعَدْ ، قد حادَ عن سواء نَهْجِهْ ، ونكِبَ عن الطريق الصحيح ، وأَقْبَلَ عَلَى بَطْنِهِ وفَرْجِهْ ، تَبَّتْ يَدَاه وخَابَ مَسْعَاه .

وَكَأَنَّهُ لم يَسْمَعْ قول الله جلَ جَلَالُه : ﴿ كُلُ نَفْسٍ ذائقَةُ الموت ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُوْنَ منه فإنَّهُ مُلاقِيكم ﴾ .

وهذا وأمْثالُه إنْ ذُكِرَ لَهُ الموتُ تَصَامَمَ عن ذِكْرِهِ كأنَّ لم يَسْمَعْ ولم يُمَكِّنْهُ مِن فِكرِه رَجَاءَ أنْ يَبْلُغَ ما أمَّل أو يُدْركَ بعض ما تَخَيَّل فَعُمُره يَنْقُصِ، وحِرصَهُ يَزِيْد، وجِسْمُهَ يَخْلَقُّ وَيَضْعِفُ، وأمَلُه جَدِيْد، وحَتْفُه قريب.

يَحْرِصُ حِرْصَ مُقِيم ويَسْيْرُ إلى الآخِرة سَيْرَ مُجد كَأَنَّ الدنيا عنده حَقُّ اليِقين والآخِرةَ ظَنٌّ مِن الظُّنُون.

أتَحْرِصُ يَا ابْنَ آدَمَ حِرْصَ باقٍ وأنْتَ تَسِيْرُ وَيْحَكَ كُلَّ حِيْنِ
وتَعْمَلُ طُوْلَ دَهْرِكَ في ظُنُونٍ وأنْتَ مِن المنُونِ على يَقِيْنِ

وقِسْمٌ آخَرُ وَقَلِيْلٌ مَا هُم مَنْ أُزِيْلَ عن عَيْنَيْه قَذَاهَا، وكشُفَ عنِ بَصِيْرِتِهِ عَمَاهَا، وعُرِضَتْ عليه الحَقِيْقَةُ فَرَآها، وأبْصَرَ نَفْسَهُ وهَوَاهَا، فَزَجَرَهَا ونَهاهَا، وأبْغَضَهَا وقَلاهَا.

فَلَبَّى المُنَادِيَ، وأجَابَ الدَّاعِي، وشَمَّرَ لِتَلافِي مَا فَاتَ، والنَّظَرِ فِيْما هُوَ آتٍ، وتأهَّبَ لِهُجُوم هَادِمِ اللَّذاتِ، ومُفَرِّق الجَمَاعَاتِ، واسْتَعَد لِحُلُولِ الشَّتَاتِ والانْتِقَالِ إلى مَحَلَّةِ الأمَوات.

ومَعَ هَذا فَهُوَ يَكْرَهُ أنْ يَشْهَدَ وقائِعَهُ أو يَرَى طَلائِعَهُ ولَيْسَ يَكْرَهُ المَوْتَ لِذَاتِهِ ولا لأنَّهُ هَادِمٌ لِلَّذَاتِهِ، ولكِنَّهُ يَخَافُ أنْ يَقْطَعَهُ عن الاسْتِعْداد لِيَومِ المَعَادِ، والاكتسابِ لِيَومِ الحِسَاب.

ويَكْرَهُ أن تُطْوَى صَحِيْفَةُ عَمَلِهِ قَبْلَ بُلُوغِ أمَلِه، وأنْ يُبَادَرَ بأجَلِهِ قَبْلَ إصْلاحِ خَللِهِ، وتَدَارُكِ زَلَلِهِ، فَهُوَ يُرِيْدُ البَقَاءُ في هذِهِ الدارِ لِقَضَاءِ هذِهِ الأَوْطَارِ والإقَامة بِهَذِهِ المَحَّلِةِ بسَبَب هَذِهِ العِلَّةِ.

شِعْرًا:

أهْونْ بِدَارِكُم الدُّنْيَا وأهْلِيْهَـا واضرِبْ بِهَا صَفَحاتٍ مِنَ مُحِبِّيهَا

اللهُ يَعْلَمُ أني لَسْتُ أَعْشقُهَا ... وَلَا أُرِيْدُ بَقَاءً سَاعَةً فِيْهَا
لَكِنْ تَمَرَّغْتُ في أدْنَاسِهَا حُقُباً ... وبِتُّ أَنْشُرُهَا حِيْناً وأَطْوِيْهَا
أيامَ أسْحَبُ ذَيْلي في مَلاعِبِهَا ... جَهْلاً وأَهْدِمُ مِن دِيْني وأَبْنِيْهَا
وكم تَحَمَّلْتُ فيها غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... مِن شَامِخَاتِ ذُنوب لَسْتُ أُحْصِيْهَا
فَقُلْتُ أَبْقَى لَعَلِّي أَهْدِمُ مَا ... بَنَيْتُ مِنْهَا وأَدْنَاسِيْ أُنَقِيْهَا
ومِنْ وَرَاءِ عِقَابٌ لَسْتُ أَقْطَعُهَا ... حَتَّى أُخَفِّفَ أَحْمَالِيْ وأُلْقِيْهَا
يا وَيْلَتِيْ وَبِحَارُ العَفو زَاخِرةٌ ... إنْ لَمْ تُصِبْنِيْ بِرشٍ في تَثَنِّيْهَا .

هَذَا للَه دَرُّهُ يُرْجَى لَهُ المَغْفِرةُ مَن الله والسرور والحُبُور لِتَوْبِيْخِهِ نَفْسه واستعظامِهِ لِذُنوبهِ ورجائه المغفرة .

وقال ابنُ السَّماكِ إنَّ المَوْتَى لَمْ يَبْكُوْا مِن الموتِ ولَكِنَّهُم يَبْكُونَ مَن حَسْرَةِ الفَوْاتِ فاتَتْهُمْ والله دَارُ لم يتزوَّدُوْا مِنها ، ودَخلُوا داراً لم يَتَزَوَّدُوْا لها .

فأيَّة سَاعَةٍ مَرَّتْ على مَنْ مضَى وأَيَّةُ ساعةٍ بَقِيَتْ عَلَينا وَاللهِ إنَّ المُتَفكِّرَ في هَذَا لَجدِيْرٌ أَنْ يَتْرُكَ الأَوْطَانَ ، ويَهْجُرَ الخلانَ ، ويَدَع ما عَزَّ ومَا هَانَ .

وقال إبْرَاهِيْمُ النَّخَعِي كانُوا يَشْهَدُون الجنازَة فَيُرَى فيهم ذلك أيَّاماً كأن فِيهم الفَكرة في الموت ، وفي حال الميت .

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبدالله ابنِ الشِّخِيْرِ عن أبيه أنَّهَ كان يَلْقَى الرَّجُلَ من خاصَةِ إِخْوانِهِ قد بَعُدَ عَهْدُهُ بِهِ فلا يَزِيْدُه على السلام حتى يَظُنَّ الرجُلَ في صَدْرِهُ عليه مَوْجِدَةٌ ، أيْ غَضَبٌ كُلُ ذَلِكَ لانْشِغالِ فِكْرِهِ بالجَنَازة وتَفكُّرِهِ فيها وفي مَصِيْرِهَا حتى إذا فَرَغوا مِنْهَا لَقِيهُ وسَأله عَن حَالِهِ ولاَطَفَهُ وكانَ منه على أحْسَن ما عَهدَ وقال الأَعْمَشُ كُنَّا نَشْهَدُ الجَنَازَةَ ولا نَدْري مَن المُعَزَّى فيها لِكَثْرة الباكِين وإنما بُكاؤهم على أَنْفُسِهم لا عَلى الميت .

شِعْرًا :

ماذا تُؤمِّلُ والأَيَّامُ ذَاهِبَـةٌ   ومِـنْ وَرَائِكَ للأيَّـامِ قُطَّـاعُ
وصَيْحَـةٍ لِهُجُومِ المَوْتِ مُنْكَرةٌ   صُمَّتْ لِوَقْعَتِهَا الشَنْعَاءِ أَسْـمَاعُ
وغُصَّةٍ بِكُؤُوسٍ أَنْتَ شـاربُهَا   لَهَا بقَلْبِكَ الآمُ وَأَوْجَـاعُ
يا غَافِلاً وهْوَ مَطْلُوبٌ ومُتَّبَـعٌ   أَتَاكَ سَيْلٌ مَن الفُرْسَانِ دَفَّاعُ
خُذْهَا إِلَيْكَ طِعَاناً فِيْكَ نَافِذَةً   تَعْدِى الجَلَيْسَ وأمْرٌ لَيْسَ يُسْطَاعُ
إنَّ المنِيَّةَ لَوْ تُلْقى عَلَى جَبَلٍ   لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ منْهُ وَهْوَ مَيَّاعُ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لَا تَضُرُّهُ الْمعصِيَةُ ولَا تَنْفَعُه الطَّاعَةُ أيْقظْنَا مَنْ نَوْمِ الغَفْلَةِ وَنَبّهنْا لاغْتِنَام أَوْقَاتِ المُهْلَةِ وَوَفّقْنَا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائِحنا وذُنُوبنَا ولا تُؤَاخِذْنَا بمَا انْطَوَتْ عليْهِ ضَمـائرُنا وأَكَنَّتْهُ سَرَائِرُنَا مِنْ أَنْواعِ القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التي تَعْلَمُها مِنّا واغْفِرْ لَنَا ولِوالِدِيْنَا ولِجميعِ المُسْلِمينَ الأَحْياءِ مِنهُمْ والميتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحْمَ الرَّاحِمينَ وصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه أَجْمعين .

فصل في ذكر كلام بعض المرضى والمحتضرين

ولَمَّا احْتُضِرَ أَبُو بَكْر الصِدِيق رضى الله عنه جاءته أُمُّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها فلما رأته تَمَثَّلَتْ بهذا البيت .

لَعَمْرِكَ مَا يُغْنِي الثراءُ عن الفَتَى   إذا حَشْرَجَتْ يوماًوضاق بها الصَّدْرُ

فَكَشَفَ أبو بَكْرٍ عن وجْهِهِ وقال لَيْسَ كَذلِكَ ولَكِنْ قُوْلِي : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كُنْتَ منه تَحَيْد ﴾ ، ثم قال في كَمْ كُفِّنَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قالت : في ثلاثة أثْوابٍ بِيْضٍ سَحُوْلِيَّةٍ . فقال : خُذُوا هَذا الثوبَ لِثَوْبٍ كان عليه قد أَصَابَهُ مِسْكٌ أَوْ زعْفرانٌ فاغْسِلُوْه ثم كَفِّنُوني فيه

مَعَ ثوبَيْنِ آخَرَيْن وكان ثوباً خَلِقاً . فقالت عائشةُ رضى الله عنها ما هذا تُرِيْدُ أَنَّهُ خَلَقٌ . فقال أبُو بَكْر الحَيُّ أحْوَجُ إلى الجَدِيْد مِن الميت إنَّما هذا لِلْمُهْلِ « أيْ لِلصَّدِيْدُ وَالقَيْح » .

ويُرْوَى عن سَعِيْد بن المسَيَّبِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ قال لما أُحْتُضِرَ أبُو بَكْرٍ الصديقُ رضى الله عنه أَتَاهُ ناسٌ مِن أَصْحَابِهِ فَقَالُوا لَهُ يا خَلِيْفَةَ رسُول الله ﷺ إنَّا نَراكَ أَلِمَّ بِكَ فأَوْصِنَا بِوَصِيَّةٍ وَزَوِّدْنَا منك بِمَوعِظَةٍ .

فقال مَنْ قال هَذِهِ الكَلِماتِ ثم مَات جَعَلَ اللهُ رُوْحَهُ في الأُفقِ المُبِيْن فقالوا وما الأُفقُ المبين قَال قَاعٌ بَيْنَ يَدَي العَرْشِ فيه رِيَاضٌ وأشجارٌ وأنهارٌ فَمَنْ قال هَذَا القَوْلَ جعله اللهُ في ذلك المكان .

اللَّهُمَّ إنَّكَ إبْتَدأْتَ الخلق مِن غَير حَاجَةٍ بِكَ إليهم ثم جَعَلْتَهم فَرِيْقاً للنَّعِيْم وفريقاً للسَّعِيْر فاجْعَلنْي لِلنَّعِيْمِ ولا تَجْعِلْنِي لِلسَّعِيْر .

اللهم إنَّكَ خَلَقْتَهُمْ ومَيَّزْتَهُم قَبْلَ أنْ تَخْلُقَهُم فَجَعَلْتَ منه شَقِيّاً وسَعِيْدا وغَوِياً ورَشِيْدَا فلا تُشْقِنِي بِمَعَاصِيْكَ .

اللَّهُمَّ إنَّكَ عَلِمْتَ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفسٍ قَبْلَ أنْ تَخْلُقَهَا ولا مَحِيصَ لَهُم مِمَّا علْمتَ فاجْعَلْنِي مِمَّنْ تَسْتَعْمِلُهُ بِطَاعَتِكَ .

اللَّهُمَّ إنَّ أحداً لا يَشَاءُ إلاَّ مَا تَشَاءُ فاجْعَلْ مَشِيْئَتِي أن أشَاء مَا يُقَرِّبُنِي إليكَ .

اللهم إنَّكَ قَدَّرْتَ حَرَكاتِ العِبَادِ فلَا يَتَحَرَّكُ شَيءٌ إلا بإِذْنِكَ فاجْعَلْ حَرَكَتي في تَقْواكَ اللهم إنَكَ خَلَقْتَ الخيرَ والشَّرَ وجَعَلْتَ لِكُلِّ واحِدٍ منهما عَامِلا يَعْمَلُ بِهِ فاجْعَلْنِي مِن خَيْرِ القسْمَين .

اللهم إنكَ خَلقتَ الجنةَ والنَّارَ وجَعَلْتَ لِكُلِّ واحِدَةٍ مِنهُمَا أَهْلَا فاجْعَلْنِي مِن سَاكِنِي جَنَّتِكَ .

اللهم إنكَ أَرَدْتَ الضَّلاَلَ بِقَوْم وضَيَّقْتَ به صُدُوْرَهُم فاشرحْ صَدْري للإيمان وزَيِّنْهُ في قلبي .

اللهم إنَّكَ دَبَّرتَ الأُمورَ فَجَعَلْتَ مَصِيْرَهَا إلَيْكَ فأَحْيِنِي حَيَاةً طِيِّبَةً وقَرِّبْنِي إلَيْكَ زُلْفَى .

اللهم مَن أُصْبَحَ ثِقَتُه ورَجَاؤهُ غيركَ فأَنْتَ ثِقَتِي ورَجَائِي ولا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بِكَ قال أبُو بكر وهذا كُلُّهُ في كِتاب الله عز وجل إ هـ .

وقال الشَّعْبُِي رحمهُ اللهُ لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ رَضى اللهُ عنه أتِيَ بِلَبنٍ فَشَرِبَ مِنْهُ فَخَرَجَ اللبنُ مِن طَعْنَتِهِ فقال الله أكبر وجعل جُلسَاؤهُ يُثْنُونَ عليه خَيْرا .

فقال وَدِدْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِن الدُنْيَا كَفَافاً كَما دَخَلْتُ لا عَلَيَّ ولا لِي والله لو كَانَ لِي اليَوم ما طَلَعَتْ عليه الشمسُ لَا فْتَدَيْتُ بِهِ مِن هَوْلِ المَطْلِعِ .

ولَمَّا احْتُضِرَ غُشِيَ عليه ورَأْسُه في الأرضِ فوضَعَ أَبْنُهُ عبدالله رَأْسَه في حَجْرِهِ فلما أفاقَ مِن الغَشْيَةِ قال لابنِهِ عبدالله ضَعْ رَأْسِي على الأرضِ كَمَا أَمَرْتُكَ فقال له أَبْنُهُ يا أَبَتِي وهَلِ الأَرْضُ وحَجْرِي إلاَّ سَوَاء قال ضَعْ رأْسِي على الأَرْض كَمَا امَرْتُكَ فَوضَعَهُ .

قال فَمَسَحَ خَدَيْهِ بالتراب ثُمَّ قال وَيْلٌ لِعُمَرَ وَيْلٌ لِعُمَرَ وَيْلٌ لأُم عُمَرَ إنْ لم يَغْفِرِ اللهُ لِعُمَرَ فإذا قَضَيْتُ فأَسْرِعُوْا بِي إلَىَ حُفْرَتِي ، فإنَّما هو خَيْرٌ تُقَدِمونَنِي إليه أَوْ شَرٌ تَضَعُوْنَهُ عن رِقَابِكم .

ولَمَّا احْتُضِر عثمان رضى الله عنه جَعَلَ يَقُولُ ودَمُهُ يَسِيْلُ : ﴿ لا إلَهَ إلا

أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ من الظالمين ﴾ اللهم إني أَسْتَعِيْنُ بِكَ على أُمُورِي وأسألك الصبر على بَلَائِي .

ويُروى أن ابنَ المُنْكَدِرِ رَحِمَهُ اللهُ عندما نَزَل به الموتُ بَكى فَقِيْل لَهُ ما يُبْكِيْكَ فَقَال واللهِ ما أبْكِي لِذَنْبٍ أعْلَمُ أني أَتَيْتُهُ ولَكِنِّي أخافُ أَنْ أَكُوْنَ قد أذْنَبْتُ ذَنْباً حَسِبْتُهُ هَيِّناً وهُوَ عندَ اللهِ عَظِيم .

وقال سليمان التَّيْمِي دَخَلْتُ على بعض أصحابنا وهو في الموت فَرَأَيْتُ مِن جَزَعِهِ ما سَاءَنِي فقلت هَذَا الجزعُ كُلُّهُ لِماذَا وقد كُنْتَ تَحْمَدِ اللهَ على كذا يَعْنِي على حَالَةٍ صالِحَةٍ فقال وما لِي لا أَجْزَعُ ومَنْ أَحَقُّ مِنّي بالجَزَعِ واللهِ لَوْ أَتَتْنِي المَغْفِرةُ مِن اللهِ عَزَّ وجل لأَهَمَّنِي الحَيَاءُ منه فيْمَا أَفْضَيْتُ بِهِ إليه .

وقال بَعْضُ الصالحين لِغُلامِهِ وقد حَضَره الموتُ يا غُلَامُ شُدَّ كِتَافِي وعَفِّرْ بالتُّرَابِ خَدِّيْ فَفَعَلَ الغُلامُ ثم قال دَنَا الرَّحِيْلُ اللَّهُمَّ لا بَراءَةَ لِي مِن ذَنْبٍ ولا عُذْرَ لِي فأَعْتَذِرُ به ولا قُوةَ فأَنْتَصِرُ بهَا ثُمْ قال أنْتَ لِي « ثلاثا » ثم صَاحَ صَيْحَةً ومَاتَ فَسَمِعُوا صَوْتاً في البَيْتِ يَقُول اسْتَكان العَبْدُ لمولاه فقبلهُ وأدْناه » ومعنى اسْتَكان ذَلَّ وخَضَع .

وقال حذيفة رضى الله عنه ما مِن صَبَاحٍ إلاَّ ويُنَـادِي مناد أَيُّها الناسُ الرَّحِيْل الرَّحِيْل .

رَأَيْتُ بَنِي الدُنْيَا كَوَفْدَيْنِ كُلَّمَا تَرَحَّلَ وفْدٌ جَاءَ في إِثْرِهِ وَفْدُ

وقال آخر : أَيُّها الإنْسَانُ إنَّما أنْتَ نازِلٌ مِن الدنيا في منْزِلٍ تعمُرُهُ أَيَّامَ عُمُرِكَ ، ثم تُخْلِيْهِ عند مَوْتِكَ لِمَنْ يَنْزِلُهُ بَعْدَكَ .

أَخْلِ لِمَنْ ينزِلُ ذَا المَنْزِلِ وارْحَلْ فَقَدْ آنَ أن تَرْحَـلْ

وَارْحَلْ بِمَا قَدْ كُنْتَ جَمَعْتَهُ ... واحْمِلْهِ إنْ خُلِّيتَ أنْ تَحْمِلْ
هَيْهَاتَ لا تَخْرُجُ مِنْهُ بِشَيءٍ ... فافْعَلَنْ مَا شِئْتَ أنْ تَفْعَل
واقْعُدْ مِن الغَيْضِ وإلاَّ فَقُمْ ... واطْلَعْ إلى الكواكَبِ أَوْ فَانْزِلِ
فَلَسْتَ بالخارِجِ إلاَّ بِمَا ... جِئْتَ فَسَلِّمْ ويْكَ واسْتَبْسِلِ
وَخَلِّ هذي الأمَاني فمَا ... تُثْمِرُ إلا شَرَّ ما يُؤْكَلْ
كَمْ مِن فَتًى طَوَّل آمَالِهُ ... فَقَصَّرَتْ دُنْيَاهُ ما طَوَّلْ
فَجَاءَهُ الموتُ على غِرَّةٍ ... فَماتَ مِن قَبْلَ الذِي أمَّلْ
فيا إلٰهي الذِيْ جُوْدُهُ ... قَدْ غَمَرَ الآخِرَ وَالأوّلْ
رَحْمَاكَ يا رَحْمٰنُ في فِتْيَةٍ ... لَيْسَ لَهُمْ دُوْنَكَ مِن مُؤَمَّلْ
قد حَجَبَتْهَا عَنْكَ آثَامُهَا ... وأنْزَلَتْهَا شَرَّ مَا مَنْزِلْ
ولَيْسَ إلاَّ عَفْوُكَ المُرْتَجى ... فَدُلَّها مَاذا الذي تَعْمَلْ

اللهم إنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنا وعَلاَنِيَتَنَا وتَسْمَعُ كلامَنَا وتَرى مَكَانَنَا لَا يخْفَى عَليكَ شيْءٌ مِن أَمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ الفُقَراءُ إليكَ المستغيثونَ المستجيرونَ بِكَ نَسأَلك أَنْ تُقَيِّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصُرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والمُنْكَراتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويَقْمَعُ أَهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أَرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

مرض أبو الدرداء فقالوا ندعوا لك طِبْيباً قال الطِبيبُ أمْرَضَنِي . فقال له رَجُلٌ مِن أَصْحَابِهِ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ اشْتَهِيْ أَنْ أُسَامِرُكَ اللَّيْلَةَ « أي أتَعَلَّلْ مَعَكَ وَأُوَنِسُكَ .

فقال أَبُو الدرداءِ أَنْتَ مُعَافَى وأنا مُبْتَلَى فالعافيةُ لَا تَدَعُكَ أَنْ تَسْهَرْ ،

والبلا لَا يَدَعُنِي أنْ أنام أسْألُ الله الذي لا إله إلاَّ هُوَ أنْ يَهَبَ لِأَهْلِ العَافيةِ الشُكْرَ ولأهْلِ البَلا الصبر .

ولَمَّا اشْتَدَّ المَرَضُ على عمر بن عبدالعزيز جَاؤُوْهُ بطَبِيْب فَلَمَّا دَخَلَ عليه ورَآهُ قال : إنَّهُ قَدْ سُقِي السُمَّ ولا آمَن عليه الموتَ .

فَرَفَعَ عُمَرُ بَصَرَهُ وقال لا يُؤْمَنُ أيْضَـا الموتَ على مَن لَمْ يُسْقَ السَّمَ فقال الطبِيْبُ وهَلْ أحْسَسْتَ بذلك يا أمْيرَ المُؤْمنين فقال نَعَمْ عَرَفْتُ ذلك حين وقع في بَطْنِي .

قال تُعَالِجُ يا أمْيرَ المؤمنين فإنّي أَخافُ أنْ تَذْهَبَ نَفْسُكَ فقال عُمَرُ رَبِيْ تبارَكَ وتَعَالَى خَيْرُ مَذْهُوبٍ إليه واللهِ لَوْ عَلِمْتُ أنَّ شِفائِي عند شَحْمَتِ أُذُنِي ما رَفَعْتُ إليهِ يَدِيْ اللّهُمَّ خِرْ « أيْ اخْتَرْ» لِعُمَرَ في لِقَائِكَ فَلَمْ يَلْبَثْ إلا أيَّاماً قلائِل حتى ماتَ رَضى اللهُ عنه .

ومَرِضَ الرَّبِيْعُ بْنِ خَيْثم فقالُوا لَهُ نَدْعُوا لك طَبِيْباً فتفكَّر وقال أيْنَ عادٌ وثَمُود وأصْحَابُ الرس وقُرُوْناً بين ذلكَ كثيْرًا قد كانت فيه الأدوى والأطِبَّاءُ فَلَا أرَى المُدَاوِيْ ولا المُدَاوَى كُلُ قَضَى ومَضَى والله لا أدعُو طَبيباً أبَدًا .

ذهب المُدَاوِي والمُدَاوَى والذي جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ ومَن اشْتَرا

وقال بَعْضُ الصالحين دَخَلْنا على مُغِيْرَةَ الخَرَّاز وهو مريض فَقُلْنَا لَهُ كَيْفَ تجِدك فقال أجِدُنِي مُوْقَراً « أي مُثْقَلاً » بالآثام فقلنا له فما تَشْتَكِي .

قال الحَسْرَةَ على طُوْلِ الغَفْلَة قُلْنَا لَهُ فما تَشْتَهِيْ قال الإنِابَةَ إلى ما عند الله والنُّقلةَ عَمَّا يكْرَهُهُ اللهُ قال فَبَكَى القَومُ جَمِيْعاً .

ودخل الحَسَنُ البَصْري على عَطَاءِ السُّلَمِي وهُو مَرِيْضٌ فَوجَدَهُ قد عَلَاهُ

الغُبَار والصُّفار فقال يا عَطَاءَ لو خَرجْتَ إلى صَحْن الدار فكان يَضْرِبك الهواءُ فتجِدُ لَهُ رَاحَةً .

قال يا أبا سَعِيْد وبهذا تأمُرُني إني لاستَحْيي مَن الله عَزَّ وجَلَ أن أخطُوَ خُطْوةً في رَاحَةِ بَدَني .

وقال مَنصُورُ دَخَلْتُ على عَطَاءِ السُّلَمِي بَعْد هذا أَعُودُهُ وهو مَرِيْض فرأيْتُهُ يَبْتَسِمُ فَعَجِبْتُ من ذلكِ فكأنه فِهم عني .

فَقال أتَعْجَبُ يا ابْنَ أَخي فَقُلْتُ وكَيْفَ لَا أَعْجَبُ فقال وكَيْفَ لا أضْحَكُ وقد دَنَى فراقي مِمَّنْ كُنْتُ أَخافُهُ واحْذَرُهُ .

ودَنَى قُدُوْمِي على خالِقٍ كُنْتُ أرْجُوْهُ وآمُله أتَجْعَلُ مَقَامِي مَعَ مَخْلُوقٍ أَخافُهِ كَقُدومي على خالِقٍ أرجُوْه ، قال هذا قَبْلَ أنْ يَحْضُرَهُ ويَنْزِلَ به الموتُ .

وقال أَحْمَدُ بنُ أبي الحَوارِي دَخَلْتُ على أَحَدَ المُتَعَبِّدِين وهو مريض فَقُلتُ كَيْفَ تَجدُكَ ، فقال بِحَالٍ شَرِيفَةٍ أَسِيْر كَرِيْم حَبِيْسُ جَوَادٍ مَعَ أعْوَانِ صِدْقٍ .

واللهِ لَو لَمْ يَكُنْ لِي مِمَّا تروْنَ عِوَضاً إلاَّ ما أوْدِعَ قَلْبِي مِن مَحَبَّتِهِ لكنْتُ خِلْيقاً أن أدُوْمَ على الرضَى عنه وما الدنيا وما غَايَةُ البَلَاءِ فيها هَلْ هُوَ إلاَّ ما تَرَوْنَ مِن هَذِه العِلَّةِ .

ويُوْشِكُ إنِ اشْتَدَّ بِيَ الأمْرُ أنْ يُدْخِلَنِي إلى سَيِّدِي ولَنَعْمَةِ العِلَّةُ رَحَلَتْ بِمُحِبٌ إلى مَحْبُوبٍ قد أَحْزَنَهُ طُوْلُ التَّخَلُّفِ عنه .

كأنَّكَ قد رَحَلْتَ عن المَبَاني وَوَارَتْكَ الجَنَادِلُ والصَّعِيْدُ
ونادَاكَ الحَبِيْبُ فَلَم تُجِبْهُ وقُرْبُكَ مِنْهُ في الدنيا بَعِيْدُ

وأصْبَحَ مَالُك المجموعُ نَهْباً وعُطِّل بَعْدَكَ القَصْرُ المَشِيْدُ
وَصَارَ بَنُوكَ أيْتَاماً صِغَاراً وعانَقَ عِرْسَكَ البَعْلُ الجَدِيْدُ
وأكْبَرُ مِنْهُ أنَّكَ لَسْتَ تَدْرِي شَقِيٌّ أنْتَ ويْحَكَ أمْ سَعِيْدُ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِن المتقينَ الأبْرارِ وأسْكِنَّا مَعَهمْ في دارِ القرارَ ، اللهم وفقنا بِحُسْنِ الاقبالِ عَليك والإصْغَاءِ إليك ووَفّقنا لِلتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتكَ وحُسْنِ الآداب فى مُعَامَلَتِكَ والتّسليم لِأمْرك والرِّضا بِقَضَائِكَ والصَّبْرْ عَلى بَلائِكَ والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى الله على محمدِ وآلِهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

رُوِيَ أنَّ مَالكَ بنَ دِيْنارِ رَحمَهُ اللهُ دخل على شابِ يَعُودُهُ فَوَجَدَهُ نَحِيَالاً على فِرَاشِهِ كَالشَّنِ (المعنى يابس عليه جِلْدُهْ مِن شِدَّةِ المرض) .

فسأَلَهُ عن حَالِهِ فلم يَسْتَطِعِ الجوابِ بِلِسَانِهِ فأشَار بِطَرْفِهِ وإذا بصَوتِ المؤَذّنِ فَسَمِعْنَاهُ يَقُول كما يَقُول المؤذن وَيُشِيْرُ بأصبُعِهِ عند الشّهَادَتَيْنِ ثم أمَرَ وَلَدَهُ فوضأه ثم أمَرَهُ أنْ يُوَجِهَهُ إلى القِبْلَة لِيُصَلِي وهو مُضْطَجِعٌ بالإيماءِ .

ثم قال يا مَالِكُ البَلاءُ منه سُبْحَانَهُ رَاحَةٌ مَعَ بَقَاءِ الإيْمان يا مالك نِعَمُهُ لا تُعَدُّ وَبَلاؤهُ واحِد .

قال مالك فَتَعَجَبْتُ مِن يَقِيْنِهِ وصَبْرِهِ وصِدْقِ وفائِهِ وخَالِصِ مَحَبَّتهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ إلا يَسِيراً حتى مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ وقال عبدالله بن عُتْبَةَ عدت رَجُلاً مريضاً فلما قَعَدْتُ عنده قُلْتُ لَهُ كَيْفَ حَالُكَ فقال :

خَرَجْتُ من الدنيا وقامَتْ قِيَامَتِي غَدَاتَ أقَلَّ الحَامِلُونَ جَنَازَتي

وعَجَّلِ أَهْلِي حَفْرَ قَبْرِي وصَيَّرُوا　　خُرُوْجِي وتعْجِيْلِي أَجَلَّ كَرَامَتِي
كَأَنَّهُمُوا لم يَعْرِفوا قَطُّ صُوْرَتِي　　غَداةَ أَتَى يَوْمِي عَلَيَّ وسَاعَتِي

ويُرْوى عَن بعض السلف قال كَنْتُ آتي قَبْرَ أبي المرَّةَ بَعْدَ المرةِ فَشَهِدْتُ يَوْماً جَنَازَةً في المقبرة التي دُفِنَ فيها فَتَعَجَّلْتُ بحَاجَتِي ولَم أتِهِ فلما كان مِن الليل رأيتُهُ في المنامِ فقال يا بُنَيَّ لِمَ لَا تَأتِيْنِي فَقُلْتُ له يا أبَتِ وإنَّكَ لَتَعْلَم بي إذا أتيتُكَ قال أيْ والله يا بُنَيَّ وإنَّكَ لَتَأْتِيْنِي فما أَزَالُ أَنْظُرُ إلَيْكَ حَتى تَطْلَعَ مِن القَنْطرة حتى تَصِلَ إليَّ وتَقْعُدُ عندي ثم تَقُومُ فلا أَزَالُ أَنْظُرُ إلَيْكَ حتى تجاوَزَ القَنْطَرة .

شِعْرَا :

ولَمَّـا حَلَلْنَـا مِنْ بِجَايـةَ جَانِبـاً　　تُصَانُ بِهِ تِلْكَ الـجُسُوْمُ وتُكْـرَمُ
وَجَدْتُ لَهَا طِيْباً وَرَوْحاً وراحَةً　　كأنِي لِأَنْفَاسِ الصَّبَا أَتَنَسَّمُ
فَقُلْتُ لِصَحْبِي ما الذِي أَمْرَجَتْ لَهُ　　مَقَابِرُ مِنْهَا لَا طِيءٌ ومُسَنَّمُ
فأَوْهَمْتُهُمْ أَنِّي جَهِلْتُ وَإنَّنِي　　لَأَدْرِي بِذَاكَ الأَمْرِ منهم وأَفْهَمُ
فقالوا طَلَبْنَا عِلْمَ ذَاكَ فَلَمْ نَجِدْ　　سِوَى رِمَمٍ مِمَّنْ تُحِبُّ وتُعْظِمُ
تَضَوَّعَ بَطْنُ الأَرْضِ منها كأَنَّما　　تَفَتَّقَ مِن دَارِيْنَ مِسْكٌ مُخَتَّمُ
فَفَاضَتْ دُمُوْعِي عند ذَاكَ وَرُبَّمَا　　تَشَهَّـرَ بالدَّمْـعِ السرارُ المُكَتَّمُ
خَلِيْلَيَّ ما بَالِي وبالُ مَصَائِبٍ　　يُرَاعُ لِذِاكْراها فُؤَادِي ويُكْلَمُ
ومِمَّا شَجَانِي وَهْوَ أَعْظَمُ أَنَّنِي　　قَذَفْتُ بها مُسْوَدَّة الجَوْف تَلْطِمُ
وَلَمْ أَدْرِ مَا كَانَتْ تَحِيَّةُ خَصْمِهِ　　لَهُ هَلْ بِبُشْرَى أَمْ بِشَنْعَاءَ تَقْصِمُ
وَأَعْظَـمُ مِنْـهُ مَوْقِعاً وَأَشَدُّهُ　　وما خَصَّنِي أَدْهَى عَلَيَّ وأَعْظَمُ
بأَنِي في تِلْكَ المَسَالِكِ سَالِكٌ　　أُسَاقُ إلَيْهَا إنْ أَبَيْتُ وَأُرْغَمُ

وما أنَا أُدْرِيْ ما آلآقِي وما الذِي   عَلَيْه إذَا مَا كانَ ذَلِكَ أُقْدَمُ
فَهَلْ مِنْ دَمٍ أَبْكِيْهِ صِرْفاً فإنَّمَا   يُبَكَّى على هَذَا مِن المُقْلَةِ الدَّمُ

اللَّهُمَّ اعْطِنَا مِنْ الخَيْرِ فَوْقَ مَا نَرْجُوْ وَاصْرِفْ عَنَّا مِنْ السُّوْءِ فَوْقَ مَا نَحْذَرُ . اللَّهُمَّ عَلِّقْ قُلُوْبَنَا بِرَجَائِكَ وَاقْطَعْ رَجَاءَنَا عَمَّنْ سِوَاكَ . اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ عُيُوْبَنَا فَاسْتُرْهَا وَتَعْلَمَ حَاجَاتِنَا فَاقْضِهَا كَفَى بِكَ وَلِيًّا وَكَفَى بِكَ نَصِيْرًا يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ سَبِيْلِ عِبَادِكَ الأَخْيَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءَ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

وقال رَحِمهُ اللهُ تعالى :

واعلم رحمكَ الله أنَّ أمْرَ الخَاتِمَةِ ومَا يُحْذرُ مِن سُوْئِهِ أمْرٌ إذا ذُكِرَ حَقِيْقَةَ ذِكْرِه انْفطَرتْ لَهُ القُلوبُ وتصَدَّعتْ لَهُ الأكْبَادُ وتقطَّعَتْ .

ولوَلَا أنَّ الله جَل وعلا حَدَّدَ الآجالِ لَزهَقتِ الأنْفُسُ عِنْدَ أوَّلِ ذِكْرِه ولَكنَّهَا مَرْبُوبةٌ مُدَبَّرةٌ مَقْهُورَةٌ مُصرَّفَةٌ تَخْرُجُ إذا أُذِنَ لَهَا في الخُرُوْجِ وتَلِجُ إذَا أُذِنَ لَهَا في الوُلُوج .

وما يَمْنَعُ القُلُوبَ مِن الإنْشِقَاقِ والإنْصِدَاعِ والإنْفِطَارِ والإنْقِطَاعِ والذي يَلْقَى المخْتُوْمُ لَهُ بِسُوْءِ الخاتمَةِ عَذابٌ لا تَقُومُ له السموٰاتُ والأرْضُ لِشِدَّتِهِ ولا آخِرَ لِمُدَّتِهِ .

ومَا مِنَّا أَحَدٌ إلاَّ ويَخافُ أنْ يَكُونَ مِمَّنْ يُخْتَمُ له بِسُوْءِ الخاتِمَةِ ، وما الذي

أَمَّنَهُ مِنْهُ ، والخَاتِمَةُ مُغَيَّبَةٌ ، والعَاقِبَةُ مَسْتُورَةٌ ، والأَقْدَارُ غَالِبَةٌ والنَّفْسُ كما تَرى ، والشَّيْطانُ منها بِحَيْثُ تَدْرِي .

وهي مُصْغيةٌ ومُسْتِمَعَةٌ إليه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء ﴾ فَهِيَ مُلْتَفِتَةٌ نَحْوَ الشيطان ومُقْبِلَةٌ عَليه .

هِيَ النَّفْسُ إنْ تَنْظُر إلى الحق نَظْرَةً فإنَّ لَهَا في غَيْرِهِ نَظَـرَاتِ
وإنْ نَهَضَتْ يَوْماً إلى اللهِ نَهْضَةً فإنَّ لَهَا عَنْهُ غَداً نَهَضَاتِ
إلَى اللهِ أَشْكُوهَا فبِاللهِ حَـوْلُهَا وَبِـاللهِ تَمْضي في الأُمُــوْرِ وتَاتِي

وَرَدَ في الخَبَر عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : « إن الرجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجنةِ فيما يَبْدُو للناسِ وهُوَ مِن أَهْلِ النار .

وإنَّ الرجُلَ لَيَعمْلُ عَمَلَ أهل النارِ فيما يَبْدُو للناسِ وهو مِن أَهْلِ الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وجَفَّتِ الصُحُف » وأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ :

قد جَرَتِ الأَقْلامُ في ذَا الوَرَى بالخَتْمِ مِن أَمْـرِ العَـليمِ الحَكِيـمْ
وخَطَّتِ الشَّيءَ عَلى حُكْمِهِ في عِلْمِهِ السَّابِقِ منه القَدِيمْ
فَمِنْ عَزِيْزٍ رَأْسُهُ في السُّهَى ومِن ذلِيْلٍ وَجْهُهُ في التُخُوْمْ
وَمِن صَحِيْحٍ شُدَّتْ أَرْكَانُهُ وآخَرُ وَاهِي المَبَانِي سَقِيْـمْ
كُلٌّ على مِنْهَا جِهِ سَـــالِكٌ كُلٌّ عَلى تَقْدِيْرِ رَبٍّ عَلِيْم

وقال رحمه الله فانْظُرْ رَحِمكَ اللهُ كَيْفَ تَقَرُّ عَيْنُ عاقِلٍ في هذه الدار وكَيْفَ يَسْتَقِرُّ بِهِ فِيها قَرَار مَعَ هَذِهِ الحالِ وَتَوقعِ هذا المآل واشتغال هَذا الخَاطِر وتَقِسيْم هذا البَال .

كَلاَّ لَا حُلول لَهُ ولا قَرَارَ ولا رَبْعَ وَلا دَار ولَا قَلْبَ إلاَّ مُسْتَطَار ، وَلا نَوْمَ يَنَامُهُ إلاَّ غِرَار حَتَّى يَدْرِي أَيْنَ مَسْقَطُ رَأْسِهِ ومَحَطُّ رحْلِهِ وموضعُ رِجْلِهِ ، وما المَوْرِدُ والمَنْهَل وفي أيِّ الْمَحَالِّ يَحِل وفي أَيِّ المنازِل يَنْزِل :

وكَيْفَ تَنَامُ العَيْن وهي قَرِيْرَةٌ ولَمْ تَدْرِ في أيِّ المَكَانَيْنِ تَنْزِلُ

لَكِنْ حِجَابُ الغَفْلَةِ الذي غَطَّى القُلُوبَ كَثِيْفٌ فَلا يُرِى ما وَرَاءَهُ وَالوَقْرُ الذي في الآذانِ عَظِيْم فلا يَسْمَع مِن ناصحٍ دُعَاءَهُ .

روى في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يُجَاءُ بالموتِ يَومَ القِيَامَةِ كأنَّه كَبْشٌ أمْلَح فيوقف بين الجنةِ والنارِ .

فَيُقَالُ يا أهْلَ الجَنَّةِ هل تعرفون هذا فَيَشْرَئِبُّون وينظرون ويَقُولُونَ نَعم هَذَا الموتُ .

ثم يُقَال يا أهْلَ النار هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَشْرَئِبُّون وَيَنْظُرون ويَقُولُونَ نَعَم هذا الموتِ فَيُذْبَحُ ثم يقال يا أهل الجنة خُلُودٌ فلا مَوْتٌ ويا أهْلَ النارِ خُلُودٌ فلا مَوتٌ ، ثم قَرَأ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وأَنْذِرهم يَومَ الحَسْرَة إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهم في غَفْلَةٍ وهم لا يؤمنون ﴾ » .

فانْظُرْ رَحِمنَا اللهُ وإيَّاكَ إلى عَظِيمِ هذِهِ الغَفْلِةِ وكَثَافَةِ حِجَابِهَا وكَيْفَ مَنَعَتْ مِن النَّظَرِ في هذا الحَدِيْث والفِكْرَةِ فيه والعَمَلِ بِمُقْتَضاه .

شِعْرا :

حاسِبِ النَّفْسَ قَبْلَ يومِ الحِسَاب وأَذِقْهَا العَذَابَ قَبْلَ العَذَابْ
وأَصِبْهَا مِن الأَسَى بِشِوَاظٍ يُنْضِجُ اللَّحْمَ قَبْلَ نَضْجِ الإهَابْ
وإِذَا مَا بَكَيْتَ يَوْماً بِدَمْعٍ فَبِدَمْعٍ مِن الفُؤادِ مُشَابْ

وحذارِ حذارِ أنْ تتهنّا بطعامٍ تنالُهُ أوْ شرابْ
أوْ منام تنامُ باللّيْلِ حتّى تستبيْنَ المآلَ يوْمَ المآبْ

وقِيْلَ يا ابْنَ آدَمَ الأقْلامُ تَجْرِيْ وأنْتَ في غَفْلةٍ لا تَدْرِي ، يا ابْنَ آدَمَ دَعِ المغَانِي والأوْطان والمنازِلَ والديار ، والتّنافُس في هذه الدار ، حتى تَرَى ما فَعَلَتْ في أمْرِكَ الأقْدَار ، وقَدْ بَكى أُولُوالألْبَاب عَلى هَذا فأكْثَرُوْا واسَهرُوْا مِن أجْلِهِ اللّيالِي الطّوِيْلَةَ وأسَهرُوْا وحَاوَلَ عَاذِلُوهُم كفّهُم عمّا هم فيه فلم يَقْدِرُوا وكَلّمُوهُم في الاقْصارِ فلم يُقَصِّرُوْا ولم يَسْمَعُوا ولَمْ يُبْصِرُوْا .

وذَلِكَ لِلْعلمِ الذِي لاَحَ لهُمْ والتّأْيِيْدِ الذي شَمَلَهُمْ والتوفيقِ الذي قَطَعَ عنهم ما صَدّهُم عن طَرِيْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَ وشَغَلَهُم ورُبَّمَا هَبَّتْ عليهم نَفَحَاتُ الرَّجَاءِ فاسْتَبْشَرَوْا وَسَكَنُوا مَن ذَلِكَ الهَيَجَانِ وفَتَرُوْا .

ثم ذَكَرُوْا مَا هُمْ مُعَرَّضُونَ لَهُ فَعَادُوا لِمَا كَانُوا عليه مِن الاجْتِهَادِ ، وَرُبَّمَا زَادُوْا عليه وأكْثَرُوْا ، ومَعَ هَذَا فإنّهم لِشِدَّةِ خَوْفِهِمّ من الله وكَثْرَةِ جَزَعِهم يَظُنُونَ كُلَّ إشَارَةٍ إنّما يُشَارُ بَها إلَيْهم .

كما رُوِيَ أنَّ عُمَرَ رَضِي الله عنه سَمِعَ قَارِئاً يَقْرَأُ : ﴿ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لواقِع ﴾ قال هَذَا قَسَمُ حَق فَظَنَّ أنَّ العَذاب قد وَقَعَ بِهِ فَغُشِيَ عليه .

وسَمِعَ آخَرُ قَارِئاً يَقْرَأُ : ﴿ خُذُوْهُ فَغُلُّوْه ﴾ أوْ آيَةً نَحوهَا فَغُشِى عليه .

ومَرَّ آخرُ عَلَى رَجُلٍ يَبِيْعُ الخيارَ ، ويَقُول عَشَرَة بِدَانق « الدانِق سُدْسُ دِرْهم » فَغُشِيَ عليه فلما أفَاقَ قِيْلَ لَهُ مِمَّ غُشِيَ عَلَيْكَ . فَقَالَ أوَ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ الخِيَار العَشَرة بِدَانِق ، وإذا كانَتْ قِيْمَةُ الخِيَارِ هَذِهِ فَكَمْ تَكُونُ قِيمَتِيْ وقِيْمَةُ أمْثَالِيْ » .

ظَنَّ المِسْكِيْنَ أنَّ المُرَادَ خِيَارُ الناس وأفاضِلُهُم فانظُرْ إلى هذا المِسْكين لَمْ

يُلْقِ بَالَهُ إلَى أنَّه الخِيَارَ المأكول وذلك لِشِدَّة خَوفِهِ وسُوْءِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ .

وخِتَاماً فاسْلُكْ على مِنَهاجِ هَؤلاء العُقلاء ، والتمسْ على آثارِ هَؤلاء الفُضَلاء ، وأَدِمْ حَسْرَتَكَ ، وأطِلْ زفْرَتَكْ ، وامْزِجْ بِدَمِ الفؤادِ عَبْرَتَكَ ، وصِلْ البُكَاءَ بالبُكاءِ ، والأَسَى بالأَسَى حتى تنكشِفَ لَكَ هَذِهِ الغِشَاوَة وتنجَلي عنكَ هذهِ العَمايَة .

بَكَى سُفيَانُ الثوري لَيْلَةً إلى الصَّبَاح فَقِيلَ لَهُ أبُكَاؤُكَ هَذا على الذُنُوب فأخَذَ تبنَةً مِن الأرض وقال الذُنُوبُ أَهْوَنُ مِن هَذِهِ إنَّمَا أبْكي خَوْفَ سُوْء الخاتِمَة » لأنها الأمر الذِي يُبْكَي عَليه ، ويُصرَفُ الإهْتِمامُ لَهُ .

ولِذَلك قِيْلَ لا تكفَّ دَمْعَكَ حَتى تَرى في المَعَادِ رَبْعَكَ ، وقِيْلَ لا تَكْحلْ عَينكَ بنَومٍ حتى تَرى حَالَكَ بَعْدَ اليوم ، وقِيْلَ لا تَبِتْ وأنْتَ مَسْرُوْرٌ حتى تعْلَم عَاقِبَةَ الأمورِ .

وسَمِعَ بَعْضُ الصالحين رَجُلاً يُنْشِدُ شَطْرَ بَيْتِ شِعر . أيَا رَاهِبِيْ نَجْرَان مَا فَعَلَتْ هِنْدُ فَبَكَى لَيْلَتَهُ كُلَّهَا .

فلما أصْبَحَ قِيْلَ لَهُ ما كان شَأنك البارحة وما الذي أبْكَاكَ فقال : سَمِعْتُ مُنْشِداً يُنْشد الشطر السابق فَقُلْتُ في نَفْسي ماذا قُدِّرَ عَلي وما الذي يَجْرِي عَليَّ فانْظُرِ الفرقَ بيْنَهُ وبَيْنَ مُنْشِدِ البيت ا. هـ .

وقد عَلِمْتَ أنَّ الناسَ صِنْفَان صِنْفٌ مُقَرَّبٌ مُصَان ، وصِنْفٌ مُبْعَدٌ مُهَان ، صِنفٌ نُصِبَتْ له الأسِرَّة والحِجَال وجُمِعَتْ له الرَّغَائِبُ والآمَالُ وَالأرَائِكُ والكلال .

وصِنْفٌ أعِدَّتْ لَهُ الأرَاقِمُ والصِّلال والمقامِعُ والأغلال وضُرُوْبُ الأهْوَالِ

وَالأَنْكَال والسَّلاسِلُ والغِسْلِين والزَّقُوم والضريع والحَمِيْم وأنْتَ لا تَعْلَم من أيِّ الصنفَيْنَ أنْتَ ولا في أيِّ الفريقين كُتِبْتَ .

وكَيْفَ بالنَّوْمِ على زَارَةٍ مِنْ أسَدٍ تَكْشُرُ أنْيَابُهُ
وأنْتَ في ذَاغَيْرُ مُسْتَعْتَبٍ في منْزِلٍ قَدْ كسُرَتْ أبْوَابُهُ
وثُلِّمَتْ بالرَّوْعِ حِيْطَانُهُ وفُرِّقَتْ بالخَوْفِ حُجَّابُهُ

آخـــر :

والذي أبْكَى الجُفُونَ دَماً فَغَدَتْ مِن ذلكَ الدَّمْعِ غُدُرْ
سابقٌ لم نَدْرِهِ كَيْفَ جَرَى في القَضَاءِ الحَتْمُ فيه وَالقَدَرْ
وأُمُور في الوَرَى قَدْ أُخْفِيَتْ عن ذَوِي الألْبَابِ أصْحَابِ النَّظَرْ
فَدَعِ الأنْفَاسَ فيها صَاعِدِةْ ودُمُوعَ العَيْنِ مِنَها تَنْحَدِرْ
وأبْكِ لَا جَفَّتْ دُمُوعُ العَيْنِ مَا ضَاعَ مِن أيَّامِكَ أيَّامَ الغَرَرْ

اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أعْمَارَنَا وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ في جَمِيْعِ الأحْوَالِ أَعْمَالَنَا يَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَى وَيَا دَائِمَ الإحْسَانِ أُذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَأَنِلْنَا مِنْ كَرَمِكَ وَجُودِكَ مَا تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وقال رحمه الله واعلم أنَّ لِسُوءِ الخاتمة أعَاذَنَا اللهُ منها أسْبَاباً وَلَها طُرُقٌ وأبْوَابٌ أعْظَمُهَا الإقْبَالُ والاكْبَابُ على الدنيا ، والإعْراضِ عن الآخرة ، والإقدام بالمعصية على الله جل وعلا وتقدس .

ورُبَّمَا غَلَبَ على الإنسان ضَرْبٌ مِن الخَطِيئَةِ ونوعٌ مِن المَعْصِيَةِ وجَانِبٌ مِن الإعْراضِ عَنِ اللهِ والدار الآخِرةِ ، ونَصيبٌ مِن الإفتِرَاءِ ، فَمَلَكَ قَلْبَهُ وسَبَى عَقْلَهُ ، وأطْفَأَ نُورَهُ ، وأرْسَل عَليه حُجُبَهُ .

فلم تَنْفَعْ فيه تذكرة ، ولا نَجَعَتْ فيه مَوْعِظة ، فَرُبَّمَا جَاءَ الموتُ على ذلك فَسَمِعَ النداءِ من مَكَانٍ بَعِيْد فلم يَتَبَيَّنِ المرادُ ولا عِلِمَ ما أَرَادَ ، وإن أعَادَ عليه وأعَاد .

ويُرْوَى أنَّ أحَد رِجَالِ الناصِرِ بنِ عِلْنَاس ، نَزَلَ بِهِ الموت فَجَعَلَ ابنُه يَقُولُ لَه : (قَل لا إله إلا الله) فقال النَّاصِر يَا مولَاي ، فأعادَ عَليه ، فأعَادَ ثم أصَابَتهُ غَشْيَةٌ فلما أفاقَ منْها قال الناصِر أمَوْلَاي ، ثم قال لابْنِهِ يا فلانُ الناصِرُ إنما يَعْرِفُكَ بِسَيْفِكَ فالقَتْلُ ثم القَتْلُ ثُم مَاتَ .

وقيل لآخَرَ قل لا إله إلا الله عندما نَزَلَ به الموتُ فقال الدارُ الفُلانيةُ أصْلِحُوْا فيها كَذَا ، والجنان الفلانية افْعَلُوا فيها كذا ، وقيل لِرجَلُ نَزَلَ به الموت (قل لا إله إلا الله) فَجَعَلَ يقول بالفَارِسِيَّة دِهْ يا ازْدِهْ دَوَازْدِهْ تَفْسِيْر عَشَرة أحَد عَشَر إثْنَا عَشَر كان هذا الرجل مِن أهل العَملِ والدِيوان فَغَلب عليه الحِساب والميزان .

وقيل إنَّ رَجُلاً نَزَلَ به الموتُ فقِيل له قل لا إله إلا الله فجعل يقول :

يا رُبَّ قائلةٍ يَوْماً وقد تَعِبَتْ أيْنَ الطَّرِيقُ إلى حمام مَنْجَابِ

وهذا الكلام فيه قِصَّة وذلك أنَّ رَجُلاً كانَ وَاقِفاً عَلَى باب دَارِه وكان بابُ دَارِه يُشْبِهُ بابَ الحَمَّام فَمَرَّتْ إمْرَأة لَهَا رَوْنَق ومَنْظِرٌ خَلَّاب وهي تَسْأَلُ عن طَرِيْق حَمَام مَنْجَاب .

فقال لَهَا هَذَا حَمَّامُ مَنْجَاب وَأَشَارَ إلى دَارِه فدخَلَتْ دَارَهُ ودَخل وَرَائَهَا فَلَمَّا رَأَتْ نَفْسَهَا مَعَهُ في دَارِه ، ولَيْسَتْ بِحَمَّامٍ عَلِمَتْ أنَّه خَدَعَهَا فاحْتَالَتْ عَليه بأن أظْهَرَتْ لَه الفَرَحَ والبِشر باجتماعِهَا مَعَهُ على تِلْكَ الخَلْوَةِ في تِلكَ الدارِ .

وقالَتْ يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ عِنْدنَا مَا يَطِيْبُ بِهِ الاجْتِماعُ وتَقَرَّبِهِ عُيُوْنُنَا فَفَرَحَ وقال السَّاعَةَ آتِيْكِ بكُلِ ما تُرِيْدِيْن وَمَا تَشْتَهِيْنَ .

وخَرَجَ وتَرَكَهَا في الدَّارِ ، وظَنَّ أنَّهُ أغْلَقَ عَلَيْهَا البَاب ، وَمَضَى وأتَى بما يَصْلَحُ لَهُمَا ورَجَعَ ودخَلَ الدارَ فَوجَدَهَا قَدْ خَرَجَتْ وذَهَبَتْ ولم يجَدْ لَهَا أثر .

فَهَامَ الرُجلُ بِهَا وذَهَبتْ بِلُبِّهِ فأكْثَرَ الذِكْرَ لَهَا والحُزْنَ والجَزَعَ عَليها وجَعَل يَمْشِي في الطُرِّقِ ويقول :

يا رُبَّ قائِلةٍ يَوْماً وقَدْ تَعِبَتْ أيْنَ الطَّرِيْقُ إلى حَمَامِ مَنْجَابِ

ومَرَّ من عِنْدِ بَيْتِهَا وَهُوَ يُنْشِدُ هذا البَيْتَ وإذا بها تُجَاوِبُهُ مِن دَاخِل دَارِهَا وتَقُول بِصَوْتٍ سَمِعَهُ :

هَلاَّ جَعَلْتَ سَرِيْعاً إذْ ظَفِرْتَ بِهَا حِرْزاً عَلَى الدارِ أوْ قُفْلاً عَلى البابِ
إنْ يَنْفَذَ الرِّزْقُ فالرَّزَاقُ يَخْلِفُهُ والعِرْضُ مِنْ أيْنَ يَا مَغْرُوْرُ يُنْجابُ

فلما سَمِعَ ذلك جَعَل يُرَدِّدُ ذلك ومات .

وقيل لآخَرَ قُلْ لا إله إلا اللهُ فَجَعَلَ يَهْذِيْ بالغِنَاء وقال وما يَنْفَعُنِي ما تقُولُ ولَمْ أدَعْ مَعْصِيَةً إلا رَكِبتُهَا ثم ماتَ .

وقِيل لآخَرَ قُلْ لا إلهَ إلا الله فقال ومَا يغني عَنِّي وما أعْلَمُ أني صَلَيْتُ لله صلاةً ثم مَاتَ ولَمْ يَقُلْهَا .

وقيل لآخَرَ قُلْ لا إلهَ إلا الله فقال هو كافِرٌ بما تقول ومَات .

وقيل لآخَرَ قُلْ لا إلهَ إلا الله فقال كلَّما أَرَدْتُ أنْ أقُوْلَهَا فلِسَاني يُمْسَكُ عنها .

وقال ابنُ القيم رحمه الله أُخْبَرني مَنْ حضر بَعْضَ الشَّحَاذِين عندَ الموتِ فَجَعَل يقُول لِلهِ فُلَيْسٌ ، لِلهِ فُلَيْسْ فماتَ .

وأخبرني أحَدُ التُّجَار عن قَرِيْبٍ لَهُ احْتُضِر وهو عنده فَجَعَلُوا يُلقِنُونَهُ ﴿ لا إله إلا الله ، وهو يقول هذه القِطْعَةُ رخيْصَةٌ هذا مشترى جيد) .

وسُبْحَانَ الله كم شاهَدَ الناسُ مِن هَذَا عِبَراً والذِي يَخْفَى عليهم مِن أَحْوال المُحْتَضَرِيْنَ أعْظَمُ .

وإذا كان العبد في حال حُضُورِ ذُهْنِهِ وقُوتِهِ وكَمَالِ إدْرَاكِه قد تَمَكَّنَ منه الشيطان واسْتَعْمَلَهُ بما يُرِيْده مِن المَعَاصِي .

وقد أُغْفِلَ قَلْبُهُ عن ذكر الله تعالى وعَطَّلَ لِسَانَهُ عِن ذِكْرِه وجَوَارِحَهُ عن طاعته فكَيْفَ الظن به عند سقوط قُواهُ واشتغالِ قَلْبِهِ بما هُوَ فيْهِ مَن ألم النَّزْعِ .

وجمع الشيطانُ له كُلَّ قُوَّتِهِ وَهمَّتِهِ وحَشَدَ عليه بجميع ما يقدر عليه لِيَنَالَ منه غَرَضَهُ فإنَّ ذلك آخر العمل .

فأقْوى ما يَكُونُ عليه الشَيْطَانُ ذلك الوقت وأضْعَفُ ما يكون هو في تِلْكَ الحالة « أيْ حَالةُ نَزْعِ الرُوْحِ » .

فَمَنْ ترى يَسْلَمُ على ذلك فَهُنَالِكَ ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخِرَة وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ويَفْعَلُ اللهُ ما يشاء ﴾ .

فكَيْفَ يوفَّقُ لِحُسْنِ الخَاتِمَةِ مَن أغْفَلَ اللهُ قَلْبَهُ عن ذِكره واتَّبعَ هَوَاهُ وكانَ أمْرُهُ فُرُطا .

فَبَعِيْدٌ مِن قَلْب بَعِيْدٍ من الله غافل عنه مُتَعَبِّدٌ هَوَاه مُصَيِّره لِشَهَوَاتِهِ ولِسَانُهُ يَابَسٌ من ذكرهِ وجَوارحُهُ مُعَطَّلَةٌ مِن طاعَتِهِ مُشتَغِلَةٌ بِمَعْصِيَتِهِ فَبَعِيْد أن يُوَفَّق لِحُسْنِ الخاتِمَةِ . انتهى كلامه رحمه الله .

ونُقِلَ عن شَارب الدخان أنَّه كلما قيل لَهُ قل لا إله إلا الله قال تِتْنْ حَار تِتْنْ حَار .

ونُقِلَ عن بَقال أنَّه كان يُلَقَنُ عِندَ الموت كَلِمَتيْ الشَّهادَتَيْن فَيَقُول خَمْسَةْ سِتَّةْ أرْبَعَةْ فكان مَشْغُولاً بالحِسَابِ الذي طَالَ لَهُ إلْفُهُ فَغَلَبَ على لِسَانِهِ ولم يُوَفَّق لَلشَّهادَتَين .

ويُخْشَى على صاحب المعاصِي والمنكرات ومُتخِذي الآتِ اللَّهو مِن شطرنج وأعْوَاد وَأوْرَاق لَعِب وبَكَمات واصْطُوانات وكُرَة ومذْيَاعٍ وتلَفزيون وفِيْديُو وسِينما وصُور ذوات الأرواح .

أنْ يَكون مَشْغُولاً بها في آخِر لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ فَيكُوْنُ ختامُ صَحِيْفَتِه والعِيَاذُ بالله ما نَطَق به لِسَانُه مِن مَا يأتي فيها مِن المنكَرات مِن أغاني وصُور وتمثِيْلياتٍ ونحو ذلك نسأل الله أنْ يَعْصِمَنَا واخواننا المسلمين منها وقال رحمه الله واعْلَمْ أنَّ سُوءَ الخَاتِمَةِ أعاذَنَا الله وإيَّاكَ وجَميْعَ المسلمين منها لا تكُونُ لَمِن اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وصَلُحَ بَاطنه ، وإنما تكون لِمَنْ كان له فسادٌ في العَقْل وإصْرَارٌ على الكَبَائِر وإقدامٌ على العظائم .

فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عليه حتى يَنْزِلَ بِهِ الموتُ قبل التَّوبَةِ ويَثِبُ عليه قَبْلَ الإنَابَةِ ويأخُذُهُ الموتُ قبل إصْلَاحِ الطَّوِيَّةِ فَيختَطِفُهُ الشيطانُ عِندَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ

والعِيَاذُ بالله ثم العِيَاذُ بالله أن يَكُونَ لِمَنْ كان مُسْتقيماً لم يَتَغَيَّر عن حالِه ولَمْ يَخْرُجُ عن سُنَّتِهِ .

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بِقَوم حَتَّى يُغَيِّرُوْا ما بأنْفُسِهِم ﴾ الآية وقد سَمِعْتَ بقصَّةِ بلعَامِ بن باعُوراء وما آتاهُ الله مِن آياتِهِ وأطْلَعَهُ عليه مِن بَيِّنَاتِهِ « أخلَد إلى الأرْضِ واتبع هواه » فَسَلَبَهُ الله سُبْحَانَه جَمِيْعَ ما أعْطَاهُ وَتركَه مَعَ مَن اسْتمالَهُ وَأغوَاهُ .

شِعْرَا :

إلَى كَمْ ذَا التَّمادِي بالدَّسَائِسْ وأنْتَ بِحَمْأةِ البُهْتَانِ غَاطِسْ
تُسَاعِدُ كُلَّ نَمّامٍ بإفْكٍ وتَغْتَالُ الأكَارِمَ والأوانِسْ
تُسَابِقُ كُلَّ شَيْطَانٍ رَجْيمٍ بَمَا تُبْدِيْهِ مِنْ فِتَنِ الوسَاوِسْ
أضَعْتَ العُمْرَ في زُوْرٍ وَوِزْرٍ وَلَهْوٍ معْ ذَوِي الغَدْرِ الأبَالِسْ
فعَجِّلْ بالمتَابِ لنيلِ عَفْوٍ لِتُحبَى مِنْ جَنَا مَا أنْتَ غَارِسْ

اللَّهُمَّ أنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنَا وعَلَانِيَتَنَا وتَسْمَعُ كَلَامَنَا وتَرَى مَكَانَنَا لَا يخْفَى عَلَيْكَ شَيْءُ مِن أمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ إليكَ المستغيثون المستجيرونَ بِكَ نَسْألك أنْ تُقَيِّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصُرُهُ ويُزيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدع والمُنْكَراتِ وتُقِيْمَ عَلَمَ الجِهَادِ وتَقْمَعَ أهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْألُكَ أنْ تَغْفِرَ لنَا ولِوَالِدَيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْــــلٌ)

ويُرْوَى أن إبراهيمَ الخليل عَليه السلامُ لمَّا ماتَ قال الله جل جلالهُ لَهِ كَيْفَ وجَدْتَ الموتَ قال كَسَفُّودٍ جُعلَ في النارِ ثم أدْخِلَ في صُوْف رَطْبٍ ثم جُذِبَ فقال الله تعالى أمَا إنَّا لَقَدْ هَوَّنَاهُ عَلَيْكَ يَا إبْراهِيم .

ويُرْوَى عن مُوسَى عليه السلام أنَّه لَمَّا صارتْ رُوْحُهُ إلى الله تعالى قال له يا مُوْسَى كَيْفَ وجَدْتَ المَوْتَ فقال : وجَدْتُ نَفْسِي كالعُصْفُورِ حِيْنَ يُلْقَى في المَقْلَى لا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحِ ولا يَنْجُو فَيَطِيْر .

ويُروَى عنه أنَّهُ قال وجَدْتُ نَفْسِي كَشَاةٍ حَيَّةٍ بِيَدِ القَصَّابِ تُسْلَخُ .

ويُرْوَى أنَّ عُمَرَ قال لكعب الأحبار حَدِثْنَا عن الموت فقال نعم يا أَمِيْرَ المؤمنين كغُصْنٍ كَثِيرِ الشوكِ أُدْخِلَ في جَوْفِ رَجُلٍ فأخَذَتْ كُلُّ شَوْكَةٍ بِعِرْقٍ ثم جَذَبَهُ رَجُلٌ شَدِيْدُ الجَذْبِ فأُخَذَ ما أَخَذَ وأبْقَى ما أُبْقَى .

وقال القُرطبي لِتَشْدِيْد الموتِ على الأنْبِيَاءِ فائدتان أحَدُهُمَا تَكْمِيْل فضائِلِهم ورَفْعُ دَرَجَاتِهم ولَيْسَ ذلك نقصاً ولا عَذَاباً بَلْ هُوَ كَما جَاءَ أنَّ أَشَدَّ الناسِ بَلاءً الأنْبِيَاء ثم الأمثل فالأمثل .

والثانيةُ أن تَعْرِفَ الخَلْقُ مِقْدَارَ أَلَمِ الموت وأنَّه بَاطِنٌ وقَد يَطَّلِعُ الإنْسانُ على بَعْضِ المَوْتَى فلا يَرى عليه حَرَكَةً ولا قَلَقاً ويَرى سُهُوْلَةَ خُروجِ رُوحِهِ فيظن سُهُوْلَةَ أَمْرِ الموت ولا يَعْرِفُ مَا المَيِّتُ فيه .

فَلَما ذَكَر الأنْبِيَاءُ الصادقون في خَبرِهم شِدَّةَ أَلَمِهِ مَعَ كَرامَتِهم على الله تعالى قَطَعَ الخلقُ بِشدَّةِ الموتِ الذي يُقاسِيهِ الميتُ مُطْلَقا لإخْبَار الصادِقِينَ عنه ما خَلا الشهيد في سبيل الله انتهي .

أَخرَجَ الطَبَراني عن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الشهيد لا يَجِدُ أَلَم القَتْلِ إلا كَمَا يَجدُ أحَدُكُم أَلَمَ مَسٌّ القَرْصَة .

أخرج ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات وابنُ مَنِيْع في مسنده من حديث أبي هريرة مَرفوعا « يَا أَبَا هُريرة أَلا أُخبِرُكَ بأمرِ حَقٍّ مَن تَكَلَّم به في أَوَّلِ مَضْجَعِهِ مِن مَرَضِهِ نَجَّاهُ اللهُ مِن النَار .

قُلْتُ بَلىَ قال : « لا إله إلا الله يُحْيِي ويُمْيتُ وهو حيٌّ لا يَمُوت وسُبْحَانَ الله ربِ العبادِ والبلاد والحمدُ لِلّهِ حمداً كثيراً طيباً مُباركاً فيه على كل حال والله أكبر كبيرا كِبْرياؤُهُ وجلالُه وقُدْرَتهُ بكُلِ مَكان .

اللهم إن كُنْتَ أَمرضْتَنِي لِتَقْبضَ رُوْحي في مَرضي هذا فاجْعَل رُوحي في ارْوَاحِ مَن سَبقتْ لَهُم منكَ الحُسْنَى وأعِذْني من النار كما أعَذْتَ أُولَئكَ الذين سَبَقَتْ لَهُمُ منكَ الحُسْنَى » .

فإنْ مُتَّ في مَرضِكَ ذلكَ فإلى رضوان الله والجنة ، وإنْ كُنْتَ قد اقْترفْتَ ذُنُوباً تابَ اللهُ عَليكَ .

وأَخرَجَ الطبراني عن أبي هريرة وأبي سَعِيْدِ الخُدْرِي مرفوعاً « مَنْ قال عند مَوتِهِ لا إلهَ إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لاتَطْعَمُه النار .

وأخرجَ الحاكم عن سعد بن أبي وقَّاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هل أَدُلكم على اسم الله الأعظم دُعَاء يُونس ﴿ لا إله إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إني كنتُ مِن الظالمين ﴾ .

فأَيُّما مُسْلم دَعَا بها في مرض مَوته أَرْبعينَ مَرة فماتَ في مَرضِه ذلك أُعْطِيَ أَجْرَ شهيد وإن بَرِىءَ بَرِىءَ مَغْفُوراً لَهُ .

وأخرجَ أحمد وأبُو داود والحاكم عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كان آخر كلامه لا إلِهِ إلا الله دَخَلَ الجنة» .

وأخرج سعيد بن منصور عن أم الحسن قالت : كُنْتُ عند أم سلمة فجاءها إنسان فقال فلان بالموت .

فقالَتْ انطلق فإذا رأيتَه أحْتُضِرَ فَقُلْ : سَلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

شِعْرا :

لَيْتَ شِعْرِي سَاكَن القَبرِ المشيْدْ	هَلْ وَجَدْتَ اليومَ فِيهِ مِن مَزِيْدْ
وهَلِ البَاطِنُ فيهِ مِثْلَ مَا	هُوَ في الظَاهِرِ تَزْوِيْقاً وَشِيْدْ
وهَلِ المضْجَعُ فيْهِ لَيِّنٌ	أوْ سَعِيْرٌ مالَهَا فيه خُمُــوْدْ
وهَلِ الأرْكَانُ فِيه بِالتُّقَــى	نَيِّراتٌ أوْ بأعْمَالِكَ السُوْدْ
لَيْتَ شِعْرِيْ سَاكِن القَبْرِ المشَيْدْ	أشَقِيٌ أنْتَ فيه أمْ سَعِيْدْ
أقَرِيْبٌ أنْتَ مِن رَحْمَةِ مَنْ	وَسِعَ العَالَمَ إحْسَانًا وجُوْدْ
أمْ بَعِيْدٌ أنْتَ مِنْهَا فَلَقَدْ	طُرِقَتْ دَارُكَ بالوَيْـلِ البَعِيْـدْ
ولَقَـدْ حَلَّ بأرْجَائِكَ مَا	ضَاقَ عَنْهُ كُلُّ مَا في ذَا الْوُجُوْدْ
أيُّهَـا الغَافِـلُ مِثْلِـيْ وإلـىَ	كَمْ تَعَامَي وتَلَوّي وَتَحِيْدْ
أدْنُ فاقْرَأْ فَوْقَ رَأْسِيْ أحْرُفاً	خَرَجَتْ وَيْحَكَ مِنْ قَلْبِ عَمِيْدْ
صَرَعَتْــهُ فِكْــرَةٌ صَادِقَــةٌ	وهُمُوْمٌ كُلَّمَا تَمْضِيْ تَعُوْدْ
ونَدَامَاتٌ لأيَّــامٍ مَضَــتْ	هُوَ مِنْهَـا في قِيَامٍ وقُعُوْدْ
وغَداً تَرْجِعُ مِثْلِيْ فاتَّعِـظْ	بيْ وإلاَّ فَامْضِ وأعْمَلْ مَا تُرِيْدْ
قَدْ نَصَحْنَاكَ فإن لَمْ تَرَهُ	سَيَراهُ بَصَـرٌ مِنْكَ حَدِيْدْ

اللَّهُمَّ انظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا معَ الذين أنعمتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّديقينَ والشُهداء والصالحينِ واغفِرْ لنا ولوالِدَينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعِين .

(فَصْـــلٌ)

أَخْرَجَ ابنُ أبي شَيْبَةَ وَالمرْوَزي عن جابر بن زَيد قال يَسْتَحبُّ إذا حُضِرَ المَيّت (أيّ حَضَرُه المَوْتُ) أنْ يُقْرَأ عندَهُ سُورةَ الرَّعْدِ فإنَّ ذَلِكَ يُخَفِّفُ عن الميتِ وأنَّهُ أَهْوَنُ لِقَبْضِهِ وأَيْسَرُ لِشَأنه .

وكانَ يُقَالُ قَبلَ أنْ يَمُوتَ المَيّتُ بساعَةٍ في حَيَاة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم اللهم اغْفِرْ لِفُلانِ بنِ فُلان ، وبَرِّدْ عليه مَضْجَعَه ، وَوَسِّعْ عليه قَبْرَه ، وأَعْطِهِ الراحَةَ بَعْدَ الموت ، والْحقْهُ بِنَبِيِّهِ .

وتَوَلَّ نَفْسَهُ ، وصَعِّدْ رُوْحَهُ في أرْوَاحِ الصَّالِحِين ، وأَجْمِعْ بَيْنَنَا وبَيْنَهُ في دَار تَبْقَى فيها الصِحَّةُ ، ويَذْهَبُ عَنَّا فيها النَّصَبُ واللُّغُوب ، ويُصَلِّي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويُكرِرُ ذلك حتى يُقْبَض .

وعن ابنِ أبي شيبة والمروزي عن الشعبي قال كانَتِ الأَنْصَارُ يَقْرَؤنَ عندَ الميتِ سُوْرَةَ البَقَرة .

وأَخْرَجَ أبو نُعَيم عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ ومَن يتق الله يَجْعَل له مَخرجَا ﴾ قال مَخْرَجاً مِن شُبُهَاتِ الدنيا ومِن الكُرُبِ عِندَ الموتِ ومِن مَوَاقِف يوم القِيَامة .

أَخْرَجَ ابن أبي الدنيا عن وُهَيْبِ بنِ الوَرْدِ قال بَلَغَنَا أَنَّهُ مَا مِن مَيِّتٍ يَمُوت حتى يتراءى له ملكاه اللذان كانا يَحْفَظَانِ عليه عمله في الدنيا .

فإن كانَ صَحِبَهُمَا بطَاعَة الله قالَا جَزَاكَ اللهُ عنا مِن جَلِيْسٍ خَيْرًا فرب مَجْلِسِ صِدقٍ قد أَجْلسْتناه وعملٍ صالحٍ قد أحْضَرْتناه وكلام حَسَنٍ قد أَسْمَعْتَنَاه فَجَزَاكَ اللهُ عَنَّا مَن جَلِيْس خَيْرًا .

وإن كانَ صَحِبَهُمَا بِغَير ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِلَّهِ فيه رِضاه قلَبَا عليه الثَّنَاءَ فقالَا لا جَزَاكَ الله عَنَّا مِن جَليس خَيْرًا .

فَرُبَّ مَجْلِسِ سُوْءٍ قد أَجْلَسْتَناه ، وعَملٍ غِيْرِ صالحٍ قد أَحْضَرْتَنَاه ، وكلام قبيحٍ قَدْ أَسْمَعْتَنَاه .

فلا جَزَاكَ اللهُ عَنَّا مِن جَليسٍ خَيْراً قال فذلك شُخُوصُ بَصَرِ الميتِ إليهما ولا يَرْجعُ إلى الدنيا أبَدًا .

وأخرج عن سفيان قال بَلَغَنِي أن العَبدَ المؤمِنَ إذا احْتُضِرَ قال مَلكَاهُ اللَّذَانِ كانا مَعَه يَحْفَظَانِه أَيَّامَ حَيَاتِه عِنْدَ رَنَّةِ أَهْلِهِ دَعُوْنَا فَلْنُثْنِ على صاحِبِنا بِمَا عَلِمْنَا مِنه .

فيقُولانِ رَحِمَك الله وجَزَاكَ اللهُ مِن صاحِبٍ خَيْرًا إنْ كُنْتَ لَسَرِيْعاً إلى طَاعَة الله بَطِيْئاً عن مَعْصِيَةِ اللهِ وإنْ كُنْتَ لِمَمَّنْ نَأمَنُ غَيْبَكَ فَنَعْرُجُ فلا تَشْغلْنَا عن الذكر مَع الملائِكة .

وإذَا احْتُضِرَ العَبْدُ السُوء فَرَنَّ أَهْلُهُ وضَجُّوْا قَامَ المَلكَان فقالا دَعُونَا فلْنُثْنِ بما عَلِمنا منه فيَقُولانِ جَزَاكَ اللهُ مِن صاحب شَرًّا .

إنْ كُنْتَ بَطِيئاً عن طاعةِ اللهِ ، سَرِيْعاً إلى مَعْصِيَتِهِ ، وما كُنَّا نأمَنُ غَيْبَكَ ، ثم يَعْرُجَانِ إلى السماء .

يَابَاكِياً مِن خِيْفَةِ الموتِ أصَبْتَ فارْفَعْ مِن مَدَى الصَّوْتِ
ونَادِ يَا لَهفِيْ على فسْحَةٍ في العُمْرِ فَاتَتْ أيَّمَا فَوْتِ
ضيَّعْتُهَا ظالِمٌ نَفْسِي ولَمْ أُصْغِ إلى موْتٍ ولا مَيْتِ
يا لَيْتَهَا عَادَتْ وهَيْهَاتَ أنْ يَعُوْدَ ما قَدْ فَاتَ يَالَيْتِ
فَخَلِّ عن هَذِي الأماني ودَعْ خَوْضَكَ في هَاتِ وفي هَيْتِ
وبَادِرِ الأمْرَ فمـا غَائِبٌ أسْرَعُ إتْيَاناً مِنَ المَـوْتِ
كَمْ شَا ئِدٍ بَيْتاً لِيَغْنَى بِهِ مَاتَ وَلَمْ يُفْـرَغْ مِن البَيْتِ

اللَّهُمَّ أسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ الأبْرَارِ ، واجْعَلْنا مِنْ عِبَادِكَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيَارِ ، وامْنُنْ عَلَيْنَا بالعفو وَالعِتْقِ مِنْ النَّارِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الاحْيَاء مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

واعْلَمْ أنَّ الموتَ لَنْ يَمْنَعَهُ مِنْكَ مانِع ولا يَدْفعُهُ عَنْكَ دَافِعٌ وإنَّ فيه لَزَجْراً لِلَّبِيْب ، وشُغْلاً لِلأرِيْبِ ، ومَنْبَهَةً للنائِم وتَنْشِيْطاً لِلْمُسْتَيْقِظِ .

وأنَّهُ لَطَّالِبُ المُدْرِكُ ، والمُتَّبِعُ اللَّاحِقُ ، والمُغِيْرُ الذي يَبْعَثُ الطَّلِيْعَةَ ، وَيُعَجِّلُ الرَّجْعَةَ ، ويَسْبِقُ النذير العَرْيَان ، لَا يَرُدُّهُ بابُ الحَدِيْدِ الشَّدِيْد ، ولا يَمْنَعُ عَنه البُرْجُ العَالِي المشيد ، ولا الجَيْشُ اللجِبُ العَرَمْرَمُ ، ولا البَلَدُ البَعِيْد .

هُوَ المَوْتُ مُثْرٍ عندَهُ مِثْلُ مُعْدِمٍ وقاصِدُ نَهْجٍ مِثْلَ آخَرَ ناكِبِ
ودِرْعُ الفَتَى في حُكْمِهِ دِرْعُ غادَةٍ وأبْيَاتُ كِسْرَى مِن بُيُوتِ العَنَاكِبِ

قِيل أنَّ رَجُلاً كان جَالِساً مَعَ سُلَيمانَ بنِ دَاوُد فَدَخَلَ دَاخِلٌ فَجَعَلَ يَنْظُر إلى الرُّجلِ الجالِسِ مَعَ سُليمان ويُديْمُ النَّظَر إليه .

فلما خرج قال لِسُلَيْمان يا نبي مَن هَذا الرجُلُ الداخِلُ عَلَيْكَ قال مَلَكُ الموت قال يا نبي الله لَقَد رَأيْتُهُ يُدِيمُ النَّظَرَ إليَّ ويُشَخِّصُ فِيَّ وإنِّي لأظُنُّهُ يُرِيْدُنِي قال فما تُرِيْد .

قالَ يا نبي الله أرِيْدُ أنْ تَأمُرَ الرِّيحَ فتأخُذُني فُتَلْقِيْني في أبْعَدِ جَزَائِرِ البَحْرِ فإنه قَدْ أطَاشَ عَقْلِي وأذْهَبَ لُبِّي ونَقَضَ كُلَّ عُضْوٍ في بَدَنِي .

فأوحى الله جل وعلا وتقدس إلى سليمان أوْ أُلْقَى في نَفسِ سُلِيمان أنْ يَفْعَلَ ذلك فأمر الريحَ فأخَذَتْهُ فألْقَتْهُ حَيْثُ أرَادَ فَحِيْنَ اسْتَقَرَّ بالأرض نَزَلَ عليه مَلَكُ الموت فَقَبَضَ رُوْحه .

ثم رجَعَ ملك الموتِ إلى سليمان فقال سليمان رَأيْتُكَ تُدِيْمَ النَّظَرَ إلى جَلِيْسي قال نَعَمْ كُنْتُ أتَعَجَّبُ منه لأني أمِرْتُ بقَبْضِ رُوْحِهِ في أبْعَدِ بِلادِ الهِندِ في سَاعَةٍ قَرِيْبَةٍ مِن الوقَت الذي كان عندك فما هو إلا أن خَرَجْتُ قِيلَ لِي إنْزِلْ عليه فإنَّه بها فَنَزَلتُ عليه فوجَدْتُهُ بِها فَقَبَضْتُ رُوْحَهُ .

وذَكَرَ أحدُ العُلماء أنَّ جَبَّاراً مِن الجَبَابِرَةِ مِن بَنِي إسْرائيل جَالِسٌ في مَنْزِلِهِ قد خَلا بِبَعْضِ أهْلِهِ إذْ نظر إلى شَخْصٍ قد دَخَلَ مِن بَابِ بَيْتِهِ .

فثَارَ إليه فَزِعاً مُغْضَبَا فَقَالَ لَهُ مَنْ أنْتَ ومَن أدْخَلَكَ عَليَّ دَارِي فقال أمَّا

الذي أدْخَلِنِي عَلَيْكَ الدار قَرَّبُهَا وأمَّا أنَا فأنَا الذِي لا يَمْنَعُ مِنّي الحِجَابُ وَلا أسْتَأْذِنُ علِى المُلوكِ ولا أخَافُ صَوْلَةَ السَّلاطِين وَلا يَمْتَنِعُ مِنِّي كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْد ولا شيطانٌ مَرِيْد .

قال فَسُقِطَ في يَدِ الجبار وارْتَعَدَ حَتَّى سَقَطَ علَى الأرض مُنْكَباً على وجْهِهِ ثم رَفَعَ رَأسَهُ إليه مُتحَيِّراً مُتَذَلّلا فقال لَهْ أنْتَ إذاً مَلَكُ الموتِ قال أنا هُوْ قال فَهَلْ أنْتَ مُمْهِلِي حَتَّى آخُذَ عَهْداً .

قال هَيْهَاتَ إنْقَطَعَتْ مُدَّتُكَ وانْقَضَتْ أنْفَاسُكَ ونَفَدَتْ سَاعَاتُكَ فلَيْسَ إلِيَ تَأْخِيْرِكَ سَبِيْل قال فإلَى أيْنَ تَذْهَبُ بِي قال إلى عَمَلِكَ الذي قَدَّمْتَهُ وَإلى بَيْتِكَ الذي مَهَّدْتَهُ .

قال فإنِّي لَمْ أُقَدِّمْ عَمَلاً صَالِحاً ولم أُمَهِّدْ حَسَناً . قال فإلى ﴿ لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَن أدْبر وتولّى وجَمَعَ فأوْعَى ﴾ فَسَقَط مَغْشِياً عليه (فيا لَهَا مِن حَسْرَةٍ ويَا لَهَا مِن نَدَامَة ويَا لَهَا مِن عَثْرَةٍ لا تُقَال) ا. هـ .

وماتَ أحَدُ الشجعان فَجْأَةً بَسَكْتَةٍ قَلْبِيةٍ فأنْشِدَتِ الأبْيَاتُ التي تَلِيْ فيه ، فيها عِبْرَةٌ فتدَبَّرْهَا :

ومُجَرِّر خَطِّيَّة يوْمَ الوغَـى مُنْسَابَة مِن خَلْفِـهِ كالأرْقَمِ
تَتضَاءَلُ الأبْطَالُ سَـاعَةَ ذِكْرِهِ وتَبِيْتُ منه في إبَاءَةِ ضَيْـغَمِ
شَرِسُ المَقَادَةِ لا يَزَالُ رِبِيْئَةً وَمَتَى يُحِسُّ بنارِ حَرْبٍ يُقـدِمِ
تَقَعُ الفَرِيْسَةُ منه في فَوْهَاءَ إنْ يُطْرَحْ بِهَا صُمُّ الحِجَارة يُحْطَمِ
ضَمْآنَ لِلدَّمِ لا يَقُـوْمُ بِرَيِّـهِ إلاَّ المُرُوقُ في الجُسُوْمِ من الدَّمِ
جَاءَتْهُ مِن قِبَلِ المَنُونِ إشَارَةٌ فَهَوَى صَرِيْعاً لِلْيَدِيْن وَلِلْفمِ
وَرَمَى بِمُحْكَم دِرْعِهِ وبِرُمْحِهِ وامْتَدَّ مُلْقىً كالبَعِيْر الأعْظَمِ

لا يَسْتجيبُ لِصَارِخٍ إن يَدْعُهُ أبداً ولا يُرْجى لِخَطْبٍ مُعْظَمِ
ذَهَبَتْ بَسَالَتُـهُ ومَرَّ غَرَامُـهُ لَمَّا رآى خَيْـلَ المَنِيَّةِ تَرْتَمِي
يَا وَيْحَهُ مِن فارسٍ مَا بَالُهُ ذَهَبَتْ فُرُوسَتُهُ ولَمَّا يُكْلَمِ
هَذِي يَدَاهُ وهَذِهِ أعْضَاؤُهُ ما مِنْهُ مِنْ عُضْوٍ غَدَا بِمُثَلَّمِ
هَيْهَاتَ مَا خَيْلُ الرَّدَى مُحْتَاجَةٌ لِلْمَشْرَفِيِّ ولا السِّنَانِ اللَّهْذَمِ
هِيَ وَيْحَكُمْ أمْرُ الإلَـهِ وحُكْمُهُ واللهُ يَقْضِيْ بالقَضَاءِ المُحْكَمِ
يا حَسْرَةً لَوْ كَانَ يُقْدَرُ قَدْرُهَا ومُصِيْبَةً عَظُمَتْ ولَمَّا تَعْظُمِ
خَبَرٌ عَلِمْنَا كُلُّنَا بِمَكَـانِـهِ وكأنَّنا في حَالِنَا لمْ نَعْـلَمِ

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا بَدِيْعَ السَّمَواتِ والأرْضِ نَسْألُكَ أنْ تُوفِّقَنا لِمَا فِيهِ صَلَاحُ دِيْنِنَا وَدُنْيَانَا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا وَأَكْرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وقال رحمه الله واعلم أنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعَالى خَلقَ لِلْجَنَّةِ أهْلاً وللنار خَلْقاً وهُم مَعَ السَّاعَاتِ رَاحِلُون ومع الأنفاس ظاعنون إلى دَارِ البِلَى ومُعَسْكرِ الموتى ومُسْتَقَرِّ الأرواح ، وكُلٌّ مُطَّلِعٌ على مَكَانِهِ الذي سَيَصِيْرُ إليْهِ ، ومُشْرِفٌ على مَنْزِلِهِ الذي يَنْزِلُ بِهِ ، وبِذَلِكَ يكون نعيمٌ أو عَذاب، وهكذا يَرْحَلُون ويَنْتَقِلُون إلى أن يَفْرَغَ العَدَدُ الذي قَدَّرَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلا .

وَاعْلَمْ أن كُلَّ مَيِّتٍ مَاتَ فقد قامَتْ قِيَامَتُهُ لَكِنَّها قِيَامَةٌ صُغرى ، وأما القِيَامَةُ الكبرى فِهي التي تَعُمُّ الخلق كُلَّهُمْ وتأخُذُهُم أخذَةً واحِدَةً بَغْتَةً على غَفْلَةٍ من الخلق كما قال تعالى :﴿ لا تَأتيكم إلاَّ بَغْتَة ﴾ .

وذكر البخاريُ عن أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال :« لا تقومُ

الساعةُ حتى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيْمَتَان تكُونُ بَيْنِهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيْمَةٌ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَة ، وحتى يُبْعَث دَجَّالُونَ كَذَّابُون قَرِيْبٌ مِن ثلاثين كُلّ يَزْعُم أنه رسول الله ، وحتى يُقْبَضَ العِلْم ، وتكثرُ الزَّلازِلُ ، ويَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وتظهَرُ الفِتَنُ ، ويكثرُ الهَرْجُ وهو القتل .

وحتى يَكثُر فيهم المالُ فَيَفيضُ حَتَّى يَهِمَّ رَبُّ المالِ مَن يَقْبلُ صَدَقَتَه ، وحتى يَعْرضُهُ فَيقُولَ الذي يَعْرِضُهُ عليه لَا أَرَبَ لي فيه ، وحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ في البُنْيَان ، وحتى يَمُرَّ الرَّجُلُ بقَبْرِ الرجُلِ فَيَقُول يا ليتني مَكَانه .

وحتى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فإذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا الناسُ آمنُوا أَجْمَعُون فَذَالِكَ حِيْنَ لا يَنْفَع نَفساً إِيْمَانُهَا لم تكن آمَنَتْ من قبل أَوْ كَسَبَتْ في إيمانها خَيْراً .

ولَتَقُومَنَّ الساعةُ وقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهُمَا بَيْنَهُمَا فلا يَتَبَايَعَانِهِ ، ولا يَطْوِيَانِهِ .

ولَتَقُومَنَّ الساعَة وقد انْصَرَفَ الرجُل بِلَبَنِ لَقَحَتِهِ فلا يَطْعَمُهُ .

ولَتَقُومَنَّ الساعَةُ وهو يَلُوْط حَوْضَهُ فلا يَسْقِي فيْه .

ولَتَقُوَمَنَّ وقد رَفَعَ أُكْلَتَهُ إلى فيه فلا يَطْعَمُهَا .

وبعد ما تَمُوْتُ الخَلْقُ يُنْزِلُ اللهُ جَلَّ وَعَلا مَطَراً تَنْبُتُ منه الأجْسَامِ ، وتَحْيَا بِهِ الرُّفَاتُ مِن العِظَامِ وتَستَعِدُّ فيه لِقَبول الأَرْوَاحِ عِنَد النَّفْخَةِ الثانية .

قال الله جل وعلا وتقدس : ﴿ ثم نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرون ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ ونُفِخَ في الصُور فَجَمعْنَاهم جَمْعًا ﴾

وقال عَزَّ من قائِل :﴿ ونُفخ في الصور فإذا هُم مِن الأجداث إلى ربهم يَنْسِلُون ﴾ .

وقال وهو أصْدَقُ القائلين : ﴿ فإنما هَي زَجْرَةٌ واحِدَة فإذا هم بالساهِرة ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿ خشعا أبصارهم يَخْرُجُون مِن الأجداث كأنهم جَرَاد مُنْتَشِر مُهْطِعِيْنَ إلى الدَّاعِي يَقُول الكافرون هذا يوم عَسِير ﴾ .

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى كَذَّبَني ابْنُ آدم ولَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أن يُكَذِبَنِي وشَتَمَنِي ابنُ آدم ولَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يشتِمَني .

أَمَّا تَكْذِيْبُهُ أيَّايَ فَقَولُه لا أُعِيْدُهُ كما بَدَأْتُه ولَيْسَ آخِرُ الخَلْقِ بأعَزَّ عَليَّ مِن أوَّلِهِ وأمَّا شَتْمُهُ إيَّاي فقولُه اتَّخَذَ اللهُ وَلَدَا وأنا الله أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ أَلَدْ ولَمْ أُوْلَدْ ولَمْ يَكُنْ لِيْ كُفْواً أحَدَ » .

شِعْرا :

أيَا ابْنَ آدَمَ والْآلاء سابِغَةٌ ومُزْنَةُ الجُوْدِ لَاتَنْفَكُّ عَن دِيَمِ
هَلْ أَنْتَ ذَاكِرُمَا أُوْلِيْتَ مِنْ حَسَنٍ وشاكِرٌ كُلَّ مَاخُوِّلْتَ مِنْ نِعَمِ
بَرَاكَ بَارِىءُ هَذا الخَلْقِ من عَدَمٍ بَحْتٍ ولَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجْ مِن العَدَمِ
أَنْشَاكَ مِنْ حَمَأٍ ولَا حَرَاكَ بِهِ فَجِئْتَ مُنْتصِباً تَمْشِيْ عَلَى قَدَمِ
مُكَمَّل الأدَوَاتِ آيَةً عَجَباً مُوَفَّرَ العَقْلِ منَ حَظٍ ومِن فهِمِ
تَرَى وتَسْمَعُ كُلاًّ قَدْ حُبِيْتَ بِهِ فَضْلاً وتَنْطِقُ بالتَّبْيِيْنِ والكَلِمِ
هَدَاكَ بالِعلْمِ سُبْلَ الصَّالِحِيْنَ لَهُ وكُنْتَ مِن غَمَرَاتِ الجَهْلِ في ظُلَمِ
مَاذَا عَلَيْكَ لَهُ مِن نِعْمَةٍ غَمَرَتْ كُلَّ الجِهَاتِ ولم تَبْرَحْ ولم تَرِمِ

غَرَّاءُ كالشمسِ قَدْ أَلْقَتْ أَشِعَّتهَا ... حَتى لَيُبْصِرهَا عَلَيْكَ كُلُّ عَمِيْ
فاشكر ولَسْتَ مُطِيْقاً شُكْرهَا أَبَدَا ... ولَوْ جَهِدْتَ فَسدِّدْ وَيْكَ والتَزِمِ
رِزْقٌ وَأَمْنٌ وإِيْمَانٌ وَعَافِيةٌ ... مَتَى تَقُوم بشُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ

اللَّهُمَّ يَا مِنْ لَا تَضُرُّهُ الْمعصيةُ ولَاتنفَعُـــهُ الطَّاعَةُ أَيْقِظْنَا مِنْ نَوْمِ الغَفْلَةِ وَنَبِّهنْا لاغْتِنَام أَوْقَاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائحنَا وذُنُوبِنا ولا تؤَاخِذْنَا بَما انْطَوَتْ عليْهِ ضَمائِرُنا واكِنَّتْهُ سَرَائِرُنا مِنْ أَنْواعِ القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التي تَعْلمُها مِنّا واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ولِجميعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْياءِ مِنهُمْ والميتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبه أجْمعين .

(فَصْـــلٌ)

وقال رحمه الله فياللهِ كَم مِن مُجَرِّرٍ ذَيْل إِعْجَابِهْ ، مُتطَاوِل على أَصْحَابِهْ ، مُتَّعَاضمٍ على أَقْرَانِهِ وأترابِه ، تُجْمَعُ لَهُ الأَماني وتَرْتَاحُ له الغَوَاني إِنْ بُصِّرَ لا يَسْتَبْصِر ، وإِنْ أُمِرَ لا يَاتِمر ، وإنْ زُجِر لا يَنْزَجِر ، ويَفْرَحْ ، ويَمْرَحُ ، ويَبِيتُ مِن دُنْيَاهُ مِثْل مَا أَصْبَح ، قَدْ أَبْدَأَ في أَمْرِه وَأعادْ ، وأحْكَم غَيَّهُ وضَلَالَهُ فأَجَادْ وأشادَ مِن أَمَلِهِ ما أَشَادْ .

حَتَّى إذَا نَالَ مُرَادَهُ أَوْ كَادْ ، صاحَتْ به المنِيَّةُ صَيْحَةِ الغَضْبَان وصَدَمَتْهُ صَدْمَةَ اللَّهَفَان ، فَهَدَّتْ أَرْكَانَهُ ، وكَسَرَتْ أَغْصَانَه ، وفَرَّقَتْ أَنْصَارَهُ وأعْوَانَه ، فأَصْبَحَ ،قد باعَ النَّفيسَ بالدُوْن ومَضَى يَعُضُّ بَنَانَهُ المَغْبُون ولم يَرُحْ بنائل ولا حَصَل على طَائِل .

فيَالِلِهِ كَم هنَالِك مِن مَلِك جَبَّارٍ طَوِيْل النَّجاد رفيع العِمادِ عَظِيم الأَجْنَادَ كَثِيْرِ الأمداد ، قد مَلَكَ البِلادَ ، وقَهَرَ العِبَادَ ، وَوَصِلَ مِنْ دُنْيَاهُ إلى كَثِيْرٍ مِمَّا أَرَاد .

قَعَدَ وَنَهَضَ وأبْرَمَ ونَقَضَ وجَعَل أمْرَهُ المُفْتَرَض ، وطالما حَرَّقَ وَهَدَمَ وكَسَرَ ، وحَطَّم وزَلْزَلَ ودَمْدَم ، واسْتُرْحِمَ فَلَمْ يَرْحَمْ ومَضَى على مَا شَاء مِن رَأيِهِ وصَمَّمْ .

بَنَى المَدَائنَ والحُصُونَ وأكْثَرَ مِن مالِهِ المخْزُوْن واسْتَعَدَّ في رَأْيِهِ لِمَا قد يكون أوْ لا يكون حتى إذا اسْتَحْكَمتِ لَهُ الأمُور ، وأطَالَ الفَرَحَ والسرُوْر ، وزَخْرَفَ الفُلَلَ والقُصُور ، وظَنَّ أنَّهُ قد سَاعَدَه فيما بَقِي من أمَلِه المقدور ، قَلَبَتْ له الدنيا ظَهْرَ المِجَنّ وكَسَتْهُ مِن خَطْبِهَا ومَصَائبها ما أجَنَّ وأذْهَلَ الفَطِن ، وسَقَتْهُ مِن كُرَبِهَا ما يَسْكِرُ به ويُجَن .

نَظَرَتْ بِعَيْنِهَا الشَّوسَاء إليه ، وقَبَضَتْ ما كان في يَدَيْه ، وأتَتْ بُنْيانَهُ مِن قَواعِدِه فألْقَتْهُ عَليه ، فأصْبَحَ وقَدْ هُدِمَ ذَلِكَ البُنْيَان ، وسَقَطَ ذَلِكَ الإيْوَان ، وتَبَدَّدَتْ تِلْكَ المُقَاتِلَةُ والفُرْسَان ، وتَفَرَّقُوْا شَذَرَ مَذَرَ بِكُلِّ مَكَان ، وأصْبَحَ كُلُّ ما كَانَ كأنَّهُ مَا كَانَ .

وقِيْلَ مَلِكٌ في سَالِفِ الزَّمَان مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ فُلانُ بنُ فُلان ، ولم يَحْصُلْ على شيءٍ مِمَّا مَلَكَ مِن البِلاد ولا ما أدَّخَرَ مِن المال وأعَدَّ مِن العَتَاد إلاَّ على حَنُوط وكَفَنٍ ، وحُفْرة ضَيِّقَةِ العَطَن يُحْتَبَسُ فِيْهَا ويُرْتَهَن ، بكُلِّ ما عَمِلَ مِن قَبِيْحَ أو حَسَنْ .

فما تَزَوَّدَ مَمَّا كان يَجْمَعُه سِوَى حَنُوطِ غَدَاةَ البَيْنِ في خِرَقِ
وغَيْرَ نَفْخَةِ أعْوادٍ تُشَبُّ لَهُ وقَلَّ ذَلِكَ مِن زَادٍ لِمنْطَلِقِ

آخـــر :

أبَادَ ذَالمَوْتُ أمْلاكاً وَمَا مَلَكَوْا وَدَارَ مُسْتَعْقِباً عَليهِـمُ الفَلَكُ
رَمَى بِهِم حَيْثُ لا قِيْعَانَ تُمْسِكُهُمْ وَلَا مِرَاراً بِهَا المَرْمِيُّ يَمْتَسِكُ

هَوَتْ هُوِىَّ ثَقِـيل الصَّخْرِ أُمُّهُمُ فلا حَسِيْسَ ولا رِكْزٌ ولا حَرَكُ
غَدَتْ رُؤُسِهُمُوْا مِن تَحْتِ أَرجُلِهِمِ وزُلْزِلَتْ بِهِم الأطبـاقُ والدَّرَكُ
يا بَطْشَةً مِن حَكِيمٍ ما بِهَا مَهَلٌ وَغَضْبَةً مِن عَزِيْزٍ ما بِهَا دَرَكُ
جُرُّوْا مِن اللّهْوِ مَلْاى مِنْ أَعِنَّتِهِمْ حَتّى إذا مَا رأوْا خَيْلَ الرَّدىَ بَرَكُوْا
حُطُّوْا بِدَار البِلَى في مَنْزِلٍ حَرِجٍ وَلَيْتَهُم ويْحَهُمْ فِيْهِنَّ لَوْ تُرِكُوْا
لَطَالَمَا نَقَضُوا مُلْكاً وما هَـدَمُوْا عِزاً ومَا هَتَكُوْا سِتْراً وما فَتَكُوْا
مَرُّوْا وَمَا بَلَغُوْا كُلَّ الذي طَلَبُوْا ولا قَضَوْا وَطَراً مِن كُلِّ ما تَرَكُوْا
أَضْحَاهُمُ اليَومَ صَرْفُ الدهرِ إذ هَلَكُوْا كَمَا أَضَلَّهُمُ بالأَمْسِ إذ مَلَكُوْا

اللهم أنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنَا وعَلَانِيَتَنَا وتَسْمَعُ كَلَامَنَا وتَرَى مَكَانَنَا لاَ يخْفَى عَليكَ شيْءُ مِن أَمْرنَا نَحْنُ البُؤَسَاءُ الفُقَراءُ إليكَ المستغيثونَ المستجيرونَ بِكَ نَسْأَلُكَ أنْ تُقَيِّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يِنْصُرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والمُنْكَراتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويقْمَعُ أهْلَ الزَّيغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْـــلٌ)

وفي بعض الخطبِ المَرْوِيّةِ أيُّها الناسُ إن الأمَال تُطوى والأعمـار تَفْنَى والأبدانَ تَحْتَ التُرابِ تَبْلَى وإنَّ الليلَ والنهارَ يَتَرَاكَضَانِ كَتَراكُضِ البَرِيْدِ ، ويُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيد ويُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيْد .

وفي ذَلَكَ عِبَادَ اللهِ ما يُلْهِي عن الشهوات ، ويُسَلِّيْ عن اللَّذاتِ ، ويُرَغِبُ في البَاقِيَاتِ الصَّالِحَات .

وخَطَبَ آخرُ فقال : أيُّها الناسُ إن اللهَ كَتَبَ على الدنيا الفَنَاءَ وعلى الآخِرةِ

البَقَاءَ ، فلا فَنَاءَ لما كَتَبَ اللهُ عليه البَقَاءَ ، ولا بَقَاءَ لِمَا كَتَبَ الله عليه الفَنَاءَ ، فلا يَغُرَنَّكُم شَاهِدُ الدنيا عَنْ غائِبِ الآخِرة ، واقْهَرُوا طُوْلَ الأمل بِقِصَرِ الأجَلِ .

وقال بَعْضُ العلماء : لا تَبِتْ على غير وَصِيَّةٍ، وإن كُنْتَ مِن جِسْمِكَ في صِحَّةٍ ، ومِن عُمُرِكَ في فُسْحَةٍ ، فلا تأمن مِن هجوم هادِمِ اللذات ومُفَرِق الجماعات .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما منكم مِن أحَدٍ إلاَّ وَهُوَ ضَيفٌ ، وما لُه عَارِيَّةٌ ، فالضَّيفُ مُرْتَحِلٌ والعَارِيَّةُ مَرْدُوْدَة .

وقال أحد الحُكماء : لَيْسَ لِلدِّيْنِ مِن عِوَض، وَلا مِن الإيمان بَدَل ، ولا مِن الجَسَدِ خَلَف ، ومن كانَتْ مطِيَّتُهُ الليلُ والنهار ، فإنه يُسَارُ بِهِ وإنْ لم يَسِرْ .

وقال آخَرُ : أيها الناس إنَّ سِهَامَ الموتِ قَدْ فُوقَتْ إليكم فانظُرُوْهَا ، وحِبَالةُ الأمل قد نُصِبَتْ بَيْنَ أيدِيكم فاحْذروها وفِتَنُ الدُنيا قَدْ أحَاطَتْ بكم مِن كُل جانب فاتقوها .

ولا تَغْتَرُّوا بِمَا أنْتُم فيهِ مِن حسنِ الحال فإنَّهُ إلى زَوَال ، ومُقِيْمُهُ إلىَ ارْتِحَال ، ومُمْتَدُّه إلى تَقَلُّص واضمْحْلَال ، أمَا تَسْمَعُونَ أيُّها الناسِ لِما توعَظُونَ بِهِ ، أما تَعْتَبِرُوْنَ بما إليه تَنْظُرون ، أما تَفَكَّرُوْنَ فِيْمَا عنه تَزُوْلُونَ وفيما إليه ترجْعُون ، وعليه تقدمون .

أين مَن تَقَدَّمَكُم وكان قبلكم مِمَّنْ أمَّل أمَلَكم وسَعَى سَعْيَكم وعَمِل عَمَلَكُم ، أين الذين بَنَوا المدائِنَ ومَلَأُوا الخَزَائِنَ واستَعَدُّوا لما هو عندهم كَائِن ، أين الذين غَرسُوْا في رَوْضَة المُلْكِ ونَظَمُوا الآمالَ في سِلْكٍ ، وَهَتَكُوا حُجُبَها أيَّما هَتْكَ وكانُوا في ظاهِرِ أعْمالِهِم في ريبٍ مِن الزَّمانِ وفي شَك .

انظر إليهم كَيْفَ نَضَبَتْ تلكَ المياه وذَبَلَتْ منهم تلْكَ الشِفَاه وتكَسَّرتْ عند سُقُوطِهم تِلْكَ الوَجَنات وتَثَلَّمَتْ تِلْكَ الجِبَاه وَتغَيَّرتْ تِلْكَ الأحْوَال وانكَمَشَتْ الآمال وبقَيتْ شاهِدَةٌ عليهم تِلْكَ الرُسُوْمُ والأطلال .

رَفَعْتَ عَرْشكَ في الدنيا وتُهْتَ بِهِ ... وما بِهَا لِلَبيب تُرْفَعُ العُرُشُ
وبِتَّ فيها على فُرْشٍ مُلَيَّنَةٍ ... ولَو عَقَلْتَ لَمَا لانَتْ لَكَ الفُرشُ
وَظِلْتَ تَسْعَى لِآمالٍ وتَفْرشُهَا ... ولِلْمَوَارِيْثِ مَا تَسْعَى وتَفْتَرِشُ
كم كانَ قَبْلَكَ مِن مَأسُوْرِ رَغْبَتِهِ ... بالحِرْصِ تُلْدَغُ جَنْبَاهُ وتُنْتَهَشُ
يمْسِي ويُصْبَحُ في حِلٍ وفي ظَعَنٍ ... يَضُمُّ هَذَا إلى هَذَا ويَحْتَوِشُ
عَطْشانَ لِلْمَالِ مُحْمَاةٌ جَوَانِحُهُ ... ألْقَى على صَدْرِهِ لِسَانَهُ العَطَشُ
حَتَّى إذَا قِيْلَ قَدْ تَمَّتْ مَطَالِبُهُ ... وطَافَ مِن حَوْلِهِ أهْلُوْه واحْتَوشُوا
مَدَّتْ إليه يَدٌ لِلْمَوْتِ باطِشَةٌ ... خَشْنَاءُ لا دَهَشَ فيها ولا رَعَشُ
فَقصَّعَتْهُ وقِدْماً كان ذا جِيَدٍ ... وأجْهَشَتْهُ ولَمَّا يَدْرِ مَا الجَهَشُ
فَبَاتَ مُسْتَلَباً وباتَ وارِثُهُ ... وقد تغَطَوْا بِذَاكَ المال وافْتَرَشُوا
أمَا سَمِعْتَ بأمْلاكٍ مَضَوا قِدَماً ... شُمُّو الأنوفِ بِرَوض الملك قد عَرَشُوا
إنْ دُوفِعُوا دَفَعُوا أو زُوحِمُوا زَحَمُوا ... أوْ غُوْلِبُوا غَلبُوْا أو بُوْطِشُوا بَطشُوْا
جَاءَتْهُمُوْا وجُنُودُ اللهِ غالِبَةٌ ... كَتَائِبٌ لِلْمَنَايا كلُهَا حَبَشُ
فَضَعْضَعَتْ جَنَبَاتِ عِزِّهِم ورَمَتْ ... مَنَارَهُم بِظَلامٍ ما بِهِ غَبَشُ
لَطَالَمَا أكلُوا وَطَال ما شَرِبُوْا ... وطالَ ما رَفَعُوا الآجامَ واعْترشُوا
مَرُوْا ولا أثر منهم بِدَارِهِمُوْا ... ولا حَسِيْس ولا رِكْزٌ ولا وَقَشُ
قد كان لِلْقَوْم آمالٌ مَبَسَّطَةٌ ... فأصْبَحُوا قبضُوا الآمال وانكشُمُوا

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغفلةِ وَنَبِّهْنَا لاغْتِنَامِ أوقاتِ المُهْلةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنَا من قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنا بما

انْطَوَتْ عليهِ ضَمائِرُنَا وأكَنَّتْهُ سَرائِرُنَا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمعائِبِ التي تَعْلَمُهـا مِنا ، وامنُنْ علينا يامولانا بتوبةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغفِرْ لنا ولوالديْنا ولجميعِ المسلمين الأحياءِ منهم والميتينَ برحمَتِكَ يا أرْحَم الراحمين وصلى الله على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْـــلٌ)

دَخَلَ أناسٌ على الحسن البَصْرِي في اليوم الذي ماتَ فيه، فقال مَرْحَباً بِكُمْ وأهلاً وحَيَّاكُم اللهُ بالسلام ، وأحَلَّنا وإيَّاكم دار المقام هذه علانية حَسَنَةٌ إنْ صَدَقْتُم وصَبَرْتُم فلا يكن حَظُكُم مَن هذا الأمر أنْ تسْمَعُوهُ بِهَذِهِ الآذَانِ ، وتُخْرِجُوه مِن هَذِهِ الأَفْوَاهِ .

فإنَّ مَن رآى محمداً ﷺ رَاهُ غادِياً ورَائِحاً لم يَضَعْ لَبِنَةً ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ ، ولكنْ رُفِعَ لَهُ عَلماً فَشَمَّر إليه الوَحَى الوحَى « أي بَادِرُوا » والنَّجَا النَّجَا عَلَامَ تُعرجُون .

إرْتبتُم ورَبِّ الكعبة كأنكم والأمر مَعاً رَحِمَ اللهُ أمْرَأ جَعَلَ العَيْش عَيشا واحِدًا ، فأكَلَ كِسْرَةً ولَبِسَ خَلَقاً ، ولَصِقَ بالأرضِ واجْتَهَدَ فِي العِبَادَةِ ، وبَكَى على الخَطِيئَةِ ، وفَرَّ مَن العُقُوبة ، وطَلَبَ الرَّحْمَةَ حَتَّى يَأْتِيهِ أجَلُهُ وهو على ذلك .

وقال أبُو مُحَمَّد الزَّاهِد خَرَجْنَا في جَنَازَة بالكُوْفَةِ ، وخَرجَ فِيْهَا دَاوُدُ الطائِي فَتَكَلَّمَ ، فقال مَن خافَ الوَعِيْدَ قَصُر عليه البَعِيْدُ ، ومَن طَالَ أمَلُهُ ضَعَفَ عَمَلُهِ ، وكُلُ ما هو آتٍ قَرِيْبٌ .

واعلم يَا أخِي أنَّ كُلَّ شيءٍ شَغَلَكَ عن الله فهو عَلَيْكَ مُشوّوم واعلم أنَّ

أَهْلَ القبور إنما يَنْدَمُونَ عَلَى مايتركون ، ويَفْرحُونَ بما يُقَدِّمُون فما عليه أهْلُ القُبورِ يَنْدَمُون أهْل الدنيا عليه يَقْتَتِلُون ، وفيه يَتَنَافَسُوْن وعليه يَتَزَاحَمُوْن .

وقال آخر ويْحَ ابن آدَمَ إنَّ أَمَامَهُ ثَلاثَةُ أَشْيَاءَ مَوْتٌ كَرِيْهُ المَذَاقِ ونارٌ ألِيْمةُ العَذَابِ وجَنَّةٌ عَظِيْمَةُ الثواب .

وقال عليُ بنُ أبي طالب التُّوْءَدَةُ خير في كل شيء إلاَّ في أمْرِ الآخِرة والتُّوْءَدَةِ التَّثَبُت والتأني والرِفق في الأمور .

وكان الحسنُ رحمهُ اللهُ يَقُولُ في مَوْعِظَتِهِ المُبَادَرَةَ المبادرة فإنما هي الأنْفَاسُ لَوْ حُبِسَتْ انْقَطَعتْ عنكم الأعْمَال التِّي تَتَقَرَّبُونَ بها إلى الله عَزَّ وَجَل رَحِمَ اللهُ امْرَأً نَظَرَ لِنَفسِهِ وبَكَى على ذَنْبِهِ ثم قَرَأ هَذِه الآية : ﴿ إنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعني الأنفاس آخِرُ خُروْج نَفَسكَ وفراقُ أهْلِكَ .

وقال بَعْضُهُمْ اغْتَنِم تَنَفُسَ الأجلِ وإمْكان العَمَل واقْتَطِعْ ذِكْرَ المَعَاذِيْرِ والعِللِ فإنَّكَ في أجَلٍ مَحْدُوْدٍ ونَفَسٍ مَعْدُوْدٍ وعُمُر غَير مَمْدُوْد .

وقال آخَرُ إعْمَل عَمَل المُرْتَحِل فإنَّ حَادِي المَوْتِ يَحْدُوْكَ لِيَوم لَيْسَ يَعْدُوْكَ فَيطْرَحُكَ فِي حُفْرَةٍ لا يَخَافُكَ فيها أحَدٌ ولا يَرْجُوْكَ .

وكَتَبَ رَجُلٌ إلى بَعْضِ إخْوَانِهِ أما بَعْدُ فإنَّ الدنيا حُلْمٌ والآخِرَةَ يَقَظَةٌ والموتُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا ونَحْنُ في أضْغَاثِ أحْلَامٍ والسلام .

وكَتَبَ مُحَمَّدُ بنُ يُوْسُف إلى أخٍ لهُ سَلامٌ عَلَيْكَ فإني أحْمَدُ إليكَ اللهَ الذي لا إله إلاَّ هو أما بَعْدُ فإني مُحَذِّرُكَ مِن دَارِ مُنْقَلَبِكَ إلى دَارِ إقَامَتِكَ وجَزَاء أعْمَالِكَ فتصير في باطن الأرضِ بَعْدَ ظهْرِهَا .

فيأتِيْكَ منكَرٌ ونَكِيْرٌ فَيُقْعِدَانِكَ فَيَنْتَهِرَانِكَ فإنْ يَكُنِ اللهُ مَعَكَ فلا فاقةَ ولا

حَاجَةَ ولا بأسَ ولا وَحْشَةَ وإنْ يَكُنْ غَير ذلك فأعَاذني الله وأيَّاكَ يَا أخِي من سوء المَصْرَعِ وضِيْق المضْجَع .

ثم تَبْلُغُكَ صَيْحَةُ النُشور ونَفْخَةُ الصُوْر وقيام الخلائق لفصل القضاءِ وامتلأت الأرض بأهلها والسَّمواتُ بِسُكانها فَبَاحَتِ الأسْرَارُ ، وسُعِّرَتِ النارُ ووضِعَتِ المَوَازين ونشرت الدواوين ﴿ وجيء بالنبيينَ والشُهَداءِ وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ .

فكم من مُفْتَضِحٍ ومَسْتُورٍ ومُعَذَّبٍ ومَرْحُومٍ وكم مِن هَالكٍ وناجٍ فيالَيْتَ شِعْرِي مَا حَالِي وحَالُكَ يَوْمَئِذٍ فإنَّ في هَذَا ما هَدَمَ اللَّذَاتِ وسَلَّى عن الشَّهَوات وقَصَّرَ مِن الأمل وأيقَظَ النائم ونَبَّهَ الغافل .

أعَانَنَا اللهُ وإيَّاكَ على هَذَا الخَطَرِ العَظيمِ وَأوْقَعَ الدنيا مِن قَلْبِكَ وقَلْبِي مَوْقِعَها مِن قُلُوبِ المتقين فإنما نَحْنُ لَهُ وبِهِ والسَّلام .

وأنشد بَعْضُهم :

مُرَادُكَ أنْ يَتِمَّ لَكَ المُرَادُ ... وتَرْكُضُ في مَطَالِبِكَ الجِيَادُ
وتَمْضِي في أوَامِرِكَ اللَّيَالِي ... فلا يُعْصَى هَوَاكَ ولا يَكَادُ
لَقَدْ مَلَكَتْ مُضِلاتُ الأمَاني ... قِيَادَكَ فاغْتَدَيْتَ بها تُقَادُ
ألَمْ تَسْمَعْ بِذِي أمَلٍ بَعِيْدِ ... وآمالُ الفَتَى منها بِعَادُ
رَمَاهُ الموتُ فانقَبَضَتْ إليهِ ... أمانِيْهِ بشيءٍ لا يُرَادُ
ويَلْقَاهُ بإثر المـوتِ يوْمٌ ... تَمِيْدُ لِهَوْلِهِ السَّبْعُ الشِّدَادُ
تُصَمُّ لِوَقْعِهِ الآذانُ صَمّاً ... ويَنْطِقُ مِن زَلازِلِهِ الجَمَادُ
فكم سَالَتْ هُنَالِكَ مِن دُمُوعٍ ... يُغَيِّرهُنَّ مِن دَمِهِ الفُؤادُ
وكَمْ شَاهَتْ هُنَالِكَ مِن وُجُوهٍ ... على صَفَحَاتِها طُلِيَ الحِدَادُ

وماذا الكَرْبِ يُشْبِهُ ما عَهِدْنَا   وأنَّى يُشْبِهُ البَحْـرَ الثِّمَــادُ
ومَا الأسْمَاءُ تُعْطِيْكَ أتِّفَـاقاً   عَلَى مَعْنًى يَتمُ لَكَ المُـرَادُ
ولَكِنْ رُبَّمَـا كَانَ اشْـتِبَاهٌ   قَلِيْلٌ لا يُحَـسُّ ولا يَكَــادُ
يُسَمَّى البَحْرُ ذُوْ الأهْوَالِ بَحْراً   وبَحْراً مِثْلُهُ الفَـرَسُ الجَـوَادُ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِلْقِيَامِ بِحَقِّكَ وَبارِكْ لَنَا في الحلال مِن رِزْقِكَ ولَا تَفْضَحْنَا بين خَلْقِكَ يَا خَيْرَ مَنْ دَعَاهُ داعٍ وأفْضَلَ مَن رجَاهُ راجٍ يا قاضِي الحاجاتِ ومُجِيْبَ الدعواتِ هَبْ لَنَا ما سَأَلْنَاهُ وَحَقِّقْ رَجَاءَنَا فِيْمَا تَمَنَّيْنَاهُ يَا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السَّائِلِين ويَعْلَمُ ما فِي ضَمَائِرِ الصَّامِتِينَ أذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وحَلَاوَةَ مَغْفِرَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

قال عُمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، وَيْلٌ لِمنْ كانَتْ الدنيا أَمَلُه ، والخطايا عَمَلُه ،عَظِيْمٌ بِطْنَتِه ، قَلِيلُ فِطْنَتِهِ ، عَالِمٌ بأَمْرِ دُنْيَاهُ ، جاهِلٌ بأَمْرِ آخرتِهِ .

وقال العَلاءُ بن زِيَاد لِيُنَزِّلَ أحَدُكُم نَفْسَهُ أنَّهُ قد حَضَرَهُ الموت وأنه اسْتَقَال رَبَّهُ فأقَالَهُ فَلْيَعْمَل بِطَاعَةِ اللهِ .

وقال آخَرُ : عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْزَنُ علَى نُقْصَانِ مَالِهِ ولا يَحْزَنُ على نقصان عُمرُه .

تُفكِّر في نُقصَانِ مَالِكَ دَائماً   وتَغْفُلُ عن نُقْصَانِ دِيْنِكَ والعُمْرِ

وقال آخر :

تراه يَشْفَقُ مِن تَضْيِيْعِ دِرْهَمِهِ   ولَيْسَ يَشْفَقُ مِن دِيْنٍ يُضَيِّعُهُ

وقال آخر :

مالى أرَى الناسَ والدنيا مُوَلِّيَةٌ   وكُلُّ جَمْعٍ عليها سَوْفَ يَنْبَتِرُ
لا يَشْعُرونَ إذا ما دِيْنُهُم نُقِصُوْا   يَوماً وإن نُقِصَتْ دُنْياهُمُوا شَعِرُوْا

وقال بَعْضُهم أيُّها الناس إنَّ لَكُم مَعَالم تَسْتَبِقُونَ إليْهَا ، وأنَّ لَكُم مَوَارد تَرِدُوْنَ عليها ، وإنْ الجَديْدَيْن يَسْيَرَانِ بِكُم وإنْ لم تَسِيْرُوْا ، ويُسْرِعَانِ بِكُم وإنْ لم تُسْرِعوا ، وإنَّ قُصَاراكُم الموتُ وإنَّ بَعْد الأمَدُ .

فَرَحِمَ الله إمْرَأً أضْمَرَ نَفْسَهُ لِلسَّباقِ ، وسَاقَهَا إلى الغَايَةِ أشَدَّ مَساق واسْتَعَدَّ لِلْمَوتِ قبل هُجُومِهِ وأخَذَ حِذْرَهُ مِنْهُ قبل قُدُوْمِهِ وأنْفَدَ دُمُوعه على الأوقات التي أضَاعها قبل أنْ تَزِلَ به القَدَم ويؤخذ بما علم وبما لم يعْلم .

وقال بعض الحُكَماء السَّعِيْدُ مَنْ صَرَفَ اللهُ أمَلَهُ إلى ما يَبْقَي وقَطَعَهُ عَمَّا يَفْنَى وأعَانَهُ في دَارِ الفَنَاءِ على عمارَةِ دَارِ البَقَاءِ .

والويل الطَّوِيْلُ والحَسْرَةُ الَّتي لا تَزُوْل لمن أعرض عن الكتاب والسنة ولم يَنْهَى نَفْسَهُ عن الهَوى .

وقال عيسى بن مريم عليه السلام عَجبْتُ لثلاثة لِغَافل ولَيْسَ بِمَغْفُول عنه ومُؤَمِّلٍ دُنْيَاهُ والموتُ يَطْلُبه وبَانٍ قَصْراً والقَبْرُ مَسْكَنُهُ .

رُوي أن رَجُلاً دَخَلَ على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فرآهُ قَدْ تَغِيَّرَ لَوْنُهُ من كثرة العبادة والخوف واستحالت صفته فَجَعَلَ يَتَعَجَّبُ من تَغَيُّرِ لِوْنِهِ .

فقال له عمر يَا ابْنَ أخي وما يُعْجِبُكَ مِنِّي فَكَيْفَ لو رأيتني بَعْدَ دُخُول قَبْرِي بثلاث لَيَالٍ وقَدْ خَرَجَتِ الحَدَقَتَانِ فسالَتا على الخَدَّيْن وتقلَّصَتِ الشَّفَتانِ عن الأسْنَانِ وخَرَجَ الصَّدِيْدُ والدُوْدُ من المناخر والفم وانْتَفَخَ البَطْنُ فَعَلى الصَّدْرَ وخَرَجَ الصلب عن الدّبُرِ لَرأيْتَ إذْ ذَاكَ مني أعْجَبَ مما رَأيْتَ الآن .

وأعْلم رحمنا الله وإياك وجميع المسلمين أنَّه مَن تَصَوَّر هَذَا وأَقَامَ هذا الخيالَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ وتَفَكَّرَ في المَيِّتِ ومَا يَؤُوْلُ ويَرْجِعُ إليْهِ .

ثم نَظَرَ فيما يَقْدَمُ عليه وعَلِمَ أن جسْمَهُ النَّاعِمَ الغَضَّ وبَدَنَه اللَّين المُتَعَافي سَيُطْرَحُ ويُذَبُّ في حُفْرَةٍ ضَيِّقَةَ الجَوَانِب تقطَّعُ فِيْهَا أوْصَالُه وتَغَيَّر فيها أحْوَالُه ثم يَتَبَيَّنُ لَه بَعْدَ ذَلِكَ مآلُهُ ويُطْلَبُ بَعْدَ ذَلِكَ بكُلِّ ما عَمِلُه وقَالَهُ لم يَشْتَغِلْ بِمَيِّتٍ بَالُه ولم يَبْكِ إلا على نَفْسِهِ وأنْشَدُوْا في ذلك :

لِمَنْ جَدَثٌ أبْصَرْتُه فَشَجَانِي ... وأرْسَل في شَجْوِ الهُمُومِ عِنَانِي
سَفَكْتُ عَلَيهِ أدْمُعِي فَسَقَيْتُهُ ... كَمَا هُوَ مِنْ كَأْسِ الشُجُوْنِ سَقَانِي
وقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وقْفَةَ هَائِمٍ ... أُعَالِجُ قَلْباً دَائِمَ الخَفَقَانِ
وما بِيَ مَنْ في القَبْرِ لَكْنِ رَأيْتُهُ ... على حَالَةٍ فِيهَا وشِيْكَ أرَانِي

آخـــر :

لِمَنِ الأقْبُرُ في تِلْكَ الرُّبى ... مَلأَتْ صَدْرِيَ شَجْواً وأسَى
لِمَنِ الأوْجُهُ فيها كَسَفَتْ ... بَعْدَ حُسْنٍ وجَمَالٍ وضِيَـا
لِمَنِ الأجْسَـامُ فيهـا بَلِيَتْ ... بَعْدَ زَهْوٍ وشَـبَابٍ وانْتِشَـا
ومَنِ الفُرْسَانُ فيها قَدْ نَسُوا ... رَوْعَةَ الحَرْبِ بِرَوْعَـاتِ الثَّرَا
ورَمَوْا إذْ هَتَفَ المـوتُ بهم ... بِسُيُوفِ الهِنْدِ رَوْعاً والقَنَـا
ومَن الخُرَّدُ فيهـا شَـدَّمَا ... فَتَكَتْ قَبْـلَ آسَـادِ الشَّـرَا
نَظَرَ المـوتُ إليها فَغَـدَتْ ... تَنْفُرُ الأَنْفُسُ منهـا إذْ تُـرَى
لِمَن الأقْبُرُ في تِلكَ الرُّبَى ... ألْبَسَتْ جِسْمِيَ أثـوابَ الضَّنَا
يَا جُفُـوْناً أرْسَلَتْ أدْمُعَهَـا ... مَابِذَا بأْسٌ لَو أرْسَـلْتِ الدِّمَا
صَاحِ يَا صَاحِ ونيْرَانُ الجَوى ... عَلِقَتْ مِنِّي بأثْنَـاء الحَشَـا
لا تَظَنَـنَّ بُكَائِي لهُمُـــوْا ... لَيْسَ والله لهـم هـذا البُكَا

إنما أبْكِي لِنفسي لا لَهُمْ ... فكَأني اليَوْمَ فيهم أو غدَا
هَامِدُ الجَمْرةِ مَوْهُونُ القُوى ... دَائِمُ الحَسْرةِ مَقْطُوع العُرَى
رَبِّ يا ربِّ ويا رَبُّ الوَرَى ... ما تَرَى في عَبْدِ سُوءٍ مَا تَرى
كَفَر الاحْسَانَ قِدْماً وبَغَى ... وطَغَى ثم طَغَى ثم طَغَى
ما تَرَى في أَمْرِهِ يَا منَ تَرى ... كُلَّ شيءٍ وهو رَبٌّ لا يُرَى
لَيسَ إلاَّ عَفْوُكَ المَرْجُوُ أوْ ... دَفْعَةٌ تُنْزِلُهُ قَعْرَ لَظَى
وعِيَاذاً بكَ يا مَوْلايَ أنْ ... يَلْتوِي في يَدِهِ حَبْلُ الرَّجَا
وَإذَا أَسْلَمْتَه رَبِّ فَمَنْ ... يَقْصُدُ اليَوْمَ لَهُ أوْ يُرْتَجَى

اللهم اغفر لنا ما قَطَعَ قُلُوبَنا عن ذِكرك واعفُ عن تَقْصِيرنا في طاعَتِكَ وشُكْرِكَ وأدِمْ لَنَا لزُومَ الطريق إليكَ وهَبْ لنا نوراً نَهْتَدِي به إليكَ واسْلُكْ بنا سَبِيْلَ أَهْلِ مَرْضَاتِكَ واقْطعْ عَنَّا كُلَّ ما يُبعدُنا عَن سَبِيْلِكَ ويَسِّرْ لنَا ما يَسَّرْتَهُ لأهْلِ مَحَبَّتِكَ وأيْقِظْنَا مِن غَفَلاتِنَا وألهِمْنَا رُشْدَنا وحَقِّقْ بِكَرمِكَ قَصْدَنَا واسْتُرْنَا في دُنيانا وآخِرَتِنَا واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ المتقين وألحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِين واغفر لنا ولِوالدينا ولِجميعِ المسلمين الأحْيَاءِ والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

اعلم وفَّقَنَا الله وإياك وجميع المسلمين أنَّ تقصِيْر الأَمَلِ دليلٌ عَلى كَمالِ العقل فَسَبِيْلُ العاقل تقصير آماله في الدنيا والتَّقربُ إلى الله جل وعلا بصالح الأعمال .

ومَعْنَى تقصير الأَمَلِ اسْتِشْعَار قُرْبِ الموتِ ولهذا قال بعضهم قِصَرُ الأمل سَبَبٌ لِلزُّهْدِ لأنَّ مَنْ قَصَّرَ أَمَلَهُ زَهِدَ ، ويَتَوَلَّدُ مِن طُوْلِ الأمل الكَسَلُ عن

الطَاعة والتّسْوِيْف بالتّوبةِ والرغبةُ في الدنيا والنّسْيانُ للآخِرة والتّساهُل بتأخِيْر قَضَاءِ الدُيُونِ وَالقَسْوةُ في القَلْبِ .

وقِيْلَ مَن قَصُرَ أمَلُهُ قَلّ هَمُّهُ وتَنَوّر قَلْبُه .

لأنه إذا اسْتَحْضَرَ الموت اجْتَهَدَ في الطاعة ورضى بالقليل وقال ابن الجوزي الأملُ مَذْمُومٌ إلاَّ لِلْعُلَماء فلَولا ما جعل الله فيهم من الأملِ لَمَا أَلَّفُوا ولا صَنَّفُوا .

وفي الأمل سر لطيف جَعَلَه الله لولاه لَمَا تَهَنَّأ أحَدٌ بِعَيْش ولا طابَتْ نَفْسُهُ أنْ يَشْرَعَ بِعَمَل من أعمال الدنيا . قال ﷺ إنّما الأملُ رَحْمَةٌ مِن الله لأُمّتِي ولولا الأمَلُ ما أرْضَعَتْ أمٌ ولدَهَا ولا غَرَسَ غارِسٌ شَجَرا .رواه الخطيب .

عن أنس رضى الله عنه والمَذْمُوْمُ مِن الأَمل الاسْتِرسَالُ فيه وعَدَمِ الاسْتِعْدَادِ لِأَمْرِ الآخِرةُ فمن سَلِمَ مِن ذلك لم يُكَلَّفْ بإزَالَتِهِ .

وَوَرَدَ في ذَمّ الاسْتِرسَالِ في الأمل حَديْثُ أنَسٍ رَفَعَهَ أرْبَعَة مِن الشَّقَاء جَمُود العَينِ وقَسْوَةُ القَلْبِ وطُوْلُ الأمَل والحِرْصُ على الدنيا . رواه البزار .

وروى على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال :« أخوف ما أخاف عليكم إثنان طول الأمل واتباع الهوى فإنَّ طُولَ الأمل ينْسِي الآخِرة واتباع الهَوَى يَصُدُّ عن الحق » .

وروى عن النبي ﷺ أنَّهُ قَال : « صَلاحُ هذه الأمة بالزهد واليقيْن ، وهَلاكُ آخِرِها بالبُخْلِ وطُولِ الأملِ » وقيل ان طُول الأمَلِ حجَابٌ على القلب يَمْنَعُهُ مِن رُؤيَةِ قُرْبِ الموْتِ ومُشاهَدَتِهِ وَوَقْر في الأذُنِ يَمْنَعُ مِن سَمَاع وجْبَتِهِ ودَويّ وَقْعَتِهِ وبِقَدْرِ مَا يُرْفعُ لَكَ مِن الحِجَابِ تَرَى وبقَدْرِ ما تُخَفّفُ عن أُذُنَيْكَ مِن الوَقْرِ تَسْتَمع .

فانْظُرْ رَحمكَ اللهُ نَظَرَ مَن رُفعَ عنه الحِجَابُ وفُتِحَ لَهُ الباب واسْتمِعْ سَمَاعَ مَن أزيْل وَقْرُهُ وخُوطِبَ سِرُّه وبادِرْ قَبْلَ أنْ يُبَادَرَ بِكَ ويُنْزَلَ عَلَيْكَ وَينْفُذَ حُكْمُ الله فِيْكَ فَتُطْوىَ صَحِيْفَةُ عَمَلِكَ ويُخْتَمُ عَلَى ما في يَدَيْكَ .

ويقال لَكَ اجْنِ ما غَرَسْتَ واحْصُدْ ما زَرَعْتَ واقْرأ كتَابَكَ الذي كَتَبْتَ كَفى بنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيْبًا وبِرَبِّكَ تبارك وتعالى رقيبا ، واعلم أنَّ الأملَ يُكَسِّلُ عن العمل ويُوْرِثُ التَّراخِي والتَّواني ، ويَعْقِبُه التَشاغُلُ والتَّقَاعُسُ ، ويُخْلِدُ إلى الأرض ويَمِيلُ إلى الهوى .

وهذا أمْرٌ قَدْ شُوهِدَ بالعِيَانِ فلا يَحْتَاجُ إلى بَيَان ، ولا يُطَالَبُ صَاحِبُهُ بِبُرْهان ، كما أن قصرَ الأمَلِ يَبْعَثُ على الجِدِّ والاجْتهادِ في العَمَلِ ، ويَحْمِل على المُبَادَرَةِ ، ويَحُثُ على المُسَابَقةِ قال :

وسَأضْرِبُ لَكَ في ذلك مَثلاً ، مِثْلُ مَلِكٍ مِن الملُوكِ كَتَبَ إلى رَجُل يقُولُ لَهُ إفْعَلْ كذا وكذا ، وانْظُر في كذا وكذا ، وأصْلِحْ كذا وكذا ، وانْتَظِرْ رسُولِي فُلاناً فإني سَأبْعَثُهُ إليْكَ لِيَأتِيْنِي بِكَ .

وإيَّاكَ ثم إيَّاكَ أن يَأْتِيَكَ إلاَّ وقَدْ فَرَغْتَ مِن أشْغَالِكَ وتَخَلَّصْتَ مِن أعْمَالِكَ ، ونَظَرْتَ في زَادِكَ ، وأخَذْتَ مَا تَحتَاجُ إليه في سَفَرِكَ .

وإلا أحْلَلْتُ بِكَ عِقَابي وأنزَلْتُ عَلَيْكَ سَخَطِي ، وأمَرْتُه يَأْتِنِي بِكَ مَغْلُولَةً يَدَاكَ مُقَيَّدةً رِجْلاكَ ، مُشَمِّتاً بِكَ أعْدَاكَ ، مَسْحُوباً على وجْهِكَ إلى دارِ خِزْيٍ وهَوَان وما أعْدَدْتُهُ لِمَنْ عَصَاني .

وَإنْ وَجَدَكَ قد فَرَغْتَ مِن أعْمَالِكَ وقَضَيْتَ جَمِيْعَ أشْغَالِكَ أتَى بِكَ مُكْرَماً مرَفَّعاً مُرَفَّهاً إلى دَارِ رِضْوَانِي وكَرَامَتِي وما أعْدَدْتُهُ لِمَنْ امْتَثَل أمْرِي وعَمِلَ بطَاعَتي .

واحْذَرْ أنْ يَخْدَعَكَ فُلانٌ أو فُلَانَةُ عن امْتِثَالِ أمْرِي والاشْتِغَالِ بَعَمَلِي ، وَكَتَبَ إلى رجل آخر بمثل ذَلِكَ الكتاب .

فأما الرجُلِ الأوَّلُ فقال هذا كِتابُ المِلِكَ يأمُرُنِي فيه بِكَذَا وكذَا ، وذكَرَ لِي أنَّ رسُولَهُ يَأتِيْنِي لِيَحْمِلنْي إليه وأنا لَا أمْضِي إليه حَتَّى يأتِيْنِي رِسُوْلُهُ ، ولَعَلَّ رسُوْلَهُ لا يأتِيْنِي إلا إلى خَمْسِيْنَ سَنَة أو أكْثَرَ فأنا على مُهْلَةٍ .

وسَأنْظُر فِيْمَا أمَرَنِي بِهِ ، ولم يَقَعِ الكِتَابُ مِنه بذَلِكَ الموقِع ، ولم يُنْزِلْهُ مِن نَفْسِهِ بتِلْكَ المنزلَةِ ،وقال والله لَقَدْ أتَىَ كِتَابُهُ إلى خَلْقٍ كَثِيْرٍ بِمِثْلِ ما أتَانِي ، ولم يَأْتِهِمْ رسُولُهُ إلاَّ بَعْدَ السِنِيْنَ الكثيرة ، والمُدَدِ الطَّوِيْلَة ، وأنَا واحِدُ منهم .

ولَعَلَّ رسوله يَتَأخَّرُ عَنِّي كما تأخَّر عنهم ، وجَعَلِ الغَالِبَ عَلى ظَنِّهِ أنَّ الرسُوْلَ لا يأْتِيْهِ إلاَّ إلى خَمْسِيْنَ سَنَة كَمَا ظَنَّ ، أوْ أكْثَرَ أوْ إلى المُدَّةِ التي جَعَل لِنَفْسِهِ بِزَعْمِهِ .

ثم أقْبَلَ على اشْغَال نَفْسِهِ مِمَّا لا يَحْتَاجُ إليه ومما كان غَنِياً عنه وتَرَكَ أوَامِرَ المِلِك والشُغْل الذي كَلَّفَهُ النَّظَرَ فيها والاشتغال بِهِ .

فكلما دَخلَت عليه سَنَة قال أنا مَشْغُولٌ في هذه السَّنَةِ وسَأنْظُرُ في السنَة المُقْبِلَةِ والمسَافَةُ أمَامِي طَوِيْلَةٌ والمُهْلُ بَعِيْد .

وهَكذا كُلَّمَا دَخلَتْ عليه سَنَة قال أنَا مَشْغُولٌ ، وَسَأنْظُرُ في الأخرى أوْ سَأنْظُرُ في أمرِي فَبَيْنَما هُو على ذَلِكَ مِن تسْوِيْفِهِ ، واغْتِرَارِهِ ، إذ جَاءَهُ رَسُوْلُ المَلِكَ فكَسَرَ بَابَهُ وهَتَكَ حِجَابَهُ وحَصَلَ مَعَهُ في قَعْرِ بَيْتِهِ .

وقال له أجب المَلِكَ فقال والله لَقَدْ جَاءَنِي كِتَابُهُ يَأمُرُنِي فيه بأعْمَال أعْمَلُهَا وأشْغَالٌ أنْظُرُ لَهُ فيها ، وما قَضَيْتُ منها شُغْلا ، ولا عَمِلْتُ فيها حتى الآنَ شيْئاً .

فقال الرسُولُ لَهُ وَيْلَكَ وما الذي أبْطَأَكَ عنها وما الذي حَبَسَكَ عن الاشتغال بها والنظر فيها . فقال لَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّكَ تَأْتِيْنِي في هذا الوَقْتِ .

فقال له : ويْلَكَ ومِن أيْنَ كان لَكَ هَذا الظَّنُ ومَن أخْبَرَكَ بِهِ ومَن أعْلمكَ بأنِّي لا آتِيْكَ إلاَّ في الوَقْتِ الذي تظُنُّ . قال ظَنَنْتُ وطَمِعْتُ وسَوَّلَتْ لي نَفْسِي وخدَعنِي الشيْطَانُ وغَرَّنِي .

فقال لهُ ألَمْ يُحَذِّركَ المِلكُ في كِتَابِهِ مِنْهُمَا وَأَمَرَكَ ألا تَسْمَعَ لَهُمَا قال بَلَى واللهِ لَقَدْ فَعَلَ ولَقَدْ جَاءنِي هَذَا في كِتَابِهِ ولَكِنَّنِي خُدِعْتُ فانْخَدَعْتُ وفُتِنْتُ فافْتَتَنْتُ وارْتَبْتُ في وَقْتِ مَجِيْئِكَ فَتَرَبَّصْتُ .

فقال له وَيْلَكَ غَرَّكَ الغَرُوْرُ وخَدَعَكَ المُخَادِعُ أجب المَلِكَ لَا أُمَّ لَكَ ، قال أنْشُدُكَ إلاَّ ما تَرَكْتَنِي حتى أنْظُر فيما أمَرني بِهِ ، أوْفي بَعْضِهِ أوْ فِيْمَا تَيَسَّر منه حتى لا أقدم عليه في جُمْلَةِ المُفَرِّطِين وعِصَابَةِ المُقَصِّرين .

وهذا مال قد كُنْتُ جَمَعْتُهُ لِنَفْسِي ، وأعْدَدْتُهُ لمؤُونةِ زماني ، فاتْرُكْنِي حتى آخُذُ منه زاداً أتزوَّدُهُ ودَابَّةً أرْكَبُهَا ، فإنَّ الطرِيقَ شَاقَّةٌ ، والمفازةُ صَعْبَةٌ ، والعَقَبَةُ كَؤُوْد ، والمَنْزِلُ لَيْسَ فيه ماء .

قال أتْرُكُكَ حتى أكُوْنَ عاصِياً مِثْلَكَ ثم دَفَعَهُ دفْعَةً ألْقَاهُ على وجْهِهِ ثم جَمَعَ يَدَيْهِ إلَى عُنُقِهِ وانْطَلَقَ به يَجُرهُ مِن خَلْفِهِ خَزْيَانَ نَدْمَان جَوْعَانُ عطْشَانِ ، وهو يُنْشد بِلِسَان الحال :

لا كَحُزني إذَا لَقِيْتُ حَزِيْنَا　　جَلَّ خَطْبِي فَدَيْتُكم أنْ يَهُوْنا
ضاق صَدْرِي عن بَعْضِهِ واحْتِمَالِي　　فاسْلُكُوا بي حَيْثُ ألْقى المَنُونَا
ما تُرِيْدُ العُدَاةُ مِنِّي وإنِّي　　لِبَحَالٍ يَرِق لِيْ المَبْغِضُوْنَا
زَفَراتٌ هَتَكْنَ حُجْبَ فؤآدِي　　وهُمُومٌ قَطَعْنَ مِنِّي الوَتِيْنَا
خُنْتُ عَهْدَ المَلِيْكِ قَوْلاً وفِعْلاً　　واتَّخَذْتُ الخِلافَ شَرعاً ودِيْنَا

غَرَسَت في الحَيَاةِ كَفِي شَراً فاجْتَنَيْتُ العقَابَ مِنْهُ فُنُوْنا
لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ وأيْنَ لِمثِلي ظالِمٌ نَفْسهُ بأَنْ لا يَكُوْنَا
يا خَلِيْلِي ولا خَلِيْلَ لِي اليَوْ مَ سِوَى حَسْرةٍ تُدِيْمُ الأَنِيْنَا
رَبَحَ الرابحُوْنَ وانقضَتِ السُوْ قُ وخَلَى بِغَبْنِهِ المَغْبُوْنا .
فابْكِنِي إنْ يَكُنْ بُكَاكَ مُفِيْداً أَوْ فَدَعْنِي وعُصْبَةً يَبْكُوْنَا

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغَفْلَةِ وَنَبِّهْنا لاغتِنَامِ أوقاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنا من قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنا بما انْطَوَتْ عليهِ ضَمائِرُنا وأكَنَّتْهُ سَرائِرُنا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ وَالمعائِبِ التي تَعْلَمُها مِنا ، وأمنُنْ علينا يا مولانا بتَوْبَةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغفِرْ لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمين الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

وأمَّا الآخَرُ الذي كَتَبَ إليه الْمَلِكُ بِمِثْلِ مَا كَتَبَ به إلى هذا فإنه أخَذَ كِتَابَ الْمَلِكِ وقَبلَهُ وقَرَأهُ وتَصفَّحَهُ وتَدَبَّرَهُ ، وقال أرَى الملكَ قد كَتَبَ إليَّ بأَنْ أعْمَلَ لَهُ كَذا وَكَذا ، وأقْضِي لِهُ كَذَا وكَذَا ، وأَنْظُرُ لَهُ في كَذَا وكَذَا .

ومِن أيْنَ سَبَقَتْ لِي هذه السابقة عند الملك ، ومَن الذي عَنَى بي عِنْدَهُ ، ومَن الذي أنْزَلَنِي منه هَذِهِ المَنْزِلَةَ ، حتى جَعَلني مِن بَعْضِ خُدَّامِهِ ، والقَائمين بأمْرِه .

والله إنَّ هَذِهِ لَسَعَادَةٌ وَاللهِ إنها لَعِنايَةٌ الحَمْدُ لِلَّه ربِ العالمين ، ثُمَ نَظَرَ في الكتاب وقال أسْمَع المَلِك وقَدْ قال لِي في كتابِهِ ، وانْتَظِرْ رَسُولي فإني سَأَبعَثهُ إليك لِيَأتِيَنِي بِكَ وَأرَهُ لم يَحُدَّ لِي الوقْتَ الذي يَبْعَثُ فيه الرسول إليَّ ولا سَمَّاهُ لي .

ولَعَلّي لا أفْرَغُ مِن قراءة كِتابِهِ إلاَّ ورسُولُه قد أتاني ونزل عَليَّ ، واللهِ لا قَدَّمْتُ شُغْلاً على شُغْلِ المَلِكِ ولا نَظَرْتُ في شيءٍ إلاَّ بَعْدَ فَراغِي مِمَّا أمَرني بِهِ المِلِكُ ، وإعْدَادَي زَاداً أتَزَوَّدُ بِهِ ، ومَرْكُوباً أرْكَبُه إذَا جَاءني رسُوله وحَمَلَني إليه .

فَتَعَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ وقال لَهُ لِمَ هَذِهِ المسارعة كُلُّها وفِيْمَ هذه المُبَادَرَةُ كُلُّهَا .

فقال له وَيْحَكَ أمَا ترى كتابَ الملكِ بما جاءني أما تَسْمَعُ ما فيه أمَا تُصَدِّقهُ ، أما تؤمِنُ بِهِ قال بَلى سَمعْتُ وآمَنْتُ وصَدَّقْتُ ، ولكن لم يَقُلْ لَكَ فيه أنَّ رسُولَهُ يأتِيْكَ اليومَ ولا غداً ولا وَقْتاً مَعْلُوماً .

ولكنَّه سَيَأتيكَ وقد جاء كتابُه إلى فلانٍ بِهذا الذي قد جَاءَكَ أنْتَ بِهِ ، وقد بَقِي مُنْتَظراً لِرَسُوله أكْثَرَ مِن سبعين سَنَة ، وإلى الآن ما أتاه .

وبَعْدَ زَمَان طَوِيْلٍ مَا جَاءَهُ ، وفُلانٌ أتَاهُ بَعْدَ ثمانين سَنة ، وفلانٌ أتاه بعد مائَةِ سَنَة ، وأنْتَ واحِدٌ مِن المُرْسَلِ إليهم ، فَلِمَ هَذِهِ العَجَلَةُ ، وفِيْمَ هَذا الإسْرَاع .

فقال ويْحَكَ أما تَرى أنْتَ فُلاناً قد جَاءَهُ كِتَابُ المِلِكِ بهذا الذي جَاءَني وجَاءَهُ الرسُولُ في إثْرِ مَجِيْءِ الكتاب ، وفُلَانٌ كذالك ، وفُلانٌ قد جَاءَهُ بعد سَنَة .

فقال بَلَى ولكن لا تَنْظُرْ إلى هؤلآءِ خاصَّةً وانْظُرْ إلى الذين قُلْتُ لَكَ مِمَّنْ تأخَّر عَنَه المَجِي فقال له دعني يا هذا فقد شغَلْتَنِي والله وإني لأخَافُ أنْ يأتِيْنِي الرسولُ وأنا أكَلِّمُكَ .

ثم أقْبَلَ عَلى مَا أمَرَهُ بِهِ الملكُ فامْتَثَلَهُ ، ونَظَر فيما حَدَّ لَهُ ، واشْتَغَلَ بما يَجبُ عليه أنْ يَشتَغِلَ بِهِ ، وأخَذَ الزادَ لِسَفَرِهِ ، وأخَذَ الأهْبَةَ بِطَرِيْقِهِ وجَعَلَ يَنْتَظِرُ الرسول أن يأتيه وأقْبل يَلْتَفِتُ يَمِيْناً وشمالاً يَنْظُر مِن أيْنَ يَأتيه ومِن أيْنَ يُقْبِلُ عليه .

فَبَيْنَما هُو كذلك وإذا برسُولِ الملكِ قَدْ أتاه فَقَالَ أجِبِ المَلِكَ قال نَعَمْ قال السَّاعَةَ ، قال الساعَةَ ، قال وفَرَغْتَ مِمَّا أمَرَك بِهِ ، وعَمِلْتَ ما حَدَّ لكَ أنْ تَعْمَلهُ ، قال نَعَمْ ، قال فانْطَلِق .

قَالَ بسْمِ اللهِ فخلعَ عَليه خِلْعَةَ الأَوْلِيَاءِ وَكَسَاهُ كِسْوَةَ الأصْفِيَاءِ واعْطاه مَرْكُوباً يليْقُ بِهِ ويَجْمُلُ بِمثلِهِ وانْطَلَقَ بِهِ في حُبُورٍ وسُرور .

فَبَانَ لك بِهَذا المَثَلِ وبِغيْرِهِ فَضِيْلَةُ قِصَرِ الأملِ ، وفَضِيْلَةُ المُبَادَرَةِ إلى العمل ، والاستعْدَادِ لِلْمُوتِ قبل نُزُوْلِهِ ، والإنْتِظَـار لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ .

وقد كَثُرَ الحَضُّ على هَذا وكَثُرَتِ الأقَاوِيْلُ فيه ، ولم يَزَلِ المُذَكِّرُوْنَ يُذَكِّرُوْنَ والمُنَبِّهُوْنَ يُنَبِّهُوْن لَوْ يَجِدُوْنَ سَمْعاً وَوَعْياً وقلباً حافِظاً ومَحَلاً قَابلاً فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله العلي العظيم انْتَهى .

ومِن كلَامِ بَعْضِهم أما تَسْمَعُوْن أيُّها الناس دَاعِي الموتِ يَدْعُوكم ، وحَادِيْه يَحْدُوكم أمَا تَرَوْنَ صَرْعَاهُ في مَنَازِلِكُم وقَتْلاهُ بَيْن أيدِيْكم ففيم التَّصَامُم عن الداعي والتشاغل عن الحادي والتَّعَامِي عن مَصَارِعِ القَتْلَى والتَّغَافُل عن مُشاهَدَةِ الْهَلْكَى ، فَرحِمَ اللهُ أمْرَأً أيْقَظَ نَفْسَهُ في مُهْلَةِ الحَيَاة قَبْل أن تُوقِظَهُ رَوْعَةُ المَمات ، واستَعَدَّ لِمَا هُو آتٍ قَبْلَ الانْبِتَاتِ ، وحلول الفوات ، وكان الحكم قَدْ وَقَعَ والخِطَاب قَدِ ارْتَفَع ، أعْرَضَ مَن أعْرَضْ ، وسَمِعَ مَن سَمِعْ .

شعرا :

قَطَعْتُ زماني حِيْناً فَحِيْنَا أُدِيْر مِن اللَّهْـوِ فيـه فُنُـوْنَا
وأهْمَلْتُ نَفسِـي وما أُهْمِـلَتْ وهَـوَّنْتَ مِن ذَاكَ مَا لمْ يَهُـوْنَا
ورُبَّ سُرُوْرٍ شَـفَى غَـلَّةً وَوَلَّى فأعْقَبَ حُـزْناً رَصِيْنَـا
وكم آكِلٍ سَـاعَة ما يُرِيْـد يُكَابِدُ ما أورثَتْـهُ سِنِيْنَـا
وما كان أغْـنَى الفَتَى عن نَعِيْمٍ يَعُـودُ عَلَيـهِ عَـذَاباً مُهِيْنـا

وكم وعَظَتْني عِظَــاةُ الزَمان ... لَو أني أصِيْخ إلى الوَاعِظيْنَــا
وكم دَعَــاني دَاعــي المنُــوْن ... وأسْمَعَ لو كُنْتُ في السَّــامِعِيْنا
وماذا أؤَمِّـل أو أرْتَجيْــــه ... وقد جُــزْتُ سَبْعاً على الأرْبِعِيْنَا
فلو كانَ عَقْـلِي مَعِي حَاضِــراً ... سَمِعْتُ لَعَمْرِي منــه أنِيْنَــا
ولَنْ يَبْرحَ المَــرْءُ في رَقْـدَةٍ ... يَغِــطُّ إلى أنْ يُوَافي المنُــوْنَا
فَتُوقِظُهُ عِنــدَهـا رَوْعَــــة ... تَقطَّــعُ منه هُنَــاكَ الوَتِيْنَــا
وإذْ ذَاكَ يَدْرِيْ بِمَــا كان فِيه ... وتَجْلُو الحَقَــائِقُ مِنْهُ الظُنُــوْنَا

اللَّهُمَّ انْظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبَرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا مَعَ الذين أنعمْتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحين واغفِرْ لنا ولوالِدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعِين .

(فَصْــلٌ)

وقال رحمةُ الله عليه بعد كلام له فإذَا أضِيفَ إلى الفِكْرَةِ في الموت الفِكْرَةَ فيمَا بَعْدَ الموتِ وفي حَال الميتِ ومآله وما يُجَازَى به مِن أقْوَالٍ وأفْعَالٍ وفي أي مَرْبَحٍ ومَتْجَرٍ فَاتَهُ وأيّ بضَاعَةٍ فَرَّطَ وأيُّ جُزْءٍ من عُمُره ضَيَّعَهُ هُنَالِكَ تَطِيْشُ الألبابُ وتَذْهَلُ العُقولُ وتَخْرِسُ الألْسُنُ وتُنبَذُ الدُنْيَا بالعَرَاءِ وتُطْـرَحُ بِجَمِيْعِ ما فيها بِالوَرَاءِ وَلا يُلْتَفَتُ لَهَا .

ومِن فَوَائِدِ ذِكْرِ الموتِ أَنَّهُ يُورِثُ الاسْتِشْعَارِ بالإنْزِعَاجِ عن هذه الدار الفانيَةِ المملؤةِ بالاكدارِ والانكادِ والهمومِ والغُموم .

ويَحُثُكَ ذِكْرُ الموتِ على التَوجُهِ في كُلِّ لَحْظَـةٍ إلى الآخِرةِ بالاسْتِعْدَاد لها ثم إنَّ الإنسان لا يَنْفكُ عن حَالتى ضِيْقٍ وسَعَةٍ ونِعْمَة ومحْنَةٍ .

فإن كان في حال ضَيِّقةٍ ومِحْنَةٍ فَذَكَر الموتَ سَهَّلَ عليه بَعْضَ ما هو فيه إذ لَا مُصِيْبَةَ إلاَّ والموتُ أعْظَمُ منها وهُوَ ذَائِقُه ولَا بُد .

قال الله تعالى : ﴿ كل نفس ذائِقة الموت ﴾ وإن كان في حالِ سَعَةٍ ونِعْمَةٍ .

فذِكْرُ الموتِ يَمْنَعُهُ مِن الإغْترار بالدُنيا والركون إليها لتَحَقُّقِ عَدَمِ دوامها وتَحقّقِ ذَهَابِها عنه وانْصِرَامِهَا .

قال الله جل وعلا وتقدس : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

يا نَائِمـا وَالمِنُـونُ تَقْضَى وَغَالبـاً والحِمَـامُ أوْفَى
جَـاءَكَ أمْرٌ وَأيُّ أمْـرٍ طَمَّ على غَـيْرِهِ وعَفَّـى
هَلْ بَعْدَ هَـذَا المَشِيْبِ شيءٌ غَيْرَ تُرابٍ عَلَيْـكَ يُحْثَى
فلَيْسَ هَـذَا الأمْرُ سَـهْلاً ولا بشَيْءٍ عَلَيْـكَ يَخْفَـى
مِن بَعْدِ مَا المَرْءُ في بَرَاحٍ يَهْتَزُّ تِيْهـاً بِهِ وَظَـرْفَا
سَاكِنُ نَفْسٍ قَـرِيُر عَـيْنٍ يَرْشُفُ ثَغْـرَ النَّعِـيْم رَشْفَا
إذْ عَصَفَتْ في دَارِهِ رِيْحٌ تَقْصِفُ كُلَّ الظُهُـوْر قَصْفَا
فباتَ في أهْلِه حَصِيْـداً قَدْ جَعَفَتْـهُ المَنُـونُ جَعْفَا
فَعَـادَ ذَاكَ النَّعِيْمُ بُؤْسَـا وصَـارَ ذَاكَ السُكُوْنُ رَجْفَا
وسِيْقَ سَـوْقاً إلى ضَـرِيْحٍ يُرْصَفُ بالرَّغْمِ فِيْـهِ رَصْفَا
وبَاتَ لِلدُّوْدِ فيـه طَعْمـاً ولِلْهَوامِّ العِطَاشِ رَشْفَـا
ولَيْتَـهُ لَمْ يَكُنْ رَهِيْنـاً بكل مَا قَـدْ هَفـاً وأهْفَـا

(فَصْــــلٌ)

وأمَّا مَشاهَدَةُ صُوْرَةِ مَلكِ الموت وما يَدْخُلُ في القَلْبِ منه مِن الرَّوْعِ والفَزَعِ فَهُوَ أمْر لا يُعَبَّرُ عَنْهُ لِعِظم هَوْلِهِ وفَضَاعَةِ رُؤْيَتِهِ ولا يَعْلَمُ حَقِيْقَةَ ذَالِكَ إلا اللهُ جَلَّ جَلالُهُ والذي يُشاهِدُهُ ويَطَّلِعُ عليه وإنَّمَا هِيَ أمْثالٌ تُضْرَبُ وحِكَايَاتٌ تُحْكَى .

ويُرْوَى أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال لِملكِ الموت هَلْ تَسْتَطِيْعِ أنْ تُرِيَنِي الصُّوْرَةَ الَّتِي تَقْبِضُ بها رُوْحَ الفاجِرِ فقال لا تُطِيْقُ ذَلِكَ قال بَلَى قال فأعْرِضْ عَنِي فأعْرَضَ عَنه ثم التَفَتَ .

فإذا هُوَ بِرَجُلٍ أسْوَدَ الثياب قائِم الشَعَرِ مُنْتِنَ الريح يَخْرُجُ مِن فيه ومَنَاخِرِه لَهَبُ النارِ والدُخان قال فغُشِيَ على إبْرَاهيم عليه السلام ثم أفاقَ وقد عَادَ مَلَكُ الموتِ إلى صُوْرَتِهِ الأولى .

فقال يا مَلَكَ الموت لَوْ لَمْ يَلْقَ الفاجِرُ عِنْدَ مَوْتِهِ إلا رُؤْيَة وَجهِكَ لكَانَ ذَلِك حَسْبُهُ « أيْ يَكْفي » .

ونَظَرَ بَعْضُهم إلىَ أناسٍ يَترَحَّمُونَ على مَيْتٍ فقال لو تَترَحَمُونَ على أنْفسِكُم لكَان خَيْراً لكمْ ، إنَّ مَيِّتَكُم قد مَرَّ به أهْوالٌ ثلاثةٌ ، وجْهُ مَلكِ الموتِ وقَدْ رَآهُ ، ومَرَارَةُ الموتِ وقَدْ ذَاقَهَا ، وخَوْفُ الخَاتِمة وقَدْ مَضىَ .

وقال رحمه الله تعالى :

يُرْوَى عن عبدالله بن عمر رضى اللهِ عنهما أنَّهُ قال إذا قَبَضَ مَلَكُ الموتِ رُوْحَ العَبْدِ قامَ عَلَى عَتَبَةِ بَابه ولأهَلْ البَيْتِ ضَجَّةٌ ، فمنهم الضَّارِبَةُ وجْهها ، ومنهم الناشِرةُ شَعْرَهَا ، ومنْهُمْ الداعية يَا وَيْلَهَا .

فَيَقُولُ مَلَكُ الموتِ فِيْمَ هَذا الجَزَعُ ، فَوَاللهِ مَا انْتَقَصْتُ لِأَحَدَ منكمْ عُمُراً ، ولا أَخَذْتُ لأَحَدٍ منكم رِزْقًا ولا ظَلَمْتُ أَحداً منكم حَقاً .

فإِن كانَتْ شِكَايَتُكُم وتَسَخُطُكُمْ عَلَيَّ فإِني واللهِ مأمُور ، وإِنْ كانَتْ على مَيِّتِكُمْ فإِنَّهُ مَقْهُور ، وإِن كانَتْ من ربكم فأنتم به كَفَرة ، ولِيْ فيكم عَوْدَةٌ ثم عَوْدَةٌ حَتَّى لا أُبْقِي منكم أحداً .

قالَ لَوْ سَـمِعُوا كلامَهُ ورَأَوْا مكانَهُ لَشُغِلْوا عَنْ مَيِّتِهِمْ وَبَكُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

شِعْرَا :

بَكَى لِأَنْ ماتَ مَيْتٌ من عَشيْرَتِهِ ... وقال وَاحَـرَبَا وصَاحَ يَا هَرَبَا
وباتَ فَوقَ حَشـاهُ لِلْأَسَى لَهَبٌ ... إِذَا أَرَادَ خُبُواً فارَ وَالتَهَبَـا
ولو رَآى بِصَحِيْحِ العَقْلِ حَيْنَ رَآى ... وكَشَّفَ اللهُ عنـه لِلْهَوى حُجُبَـا
لَمَا رَآى الدَّهْرَ مَيْتاً أَوْ أَحَسَّ بِهِ ... إِلاَّ بَكَى نَفْسهُ المِسْكِيْنُ وانْتَحَبَـا
ومَنْ رآى السُّمْرَ في جَنْبَيْهِ شَارِعَةً ... أَنَّى يَراها بجَنْبِ ناءَ أَوْ قَرُبَا
وَطَلْعَةُ الموتِ إِنْ تَطْلَعْ عَلى أَحَـدٍ ... أَرَتْهُ في نَفْسِهِ مِنْ هَوْلِهَا عَجَبَا

وقال أَحَدَ العلماء رحِمَهُ اللهُ في موعظة وعظها أَلاَّ أن الدنيا بَقَاؤُهَا قَلِيل ، وعَزِيْزهَا ذَلِيْل ، وغَنِيُّها فَقِيْر ، شَابُّهَا يَهْرِمْ ، وحَيُّها يَموت ، ولا يَغُرُكُمْ إِقْبالُهَا مَعَ مَعْرِفَتِكُمْ بصُرْعَةِ إِدْبَارِها والمَغْرُوْرُ مَن اغْتَرَّ بها .

أَيْنَ سُكَانُهَا الذين بَنَوْا مَرَابعَهَا وشقَّقُوْا أَنْهارَهَا وغَرَسُوْا أَشْجَارَهَا وأَقَامُوْا فَيْها أَيَّاماً يَسِيْرَةً وغَرَّتْهُمْ بصُحْبَتِهم وَغُرُّوْا بِنَشَاطِهِمْ فَرَكبُوا المَعَاصِيْ إِنَّهُم كانُوا واللهِ بالدُنْيا مَغْبُوْطين بالمال على كثرة المَنْعِ عَلَيْه مَحْسُوْدِيْنَ على جَمْعِهِ .

ما صَنَعَ التُرابُ بأَبْدَانِهِمْ والرَّمْلُ بأَجْسَامِهِم والدِّيْدَانُ بأَوْصَالِهم ولُحُومِهِم وعِظَامِهِم وإِذا مَرَرْتَ فَنَادِهِمْ إِنْ كُنْتَ مُنَادِياً وادْعُهُمْ إِنْ كُنْتَ لا بُدَّ دَاعِيًا .

ومُرَّ بِعَسْكَرِهم وانظر إلى تقارُبِ مَنَازِلِهِمْ وسَلْ غَنِيَّهُمْ ما بَقى مِن غِنَاه وَسَل فَقِيْرَهُمْ ما بقى مَن فَقْرِه واسْأَلْهُمْ عن الأَلْسُنِ التي كانُوا بهَا يَتَكَلَّمُون وعن الأَعْيُنِ التي كانُوا بها ينظرون وَسَلْهُمْ عن الاعْضَاءِ الرَّقِيْقَةِ .

والوُجُوْهِ الحَسَنَةِ والاجْسَاد النَّاعِمَة ما صَنَعَتْ بها الدِيْدَان .

مَحَتِ الألوان ، وأكَلَت اللُّحْمَان ، وعَفَّرَتِ الوُجُوْهُ ، ومَحَتِ الْمَحَاسِنَ ، وكَسَرَتِ الْفَقَار ، وأبانَتِ الأعضاءَ ، ومَزَّقَتِ الأَشْلاء قَدْ حَيْلَ بَيْنَهُم وبَيْنَ العَمَل وفارَقُوا الأَحِبَّة .

فَكَمْ مِنْ ناعِمٍ وناعِمَةٍ أصْبَحَتْ وجُوهُهُم بالِية ، وأجْسَادُهم مِن أعْناقِهِم بائِنَةٌ ، وأوْصالُهُمْ مُتَمَزِّقَةٌ ، وقد سَالَتْ الحَدَقُ عَلى الوَجَنَاتِ ، وامْتلأَتِ الافْوَاهُ صَدِيْدًا ، ودَبَّتْ دَوَابُ الأرضِ في أجْسَامِهِمْ ، وتَفَرقَتْ أعْضَاؤُهُم .

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوْا إلاَّ يَسِيْرًا حَتَّى عَادَتِ العِظَامُ رَمِيْمَا قَدْ فَارَقُوا الحَدَائِقَ فَصَارُوْا بَعْدَ السَّعَةِ إلى المَضَائِق قد تَزَّوجَتْ نِسَاؤُهُمْ وتَرَدَّدَتْ في الطُرُقِ أبْنَاؤُهُمْ .

فَمِنْهُمْ واللهُ الموسَّعُ لَهُ في قبره الغَضُّ الناعم فيه المُتَنَعِّمُ بِلَذَّاتِهِ ، فَيَا سَاكِنَ القَبرِ ما الذي غَرَّكَ في الدُنْيا هَلْ تَظُنُ أنَّكَ تَبْقَى أو تَبْقَى لَكَ أيْنَ دَارُكَ الفيحَاء ونَهْرُكَ المُطَّرِد وأيْنَ ثَمَرَتُكَ الحاضِرُ يَنْعُهَا وأيْنَ رِقَاقُ ثِيَابِكَ وأيْنَ كِسْوَتُكَ لِصَيْفِكَ وشِتَائِكَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يا مُغمض الوَالِد والأَخ وغَاسِلَهْ وَحَامِلَهُ يا مُدَلِّيهِ في قَبْرِهِ ورَاحِل عنه ، لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ نِمْت على خُشُوْنَةِ الثَّرَى ، وبأيِّ خَدَّيْكَ بَدَأ البلى ، يا مُجَاوِرَ الهَلْكَي صِرْتَ في مَحَلَّةِ الموت ، لَيْتَ شِعْري ما الذي يَلْقَانِيْ به مَلَكُ الموتِ عند خُروجِ رُوْحِي مِن الدنيا .

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ الثَّرى ما حَالَهُ أمْسَى وقد قُطِعَتْ هُنَاك حِبَالُهُ
أمْسَى ولا رَوْحُ الحَيَاةِ يُصِيْبُهُ يَوْماً ولا لُطْفُ الحَبِيْبِ يَنَالُهُ

أَمْسَى وحَيْداً مُوْحَشاً مُتَفَرِّداً مُتَشتِّتاً بَعد الجَمْيع عِيَالُهُ
أَمْسَى وقد دَرَسَتْ مَحَاسِنُ وَجْههِ وتَفَرَّقَتْ في قَبرِهِ أَوَصَالُهُ
واسْتَبْدَلَتْ منْهُ الْمَجَالِسُ غيْرَهُ وتُقُسِّمَتْ مِن بَعْدِهِ أمْوَالُهُ
هَلْ مِنْ قبيْلٍ تَعْلَمُونَ مَكَانَهُ سَلِمَتْ على حَدَثِ الزَّمانِ رِجَالُهُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ الابْرارِ ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ، وأمْنُنْ عَليْنَا بِالعَفْوِ وَالعِتْقِ مِنْ النَّارِ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجميْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

إعلم وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أنَّ تَقْصِيْر الأمِل مَعَ حُبِّ الدنيا مُتَعَذِّرٌ وانْتِظار الموت مَعَ الاكباب على الدنيا غَير مُتَيَسِر ، فإنَّ حُبَّ الدَنيا هو سَبَبُ طُوْلِ الأَمَل فيها ، والإكبابِ عليها يَمْنَعُ من الفكرةِ في الخُروج منها .

والجَهْلُ بِغَوَائِلِهَا وعَوَاقِبِهَا يَحْمِلُ الإرَادَةِ لَهَا والازْدِيَادِ منها ، لأنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ الكَوْنَ مَعَهُ ، والإزدِيَادَ منه ، ومَن كان مَشْغُوفاً بالدُنْيَا مُحِباً لَهَا حَرِيْصاً عليها قد خَدَعَتْهُ بِزُخْرفُهاَ وأَمَالَتْهُ برَوْنَقِهَا وسَحَرَتْهُ بِزِيْنَتِهَا ، كيف يُرِيْد مُفَارَقَتُهَا ، أم كيف يُحِبُّ مُزَايَلَتُهَا ، هذا أمْر ما أَجْرَى اللهُ العادة بِهِ ولا حدثنا عنه .

بَلْ تَجِدْ من كان على هذه الصفة أعْمَى عن طريق الخَير أصَمَّ عن دَاعِي الرشد ، قَلِيلَ الرَّأي سَيِءَ النظرة ، ضَعِيْفَ الإيمان ، لم تَتْرُكْ لَهُ الدنيا ما يسمع به ، ولا ما يَرَى الحَقَائِق بِوَاسِطَتِهِ .

إنما دِيْنُهُ وشُغْلُه وحَدِيْثُهُ دُنياه لَهَا يَنْظُرُ ولَهَا يَسْمَعُ ولَهَا يُعْطي ولَهَا يأخذ قد مَلأَتْ عَيْنَه وسَمْعَهُ .

فتجده قد طَوَّلَ أَمَلَهُ ومَدَّ المسافة بين يديه فإن كان شَاباً قال أنا صَغِير والوقت بين يدي وأسْعى وأبْنِي حتى أبلغ ستين سَنة أوْ سَبْعِين سنة .

وأنا مُحْتَاج إلى الزواج والزوجة تحتاج إلى نَفْقَةٍ وكسْوةٍ وإذا حَصَلَتِ الزوجة وجاء الأولاد احْتَاجوا إلى أشياء كثيرة وهذا إنما يَحْصُل بالمال وإنْ لم يَكُن مَال لم أصِلْ إلى المطلوب والمرغوب .

وإنْ قَعَدْتُ عن الطلب إحْتَجْتُ إلى الناس وإذا احْتَجْتُ إلى الناس اسْتُخِفَ بِي واحْتُقِرتُ كما قال القائل :

والمرءُ لا يَصْغُرُ مِقْدَارُهُ ... إلا إذا احتاج إلى الناس

آخر :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصَّدِيْق لِقَاؤُهُ ... وأخُو الحَوائِج وَجْهُهُ مَمْلُوْلُ
وأَخُوكَ مَنْ وَفَّرْتَ مَا في كَفِّهِ ... ومَتَى عَلِقْتَ بِهِ فأنْتَ ثَقِيْلُ

وانظرْ إلى فَلان قد اكْتَسَبَ ، وجَمَعَ واغْتَنَى وتَزوجَ ، وتَنَعَمَ وتَمتعَ وظَفِرَ بالمراد وَوَصِلَ إلى ما أَرَاد .

ولا يَخْطُرُ بِبَالِهِ فَيَقُولُ فُلَانٌ كان شاباً مِثْلِي وأَرَادَ مَا أَرَدْتُ وسَعَى فيما سَعَيْتُ فاختَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ ، ومَاتَ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى مُرَادِهِ .

ولا يَقُولُ فلانٌ طَلَبَ الدنيا واجْتَهَدَ في تحصيلها فلمَا اجْتَمَعَ له مَا اجْتَمَعَ سُرِقَ ما تَعِبَ به أو اعْتُدِي عليه فَغُصِبَ ما جَمَعَ وأُخِذَ منه بالقُوة .

ولا يقُولُ احْتَرَقَ مال فلان الذي تَعِبَ في تحْصِيْلِهِ أو غَرَقَ مالهُ في البحر

أو في رُجُوعه إلى بلده ، وانْصِرافِهِ إلى وَطَنِهِ هَلَكَ مَالُه فاخْتَل عَقْلُهُ بِسَبَبِ فقدان المال أو مات في طريقه ، ونحو ذلك مما يَجْرِيْ كَثيرا .

إنما يَعْرِضُ على نَفْسِهِ ويَجْرِي على خاطِرِه مَن بَلغ إلى إرَادَتِهِ وَوَصِلَ إلى أمْنِيَتِهِ ، لأن ذَلِكَ هو الذي غَلَبَ على قَلْبِهِ وشُغِفَ بِحَدِيْثِهِ .

فتراه يَسْعَى ويَرغَبُ ويَحْرِصُ ويَطْلُب ويَكِدُّ ويَزْفُرُ ويَلْهَث في حُدُوْرٍ وصُعُودٍ وطُلُوعٍ وهُبُوْط آناء الليل والنهار ولا يَقِرُّبه قَرَار ولا تَضُمُّه في أكثر الأوقات دار .

وكلما فَرَغَ مِن شُغْل أَخَذَ في شُغْل آخَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إليه بَلْ لا يَفْرَغُ مِن شُغْل إلاَّ عَرضَتْ لهُ أشْغَالٌ ولا يَصِلُ إلى أَمَل إلاَّ انْبَعَثَ له آمال فَيُمَنِّي نَفْسَهُ بالأماني الباطِلة ويُحَدِّثُهَا بالأحادِيْثِ الكاذِبَة .

فإنْ وَصِلَ إلى حَظِ مَن المال ونَصِيْبٍ وَافِرٍ مَن الكَسْبِ مما يُمْكنُ أنْ يَعِيْشَ به عُمُرَهُ كُلَّهُ أوْ طَعَنَ فى السِّنِ وقِيلَ لَهُ يا فُلانُ أرِحْ نَفْسَكَ ودَعْ جِسْمَكَ فَهَذا الذي عندك يَكْفِيْكَ .

قال يا أخِي لا تَقُلْ هذَا الليلُ والنهارُ بَيْنَ يَدَيَّ ولا يكْفِيْهمَا قليلٌ وَلَنْ يَدُوْمَا على أحَدٍ إلا أذْهَبَا مَا فِي يَدِهِ ، وأخذا ما كان عنده ، ولا يَدْرِيْ ما يكون .

والآفاتُ كَثِيْرةٌ والأمراضُ مُتَوَقَّعَةٌ والحَاجَةُ إلَى الناسِ صَعْبَةٌ لاسِيَّمَا مَعَ الكبَر فَيُقَيْمُ العُذْرَ لِنَفْسِهِ ويَطْلُبُ لَهَا الحُجَّةَ ويُوْجِدُ لَهَا الدليل ويُصَحِّحُ لَهَا بزَعْمِهِ التَّأويل .

فإنْ ذُكِرَ لَهُ الموتُ أوحُدِثَ بِمَوْتِ إنْسَانٍ ، قال بِلِسَانِهِ فَقَطْ : ﴿ إنا لِلهِ وإنا إليهِ رَاجِعُوْن ﴾ واللهِ إنا لَفِي غَفْلَةٍ عَظيمة ، وَوَاللهِ إنِي لَفِيْ غُرُوْر .

واللهِ إنَّها لَمَصُيْبَةٌ عَظيْمَةٌ لا يَدْري الإنْسان مَتَى يَهْلِك ولا مَتَى يُخْتَطَفُ ولا مَتى تَفْجَؤُهُ المنِيَّة وتَحِلُّ به الرزيَّة ، وَتَنْزِلُ به هذه المُصِيْبَةُ .

هَكَذَا قَوْلاً بِلَا فِعْلٍ وكلاماً بلا نِيَّةٍ ولو كان ذلك عن صِدْقِ نِيَّةٍ وصِحَّةِ طَوِيَّة لَظَهَرَ ذلك عليه وبَدَتْ مَخَايِلُهُ منه .

ورُبَّمَا وَعَدَ نَفْسَهُ ومَنَّاهَا وطَمَّعَهَا في التوبَة وَرَجَّاهَا ، وقال إذا جِئْتُ مِن هذه السفرة ، وإذا فَرَغْتُ مِن عمارة الدار ، أَوْ إذا جَمَعْتُ ما كانَ مُتَفَرِّقاً أو نحو ذلك لَتَفَرَّغْتُ لِلنَّظر لِنَفْسِي ، وقَدَّمْتُ ما أجِدُهُ في رمْسِي ، وكُنْتُ مِن دَارِي إلى المسجد ، ومِن المسجد إلى دَارِي ، ولا أَنْظُرُ في شيء ، ولا أَشْتَغِلُ في شيء .

فإذا جَاءَ مِن سَفَرِهِ تَجَهَّزَ لِسَفرٍ آخر ، وإذا فَرَغَ مِن عِمَارَةِ دَارِهِ نَظَرَ فِيمَا يَصْلَحُ لَهَا ، وإنْ جَمَعَ ماله نظر في تفْرِيْقِهِ في الوَجْهِ الذي يُنَمِّيْهِ .

وهكذا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ عن الأمْوَاتِ ولا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أنَّهُ يَمُوْتُ ، ويُشَيِّعُ الجَنَائِزَ ولا يتصوَّرَ أنَّ جَنَازَتَهُ تُشَيَّعُ .

ألَا وَكَمَا شَيَّعْتَ يَوْماً جَنَازَةً فأنْتَ كَمَا شَيَّعْتَهُمْ سَتُشَيَّعُ

ويُقَدِّرُ لِنَفسِهِ العَيش الطَّوِيْل ولا يُقَدِّرُ لَهَا الموتَ القَرِيْب ، قد غَلَبَ عليه السَّهْوُ وأطْبَقَهُ الجَهْلُ وسَدَتْ عليه الغَفْلَةُ طُرُقَ الإنَابَةِ وصَرَفَتْهُ عن أسْبَابِ الفِكْرَةِ .

شِعْرَا :

لِمَن وَرْقَاءُ بالوَادِي المَرِيْعِ تَشُبُّ بِهِ تَبَارِيْحَ الضُلُوعِ
على فَيْنَانَةٍ خَضْرَاءَ يَصْفُــوْ على أعْطَافِهَا وَشْيُ الرَّبِيْـعِ

تُرَدِدُ صَوْتَ باكِيَةٍ عليها رَمَاهَا الموتُ بالأَهْلِ الجَمِيْعِ
فَشَتَّتَ شَمْلَهَا وأَدَالَ مِنهِ غَراماً عَاثَ في قَلْبٍ صَرِيْعِ
عَجِبْتُ لَهَا تَكَلَّمُ وهْيَ خَرْسَا وتَبْكِي وهْيَ جَامِدَةُ الدُّمُوْعِ
فَهِمْتُ حَدِيْثَهَا وفَهِمْتُ أَنِّي مِن الخُسْرانِ في أَمْرٍ شَنِيْعِ
أَتَبْكِي تِلْكَ أَنْ فَقَدَتْ أَنِيساً وتَشْرِبُ منه بالكَأْسِ الفَظِيْعِ
وَها أَنَا لَسْتُ أبكِيْ فَقْد نَفْسِيْ وتَضْيِيْعِ الحَيَاةِ مَعَ المُضِيْعِ
ولَوْ أنِّي عَقَلْتُ اليَوْمَ أَمْرِيْ لَأَرْسَلْتُ المَدامِعَ بالنَّجِيْعِ
ألا يَا صَاحِ والشكْوَى ضُرُوْبٌ وذِكْرُ المَوتِ يَذْهَبُ بالهُجُوْعِ
لَعَلَّكَ أنْ تُعِيْرَ أَخَاكَ دَمْعاً فما في مُقْلَتَيْهِ مِن الدُّمُوْعِ

اللَّهُمَّ انْظُمْنَا في سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ المُتَّقِيْنَ الذِيْنَ أَعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جَنَانِكَ ، وأَدْخِلْنَا بِرَحمَتِكَ في دَارِ أَمَانِكَ وعافنا يا مَولَانَا في الدنيا والآخِرةِ مِن جَمِيْعِ البَلَايَا وأَجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِبِ فَضْلِكَ وَهِبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْياء مِنْهُمْ وَالمَيِّتِين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى الله على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

إعلم وفقنا الله وأَيَّاكَ وجميعَ المسلمين وأَيْقَظَ قُلُوْبَنَا وقُلُوبَكُم مِن الغَفْلَةِ وَرَزَقَنَا وإِيَّاكُم الإِسْتِعْدَادَ لِلنُّقْلَةِ مِن الدار الفَانِيَةِ إلى الدارِ الباقيةِ أنَّ مِن أَضَرِّ مَا عَلى الإنسانِ طُولُ الأمل .

ومَعْنَى ذلك اسْتِشعَارُ طُوْلِ البَقَاءِ في الدنيا حتى يَغْلِبَ على القَلْبِ ويَنْسَى

أنَّه مُهَدَّدٌ بالموتِ في كُلِ لَحْظَةٍ ولا بُدَّ منه وَكُلُ مَا هُوَ آتٍ قريْب فتأهَّبْ لِسَاعَةِ ودَاعِكَ مِن الدنيا وخُرُوجِكَ مِنْها .

وَكُنْ يا أخِي على حَذَر مِن مُفَاجأة الأجَل فإنكَ عَرَضٌ للآفاتِ وهَدَفٌ مَنْصُوْبٌ لِسِهامِ المنايَا وإنما رأْسُ مالك الذي يُمْكِنكَ أنْ وَفَّقَكَ اللهُ أنْ تَشْتَري بِهِ سَعَادَة الأَبَد هذا العمر .

قال الله جل وعلا : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يَتَذَكَّرُ فيه مَن تَذكَّر﴾ الآية فإيَّاكَ أنْ تُنْفِقَ أوْقَاتَ عُمُرِكَ وأيَّامَهُ وسَاعَاتِهِ وأنْفَاسَهُ فيما لا خَيْرَ فيه ولا مَنْفَعَةَ فيَطُوْل حُزْنُكَ ونَدَامَتُكَ وتَحَسُّرُكَ بَعْدَ مَوْتك .

واجْعَل ما يَلي مِن الآياتِ نَصْبَ عَيْنَيْكَ دَائِماً لِتَحُثُكَ على الاسِتعْدَادِ لِيَومِ المَعَادِ .

قال الله جل وعلا : ﴿ أنْ تقول نَفْسٌ يا حَسْرتَا على ما فرطَتُ في جَنب الله ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تجد كل نفسٍ ما عَمِلتْ مِن خير مُحْضرا وما عَملَتْ مِن سُوء تَودُ لو أنَّ بَيْنَها وبَيْنَه أَمَداً بَعِيْدَا ﴾ .

وقوله : ﴿ يَومَ ينظر المرء ما قدَّمْت يداه ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .

وقوله تعالى : وأنْفِقُوا مما رزقناكم مِن قبل أن يأتِي أحدكم الموت فيقول رَبي لولا أخَّرْتَني إلى أجل قريب فأصَّدقَ وأكن من الصالحين ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وأنْذرهم يومَ الحَسْرَةِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تَنْفَعُهَا شفاعَةٌ ولا هم ينصرون ﴾ .

وقال جَلَّ وعلا : ﴿ وأَنْذِرْهُم يَومَ الآزِفَةِ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجر كاظِمين ﴾ .

ونحو هذه الآيات التي مَرَّتْ عَلَيْكَ فإنْ كُنْتَ مؤمناً حقيقةً فاشْعِرْ قَلْبَكَ تِلْكَ المَخَاوف والأخطَار وَأكْثِرْ فيها التَّفكُرَ والإعْتِبَار لِتَسْلِبَ عن قَلْبِكَ الرَّاحَةَ والقَرارَ في هَذِهِ الدار فَتَشْتَغِل بالجدِّ والاجْتِهادِ والتَّشمِيرِ لِلْعَرْضِ على الجَبَّارِ .

وتَفَكَّر أوْلاً فيما يَقْرَعُ سَمْعَ سُكَانِ القُبور مِن شِدَّةِ نَفْخِ الصُوْر ، فإنها صَيْحة واحِدة تَنْفَرجُ بها القُبُور عن رُؤس الموتى ، فَيثورُوْنَ دُفْعَةً واحَدة .

قال الله جل جلاله : ﴿ فإنما هي زجرة واحِدة فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال جَلَّ وعلا : ﴿ ثم نُفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

فَتَصَوَّر نَفْسَكَ إنْتَبه يا أخِي لِهذا اليومِ العَظِيم الذِي لَيْسَ عِظمُه مما يُوْصَف ، ولا هَوْله مِمَّا يُكيِّف ، ولا يَجْرِي على مِقْدَارٍ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الدنيا ويُعْرَف بَلْ لا يَعْلم مِقِدَارَ عِظَمِهِ ولا هوله إلا الله تبارك وتعالى وما ظَنُكَ بِيَومٍ عَبَّرَ الله تبارك وتعالى عن بعض ما يكون فيه بشيء عظيم قال الله عَزَّ وجَل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شيء عظيم يومَ تَرَوْنَها تَذْهَل كل مُرْضِعَةٍ عما أرْضَعَت وتضع كل ذَاتِ حَمْلٍ حملها وترى الناس سكَارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ وماذا عسى أنْ يقول القائل فيه وماذا عَسَى أنْ يَصِفَهُ الوَاصِفُ به الأمْرُ أعْظَمُ والخَطْبُ أكبر والهول أشنع كما قال القائل :

وما عَسَى أنْ أقُولَ أوْ أقُومُ بِهِ   الأمْرُ أعظَمُ مِمَّا قِيْلَ أو وُصِفَا

وقال آخـر :

يَضْحَكُ المرءُ والبُكَاءُ أمَامَـهْ   ويَرُوْمُ البَقَاءَ والموتُ رَامَـهْ
ويَمْشِي الحَـدِيْثُ في كُلِّ لَغْـوٍ   ويُخْـلَى حَدِيْثُ يَومِ القِيَـامَةْ
ولأَمْـرٌ بَكَـاءُ كُلِّ لَبِيْـبٍ   وَنَفَى في الضَّلامِ عَنْهُ مَنَـامَهْ
صَاحِ حَدِّثْ حَدِيْثَهُ واخْتَصِرْهُ   فَمُحَـالٌ بأنْ تُطِيْـقَ تَمَـامَهْ
عَجِزَ الْوَاصِفُـوْنَ عَنْهُ فقَـالُوْا   لَمْ نَجِيءْ مِن بحَـارِهِ بِكضَـامَهْ
فلْتُحَدِّثْهُ جُمْلَـةً وَشَـتَاتـاً   ودَعِ الآن شَـرْحَـهُ ونِظَـامَهْ

فَتَصَوَّرْ نَفْسَكَ وقد خَرجْتَ مِن قَبْرِكَ مُتَغَيِّراً وَجْهُكَ مُغْبَرّاً بَدَنَكَ مِن تُراب قَبْرِكَ مَبْهُوْتاً مِن شِدَة الصَّعْقَة قال تعالى : ﴿ خشعاً أبْصَارُهُم يخرجون من الأجداث كأنهم جَرادٌ مُنْتَشِر مُهْطِعين إلى الداعي ﴾

وقال جل وعلا وتقدس : ﴿ يومَئِذٍ يَتبِعُون الداعيَ لا عوجَ لَهُ وخشعت الأصْوَاتُ للرحمن ﴾ الآية . وقال تعالى :﴿ واسْتمع يوم يُناد المنادي من مكان قريب يوم يَسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿ ونفخ في الصُور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنْسِلُون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فإذا نُقِرَ في الناقور فذالك يومَئِذٍ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ فَتَفكَّر في الخلائق ورُعْبهِم وذُلِّهم واسْتِكانتهم عند الانْبِعَاث خوفاً مِن هَذِهِ الصَّعْقَةِ وانْتِضَاراً لما يُقْضَى عليهم مِن سَعَادَةٍ أوْ شَقَاوَةٍ .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ من الأجْداث سِرَاعاً كأنهم إلى نُصُب يُوفِضُون خَاشِعَةً أبْصَارهم تَرهقهم ذِلَّةٌ ذلكَ اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ .

وقال تعالى : وجيء يومئِذٍ بِجَهنَّم يَوْمَئِذٍ يَتَذكَر الإنسان وأنَّى له الذكرى يَقُولُ يا لَيْتني قَدَّمْتُ لحياتي ﴾ .

شـــعرا :

كأني بِنفسِي على ضَعْفِهَا تَجَرَّعُ رَغْمــاً كُؤُوْسَ الرَّدَى
وقد كَشَفَ اللهُ عَنْهَا الغِطَا فَحَنَّتْ هُنَاكَ لِكَشْفِ الغِطَا
ومُدَّتْ إليها يَدٌ فظَّــةٌ لِفَظٌ غَلِيْظٍ شَدِيْدِ القُوى
فما شِئْتَ مِنْ نَفَسٍ ضَيِّقٍ وجَذْبِ عُرُوْقٍ وقَطْعِ الحَشَا
ونَفْسٌ تُسَاقُ أشَدَّ مَسَاقٍ فَتَضْغَطُ في لَهَوَاتِ الفَتَى
ولا دَافِعٌ يُرْتَجَى دَفْعُهُ ولا قَائِلٌ ما بِهِ يُفْتَدَى
وما لي انْتِصَارٌ وَلَا لِي قَرَار وَمَالِيَ مِن حِيْلَةٍ تُرْتَجَى
فَدَعْنِي ويَوْمِي أبْكِيْ لَهُ فَحُقَّ لِيَوْمِي بِطُوْلِ البُكَا

اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أعْمَارَنَا وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ أعْمَالَنَا يَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَى وَيَا دَائِمَ الإِحْسَانِ أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَأَنِلْنَا مِنْ كَرَمِكَ وجُوْدِكَ مَا تَقَرُّ به عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــــلٌ)

إعْلَمْ رحمنا الله وإياك وجميع المسلمين أنَّ في القَبْر وظُلْمتِهِ ، وضِيقِهِ وَوَحْشَتِهِ وَطَرْحِ الميتِ فيه غَيْرَ مُمَهَّدٍ وَلا مُوَسَّدٍ قد بَاشَرَ التُراب وَوَاجَهَ البِلَى وَتَركَ الدنيا وزيْنَتَها لِلْورى .

ونَبَذَ مِنْهَا ما كان في يَدَيْهِ في العَرَاءِ مَعَ حَبِيْبٍ تركَهُ وقَرِيْبٍ أسْلَمَه ، ونَصِيْرٍ أفْرَدَهْ ، وتَرَكَ كُلَّ ما كانَ عَهِدَه إن ذلك لَمِمَّا يَفْطِمُ النُفوسَ عن

الشهواتِ ، وإنْ كانتْ صَعْبَةَ الفطَام ، ويَقْطَعُهَا عنِ اللذاتِ ، وإنْ كان قَطْعُهَا بَعْيدَ المرام ، إذا بَحثَ عن الحقَيقةِ ونَظَرَ بعَيْنِ البَصْيرة وسَمِع النداء من قريب فبينا الإنسان في رَخاء العَيش مَسْرُوْراً فِيْمَا بَيْنَ يَدَيْهِ غَافلاً عن يَوم صَرْعَتِهِ قد فَتح لِلْهَوى بَابَهْ ، وأرْسَلَ عليه حِجَابَه ، ولم يُبَالِ بِمَنْ لامَهْ في ذلك أوْعَابَهْ ، إذْ هَجَمَتْ عليه المنيَّةُ ، فَهتَكَتْ أسْتارَهْ ، وكَسَفَتْ أنْوارَهْ ، وشتَّتْ شمْلَه وطَمَسَتْ أعْلَامَهْ وآثارَه .

فأخْرَجَتْهُ من ذَلِكَ القَصْرِ المَشيْد ، والمَنْزِلِ المُنَجَّدِ والمَتَاعِ المُزَخْرَف المُنَضَّدِ ، إلى حُفْرَةٍ مِن الأرْضِ ظَلْمَاءَ ضَيقَةَ الجَوانِبِ مَمْلُوةً مِن الرُّعْبِ والفَزَعِ والخَوفِ والقَلَقِ والذُعْرِ .

فَحَذَارِ حَذارِ وبِدَارِ بدار قبل أنْ تُصْرَعَ هذا المصْرَعِ فَيَفَتُّ في عَضُدِكَ ويُسْقَطُ في يَدكِ وتُرْمَى بِكَ عن أهْلك وَوَلَدِك في مَهْواةٍ تَزدحِمُ فيها الأهوال ، وتَنقَطعُ فيْهَا الآمال .

قَدْ جُمِعْتَ فِيْهَا جَمْعاً ورُصِعْتَ فيها رَصْعًا وتُرِكْتَ فيه لِلْهَوَامِّ والدِّيْدَان طَعْماً ، ومَرْعَى .

ولَعَلَّكَ مِمَّنْ يَرْغَبُ في تَبْدِيْلِ المنازِلِ وإن كانَتْ حِسَاناً ، ولا تَرى لِرَبِّكَ عَزَّ وجَلَّ فيها تفَضُلاً وامْتِنانا .

فانْظُرْ الآنَ كَم بين المَنزِلَتيْن وكَم قَدْر ما بَيْنَ الوَحْشتَيْن إلا أنْ يُدْرِكَكَ الله برحمتِهِ فَتَتَّسِعُ مِن القَبْرِ أقْطَارُه وتمتد فيه أنْوَارُه وأنْشَدُوا في هذا المعنى :

مَن كان يُوْحِشُهُ تَبْدِيل مَنْزِلِهِ ... وأنْ يُبَدَّل مِنْهَا مَنْزِلاً حَسَنَا
ماذا يَقُولُ إذَا ضَمَّتْ جَوَانِبُها ... عَلَيه واجْتَمَعَتْ مِن هَاهُنَا وهُنَا
ماذا يَقُولُ إذَا أمْسَى بِحُفْرَتِهِ ... فَرْداً وقَدْ فَارَقَ الأهْلِيْنَ والسَّكَنَا
هُنَاكَ يَعْلَمُ قَدْر الوَحْشَتَيْنِ وَمَا ... يلقَاهُ مَنْ باتَ باللذات مَرْتَهِنَا

يَا غَفْلَةً ورِمَاحُ الموتِ شَارِعةٌ والشَّيْبُ أَلْقَى برأسي نَحْوَهُ الرَّسَنَا
وَلَمْ أُعِدُّ مَكَاناً لِلنِّزَالِ وَلَا أَعْدَدْتُ زَاداً ولَكِنْ غِرَّةً ومُنَا
إنْ لَمْ يَجُدْ مَنْ تَوالَى جُودُهُ أبَدَا ويَعْفُ مَنْ عَفْوُهُ مِن طالِبِيْهِ دنا
فَيَا إلهِيْ ومُزْنُ الجُوْدِ وَاكِفَةٌ سَحّاً فَتُمْطِرُنَا الإِفْضَالَ والمِنَنَا
آنِسْ هُنَالِكَ يا رَحْمٰنُ وحْشَتَنَا وأَلْطَفْ بِنَا وتَرَفَّقْ عِنْدَ ذاكَ بِنَا
نَحْنُ العصَاةُ وأنْتَ اللهُ مَلْجَؤُنَا وأَنْتَ مَقْصَدُنَا الأَسْنَى ومَطْلَبُنَا
فكُنْ لَنَا عِنْدَ بأْسَاهَا وشِدَّتِهَا أَوْلَى فَمَنْ ذَ الذِي فيها يَكُونُ لَنَا

وكان عثمان رضى الله عنه إذا وَقَفَ على القبر يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَه فَقِيْلَ لَهُ تذكر الجنةَ والنارَ فلا تَبْكِي وتبْكِي مِن هذا .

فقال سَمْعْتُ رسولِ الله ﷺ يَقُولُ القَبْرُ أوَّلُ مَنْزِلٍ من مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فإنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فما بَعْدَهُ أيْسَرُ منه ، وإنْ لَمْ يَنْجُ منه فما بَعْدَهُ أشَدُّ منه .

وسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول « ما رَأيْتَ مَنْظراً قطُ إلاَّ والقَبْرُ أفْظَعُ منه » أخْرَجَهُ الترمذي .

وأخرج ابن أبي الدنيا والحكيم الترمذي وأبُو يَعْلى والحاكم في الكُنى والطبراني في الكبير وأبو نُعَيم عن أبي الحجاج الثمالِي قال قال رسول الله ﷺ : « يقول القَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فيه أَلَمْ تَعْلَم ويْحَكَ أني بَيْتُ الفِتْنَةِ ، وبَيْتُ الظُلْمَةِ ، وبيْتُ الوَحْدَة ، وبَيْتُ الدود ، يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي إذ كُنْتَ تَمُر عَليَّ فَدَّاداً » .

فإن كان مُصْلِحاً أجاب عنه مُجْيْبُ القَبْرِ فيقول أرَأيْتَ إن كان يأمر بالمعروف ويَنْهى عن المنكر فيقول القَبْرُ إني إذا أتَحْولُ عليه خَضِراً ويَعُود جَسَدُهُ نُوراً وتَصْعَدُ رُوحُه إلى الله تعالى .

وجُدَ مَكْتُوبٌ على قبر :

ما حَالُ مَن سَكَنَ الثّرى مَا حَالُهُ ... أمْسَى وَقَدْ صُرِمَتْ هُنَاكَ حِبَالُهُ
أمْسَى ولا رُوْحُ الحَيَاةِ يُصِيبُهُ ... يَوْماً وَلَا لُطْفُ الحَبِيْبِ يَنَالُهُ
أضْحَى وحِيْداً مُوْحَشاً مُتَفَرِّداً ... مُتَشِتِّتاً بَعْدَ الجَمِيْعِ عِيَالُهُ
أمْسَى وَقَدْ دَرَسَتْ مَحَاسِنُ وجْهِهِ ... وَتَفَرَقَتْ في قَبْرِهِ أوْصَالُهُ
واسْتَبْدَلَتْ مِنْهُ المَجَالِسُ غَيْرَهُ ... وتُقِسِّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أمْوَالُهُ
هَلْ مِنْ قبيل تَعْلَمُونَ مَكَانَهُ ... سَلِمَتْ على حَدَثِ الزَّمان رِجَالُهُ

ومَكْتُوبٌ على قبرٍ آخَرَ :

يا باكي المَيْتِ على قَبْرِهِ ... إمْضِ وَدَعْهُ سَوْفَ تَسْلَاهُ
مَنْ عَايَنَ الموتَ فذاك الذي ... لَمْ تَرَ مِثْلَ الموتِ عَيْنَاهُ
كَمْ مِن شَقِيْقٍ لم يَجِدْ غَيْرَ أنْ ... أغْمَضَ مَن يَهْوَى وسَجَّاهُ
وكَمْ مُحَبٍ لِحَبِيْبٍ إذَا ... سوى عليه اللَّحْدَ خَلَّاهُ

اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنَا وعَلَانِيَتَنَا وتَسْمَعُ كَلَامَنَا وتَرَى مَكَانَنَا لَا يخْفَى عَلَيْكَ شيْءُ مِن أمْرِنَا نَحْنُ البُؤَساءُ الفُقَراءُ إليكَ المستغيثونَ المستجيرونَ بِكَ نَسْأَلك أنْ تُقَيِّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصُرُهُ ويُزِيلُ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والمُنْكَراتِ ويُقِيْمُ عَلَمَ الجِهَادِ ويَقْمَعُ أهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ والعِنَادِ ونَسْأَلُكَ أنْ تَغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــــلٌ)

وقال رحمه الله :

فَكَمْ رَأى مِن إنْسَانٍ قَدْ أعَدَّ ثوباً لِيَلْبِسَهُ فَكَانَ كَفَنَهُ ، وكَمْ رَأى مِمَّنْ يَبْنِي دَاراً لِيَسْكُنَها فكانَتْ قَبْرَهُ ، وكم رأى إنسان يُحبُّ الولد ويَشْتَهِيْهِ ،

وَيَسْأَلِ اللهَ أنْ يَرْزُقهُ وَلَداً فلما جَاءهُ الولَدُ صَارَ ضَرراً عليه في دِيْنِهِ ودُنياه .

ورُبَّمَا قَتَل أبَاهُ أو أمَّهُ اسْتِعْجَالاً لِلْمِيرَاثِ ، ورُبَّمَا صَارَ عَاراً على وَالِدَيْهِ ونِقْمَة وخِزْياً كما تَرى وتَسْمَعُ ونَعُوذُ باللهِ مِن أمْر لا يُسْتَخَار اللهُ فِيه .

وتَجدُ كَثِيراً مِمَّنْ ضاعَتْ أعْمَارُهُم فُرُطًا إذا ذُكِرَ بالتوبةِ والرجوعِ إلى الله أو خُوِّفَ بالعُقُوبةِ أو بالموتِ ، قال دَعْنَا مِن هَذِهِ المُقَبِّضَاتِ ، وحَدِّثنا بالمُبَشِّراتِ والمُفَرِّحَات ، هذا عَصْرُ الشَّباب واللَّذات .

وإذا كَبِرنا تُبْنَا إلى الله ، والأمْر واسِعٌ ، ولا يَرَى المسكِين أنه قد شَيَّعَ جَنَائِزَ إلى الآخرة أصْغَرَ منه في السن ، وأحْدَثَ منه بالرحم عهدا ، قد غَرَّتْهُ الشَّيْبَةُ وخَدَعَتْهُ الصِّحَةُ ، وتَمَكَّنَتْ منه الغِرَّةُ بما عِنْدَهُ مِن الثَّروةِ والقُوة .

ولا يَتَأمَلُ ويُفكِّر وَيَعْتَبِر فَيَرى أنَّ الموتَ في الشبابِ أكْثَر ، وحَادِثهُ فيهم أسْرَع وأن الذي يَمُوْتُ في الهَرَمِ قَلِيْل وكَثِيرٌ من الناس يَمُوتُ بَغْتَةً في السَّكْتَةِ القَلْبِيَّةِ وأنَّ الزمان كُلُه وَقْتٌ لِلْمُوتِ ، ولا يَخْتَصَ مِن الأرضِ بمكانٍ دُوْنَ مَكان ، ولا مِن الزمانِ بِوَقْتٍ دُوْنَ وَقْتٍ ، ولا يزل هذا المغرور مُنْكَباً على شَهَواتِهِ مُدَاوماً على لَذَّتِهِ غافِلاً عن يَوم صَرْعَتِه ، حتى يُؤْخَذَ بما تأخِر وما تَقَدَّمَ ، ويُلْقَى صَرِيْعاً لِلْيَدَيْنِ ولِلْفَم إلى حَيْثُ ألْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ .

وفي هذا وأمْثاله قال الشاعر :

تالَ أُموراً خابَ مَن نالَهَا ثُم سَعَى يَطْلُبُ أمْثالَهاَ
وَوَاقَعَ الذَّنْبَ فَمـا هَالَـهُ والباذِخاتُ الشمُ قد هَالَهَا
وقال هـذه سَـنَواتُ الصِّبَا فاسْحَبْ على رِسْـلِكَ أذْيَالَهَا
ومَرَّ يَسْتَهْتِـرُ في عُصْبَـةٍ مِن شَكْلِهِ تَصْحَبُ أشْكَالَهَا
أوْلَى لهُ ثَمَّتَ أوْلى لَـهُ وتِلْكُمُ العُصْبَـةُ أوْلى لَهَـا

ثم اعلم رَحِمَنَا اللهُ وإيَّاكَ والمسلمين أنَّ حُب الدُنْيَا في القلب رَاسِخ وإِخْرَاجُهَا مِنْهُ صَعْبٌ جداً إلا لِمَن عَصَمَهُ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ ، والنَّفسُ إلى الدنيا أَمْيَلُ وهْي بِها أشْغَفُ ، وفي طَلَبِهَا أَهْلَكَ وعن طَرِيقِ الرُشْدِ أَبْعَدُ وَأَصْرَف ، واسْمَعْ إلى ما قِيْلَ في الدنيا :

هِيَ المُشْتَهى والمُنْتَهَى ومَعَ السُهَى أَمَانيٌ منها دُوْنَهُنَّ العَظَائِمُ
وَلَمْ تُلْفِنَا إلاَّ وفِيْنَا تَحَاسُدٌ عَلَيْهَا وإلاَّ فِي الصُدُورِ سَخَائِمُ

وقال الآخر :

يُسِيءُ أمْرؤٌ منا فَيُبْغَضُ دَائِماً وَدُنْيَاكَ مَازَالَتْ تُسِيءُ وتُومَقُ
أَسَرَّ هَوَاهَا الشَّيخُ والكَهْلُ والفَتى بِجَهْلٍ فَمنْ كُلِّ النَّواظِر تُرْمَقُ
وما هِيَ أَهْلٌ أن يُؤَهَّلَ مِثلُهَا لِوُدٍ وَلَكِنَّ ابنَ آدَمَ أَحْمَقُ

وقال الآخر :

لِسَانُك لِلدُّنْيَا عَدَوٌ مُشَاحِنٌ وقَلْبُكَ فيها لِلسَانِ مُبَايِنُ
وما ضَرَّهَا ما كان مِنْكَ وقد صَفَا لَهَا مِنْكَ وِدٌ في فُؤَادِكَ كَامِنُ

وإنَّ حُبَّ الدنيا لَهُوَ الدَّاءُ العُضَال ، الذي أهْلَكَ النسَاءَ والرجال وأفْسَد كثيْراً مِن الأَعْمَال ، إلاَّ أنْ تَأْتِي العِنَايَةُ الإِلهِيَّةُ ، فَتَصْرِفُ الإنسانَ إلى النظر الصحيح ، وتَحِمْلُه على الطريق المُسْتَقِيم .

فَيَرَى بَعْينِ الحَقِيْقَةِ وصَحِيْحِ البصيرة إنَّهُ لابُدَّ مِن الموت ، وأنَّهُ يُدْفَنُ تَحْتَ أطْبَاقِ الثرى ، ويُرْمَى به في ظُلماتِ الأرضِ ، ويُسَلَّطُ الدُوْدُ على جَسَدِهِ ، والهَوَامُّ على بَدَنِهِ ، فتَأْخذه مِن قَرْنه إلى قَدَمِهِ .

وقد عدم الطبيب واسلمه القريب ، وتركه الصديقُ والحَبيْبُ والقَرِيْب ، وأتاه منكرٌ ونكِير ، ولم يَجِدْ هُنَاكَ أنِيْساً إلاَّ عَمله .

أسْلَمني الأهلُ بِبَطْنِ الثّرَى وانْصَرَفُوا عَنِي فَيَا وحْشَتَا
وغَادَرُوْني مُعْدِماً يَائِساً ما بِيَدِيْ اليومَ إلاَّ البُكَا
وكُلُّ مَا كانَ كأَنْ لَمْ يَكُنْ وكَان ما حَاذَرْتُهُ قَدْ أتَى
وذَاكُم المجْمُوعُ والمقْتَنَى قد صَارَ في كَفَي مِثْلَ الهَبَا
ولَمْ أجِدْ لِي مُؤْنِساً هَاهُنَا غير فُجُورٍ كَانَ لِي أوْ تُقى
فَلَوْ تَرَانِي أوْ ترى حَالَتِي بَكَيْتَ لِيْ يَا صَاحَ مِمَّا ترى

اللَّهُمَّ نَجّنا برحمتِكَ مِن النارِ وعافِنا من دارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وأدْخِلنا بِفَضْلِكَ الجنةَ دارَ القَرَارِ وعامِلْنَا بِكَرَمِكَ وَجُودِكَ يا كريمُ يا غفارُ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ مِنْهم والميتينَ برحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ وصَلّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

وأمَّا الدُنيا فَيَنْظُرُ إليها فإنْ كان مَلِكاً نظر إلىَ مَن تَقَدَّمَهُ مِن المُلُوكِ وما فَعَلَ الموتُ بهم كَيْفَ فَرَّقَ جُمُوعَهم وشَتَّتَ شَمْلَهُمْ وأقْفَرَتْ مِنهم قُصُوْرُهُم وعمَرَتْ بِهم حُفَرُهم وقُبورُهُم .

وَكذلكَ إنْ لم يَكُنْ مَلكاً وكان مِن أصْنَافِ الناسِ وَصِفَاتِهم في تَقَلُّبِ الدنيا بهم مَعْلُومَةٌ وأنَّهُ لَيْسَ مِن إنسان إلاَّ وَلَهُ نَصيبٌ مِن الكَدَرِ والهَمِّ يَقِلُّ عند إنْسَان وَيَكْثُر عند آخر .

فإذَا أخَذَ الإنسانُ نَفْسَهُ بِهَذِه الأفْكَارِ وعَرَضَ عليها هذا الإعْتِبَارَ أثَّر عَلَيهِ هَذا وأعْرَضَ عن الدنيا وَلَمْ يَلْتَفِتْ إليْهَا إلاَّ بِمقْدَارِ ما يَقِيْتُهُ ، وتَذَكَّرَ المَوْتَ ويَخاف فَجْأتَه ولَمْ يأمَنْ بَغْتَتَهُ وهَجْمَتَهُ وَصَدْمَتَهُ وصَرْعَتَهُ .

والله سبحانه وتعالى وَلِيُ التوفيق بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ لا رَبَّ غَيْرُه ولا مَعْبُودَ سِوَاه .

وقال رحمه الله : واعْلَمْ أنَّ مَن كان مُنْتَظِراً لِعَقَابٍ أنْ يَنْزِلَ بِهِ من أَمْيرِ بَلْدَتِهِ فإنَّهُ لا يَزَالُ مُتَأَلِمَ القَلْبِ مَشْغُوْلَ النَفْسِ .

فانَّ مَن تُوعِدَ أن يُضْرَبَ مائَةَ سَوْطٍ فإنَّه أشْغَل قَلْباً مِمَّنْ تُوعِّدَ أنْ يُضْرَبَ عَشَرةَ أسْوَاط .

ومَن تُوعِدَ أنْ يُقْطَعَ مِنْهُ جَارِحَه أكْثَر تَوجُّعاً مِمَّنْ تُوعد أنْ يُضْرَبَ مَائَةَ سَوْط ومَن تُوعِدَ أن يُضْرَبَ عُنُقُهُ أشَدَّ خَوْفاً مِمَّنْ تُوعِدَ أنْ يُقْطَعَ أحَدَ جَوَارِحِهِ يده أوْ رِجْلِهِ أوْ نَحْو ذَلِكَ .

وَمَامِنَّا مِن أحَدٍ إلاَّ وقَدْ تُوُعِدَ بالقَتْلِ لأنَّ الموتَ قَتْلٌ في الباطِنَ كالخَنْق فَقَدْ بان لكَ أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا يَنْتَظِرُ القَتْلَ يَنْتَظِرُ ملَكَ يَثِبُ عليه فَيَقْبِضُ رُوْحَهُ .

فلو كُشِفَ للناسِ عن أبْصَارهم فرأوا الموتِ حِيْنَ يَهْجَمُ عَلَيْكَ وشاهدوه في الباطن حينَ يأخذ رُوْحَكَ لما كان بَيْنَهُ وبيْنَ إنْسانٍ يَقْتُلُكَ في الظَّاهِرِ فَرْقٌ إلاَّ أنَّ الإنْسانَ يَحْتَاجُ إلى آلةٍ يَقْتُلُ بِهَا من سَيْفٍ أوْ سكِيْنٍ أو نحوهما ومَلَكُ الموتِ لا يَحْتَاجُ إلى شيءٍ من ذلك .

واعلم أن شِدَّةِ سَكَرَاتِ الموت لا يَعْرفُها على الحَقِيْقَةِ إلاَّ الله جَل وَعَلَا ومَن ذَاقَهَا ، ومَن لَم يذقها فإنما يَعْرِفُهَا إما بالقياسِ على الآلام التي أدْرَكَهَا وإما بالاسْتِدْلَال بأحْوَالِ الناسِ في النزع على شِدَّةِ مَا هُمْ فيه ، والنَّزْعُ عِبَارَةٌ عن مُؤْلم نَزَلَ بِنَفْسِ الرُوحِ فاسْتَغْـرَقَ جَمِيْعَ أجْزَائِهِ .

فأَلَم النَّزْعِ يَهْجِمُ على نَفْسِ الرُوْحِ فَيَسْتَغْرِقُ جَمِيْعَ أجْزَائِهِ ، فإن

المَنْزُوْعَ والمجذُوْبَ مِن كُلِّ عِرْقٍ مِن العُرُوْقِ وعَصَبٍ مِن الأعْصَاب وجُزْءٍ مِن الأجْزَاء وَمَفْصِلٍ مِن المَفَاصِلِ ومن أصْلِ كل شَعْرَةٍ وبَشَرةٍ مِن رَأْسِهِ إلى قَدَمِهِ فلا تَسْأَل عن كَرْبه وَألَمه .

ولا تسأل عن بَدَنٍ يُجْذَبُ منه كل عِرْقٍ مِن عرُوقِهِ ، ولو كان المَجْذُوْبُ عِرْقا واحِداً لَكَانَ ألَمُهُ عَظيماً فكَيْفَ والمجَذُوْبُ نَفْسُ الرُوْحِ المُتَألِّم ، ولَيْسَ هُوَ مِن عِرْقٍ واحِدٍ ، بَلْ مِنْ جَمِيْع العُرُوْق .

ثم يَمُوت كُلُ عُضْوٍ من أعْضائِهِ تَدْرِيْجاً فَتَبْرُدُ أوَّلاً قَدَمَاهُ لِفراغِهَا مِن الرُوْحِ ، ثم سَاقَاهُ كَذَلِكَ ، ثم فَخِذَاهُ ولِكُلِّ عُضْوٍ سَكْرةٌ بَعْدَ سَكْرة ، وكُرْبَةٌ بَعْدَ كُرْبَةٍ حَتى يَبْلُغَ بِهَا الحُلْقُومَ .

فَعِنْدَ ذلك يَنْقَطِعُ نَظَرُهُ عن الدنيا وأهْلِهَا، ويُغْلَقُ دُوْنَهُ بابُ التَّوبَةِ ، وتُحْيطُ به الحَسْرَةُ والنَّدامَةُ والهُمُوم ، والغُمُومُ ، وسَائِرُ الأحْزَان .

نَسأل الله العلي العظيم الحي القيوم ذا الجلال والاكرام أنْ يَلْطَفَ بنا ويتداركنا بعَفِوه وغُفْرانِهِ وجُوْدِهِ وإحْسَانه .

ويُرْوَى أنَّ العَبْدَ يَقُولُ لِمَلَكِ الموتِ عِنْدَ الموتِ يا مَلَكَ الموتِ أخِّرْني يَوْماً أسْتَعْتِبُ فيه وأتُوبُ إلى رَبِي وأعْمَلُ صَالحاً فيقولُ لَهُ فَنِيتِ الأيامُ فلا يَوْمْ فَيَقُوْلُ أخِّرْني سَاعِةً فَيَقُــول فَنِيتِ الساعاتُ فلا سَاعَةْ .

فَتَبْلُغُ الرُوْحُ الحُلْقُومَ فَيُؤْخذُ بكَضْمِهِ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ فَيُغْلَقُ بابُ التَّوبَةِ دُوْنَهُ ، ويُحْجَبُ عَنْهَا وتَنْقَطِعُ الأعْمالُ وتُطْوَى الصُحُفُ وتَتِمُّ الأوْقَاتُ ويَبْقى عَدَدُ الأنْفاس يَشْهَدُ فيها المُعَايَنَة عِنْدَ كَشْفِ الغِطَاء .

وشَيَّعُوْهُ جَمَاعَاتٌ تَطُــوْفُ بِهِ   تُعْشِى العُيُونَ بِمَرْآهَا وَكَثْرتِها

مِنْ بَيْنِ باكٍ يَكُفُّ فَيْضَ دَمْعَتِهِ ... وبَيْنَ صَارخةٍ تُفْزِعْ بصَرْخَتِهَا
حَتَّى أتوا حُفَراً إزَاءَ بَلَدَ تِهِمْ ... فَغَادَرُوْهُ بِهَا رَهْناً لِوَحْشَتِهَا
وما دَرَوْا هَلْ تَلَقتْهُ بِنَفْحَتِهَا ... دَارُ المَقَامَةِ أَوْ نارٌ بِلَفْحَتِهَا
ثُمَّ انْثَنَوْا نَحْوَ أمْوَالَ قَدْ أحْرَزَهَا ... لِلنَّائِبَاتِ فَحَازُوْهَا بِجُمْلَتِهَا
وَذَاكُمُ البَائِسُ المَغْرُوْرُ ما دَفَعَتْ ... عَنْهُ القَضَاءَ ولا أسْتَشْفَى بَلَذَتِهَا
لَكِنْ تَحَمَّلَ منها كُلَّ فَادِحَةٍ ... مِنَ الكَبَائِرِ لا يِقْوَى لِعِدَّتِهَا
ومابَكَتْهُ السَّماوالأرضُ حِيْنَ مَضَى ... ولا الرِّيَاضُ نَضَتْ أثْوَابَ زَهْرَتِهَا

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأعْمَالَ ، ونَجِّنَا من جميعِ الأهْوَالِ ، وأمِّنَا مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزِلْزَالْ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْياءِ منهم والميتين بِرَحْمتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْــــلٌ)

وقال رحمه الله تعالى :

واعلم أنَّ الناسَ في قِصَرِ الأمِلِ وطُوْلِهِ مُخْتَلِفُون وفي دَرَجَاتِهِ مُتَفَاوِتُون ، فمنهم مَن يُؤَمل أنْ يَعِيْشَ أقْصَى ما يَعيْشُهُ إنْسان مِمَّنْ شَاهَدَ أو سَمِعَ بِهِ في زَمَانِهِ .

ولو كان الإخْتِيَارُ إليه لَما مَاتَ أبَدَا حُباً منه لِلدُّنْيَا وكَلَفاً بها وتَلَذُذاً بالبَقَاءِ فيها وهيهات لَيْسَ للإنسانِ ما تَمنَّى ولا يُدْرِكُ كل ما فيه تَعَنَّى .

ما كُلُ مَا يَتمنَّى المرءُ يُدْرِكُه ... تَجْرِي الرِيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

وغايةُ هذا أنْ يَتمنَّى طُولَ العُمرَ ويَوَدُّ لو يَبْقَى الأحقاب الكثيرة من الدهر .

قال الله جل وعلا في قَوْم كانُوا كذلك : ﴿ يَوَدُّ أحَدُهُم لو يعمر ألفَ سنة ﴾ .

ويمكن أن يكون هؤلآء تمنوا لأنَّهمُ لم يَتَحقَّقْ في الآخِرةِ لهُم رَجَاء لكُفرِهم بمُحمَّد ﷺ وتَكذِيبِهم لَهُ مَعَ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ عِنْدهم لَكُنْ حَمَلَهُمْ بَغْيُهُم وحَسَدهم لَهُ على الكفرِ بِهِ والانكارِ لِدعْوَتِهِ وهذه الآية نَزَلَتْ في اليَهُوْد .

ومنهم مَن يُؤمل أنْ يَعِيْشَ سِتِين سَنة وسَبْعين وأكثر مِن ذلك ومِن الناسِ مَن لا يَجاوز أملُهُ يَوْمَهُ ورُبّمَا كان أمُلهُ أقْصَر من ذلك .

بَلْ منهم مَن يَكُون الموتُ نصْبَ عَيْنَيْهِ يَتَوقَّعُهُ مَعَ الأنفاسِ أنْ يَثِبَ عَلَيه .

كان بعضُ الصَّالحين يَقُول ما أحْسِبُني إلاَّ رُجلا قد أقعدَ لِيُقْتَلَ وجُرِدَ السَّيفُ عليه ومُدَّتْ عُنُقُه فهو يَنتَظِرُ أنْ يُضرَبَ فَيُلْقَى رَأسُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وأنشد بعضهم :

وألْبَسْ لِهَذا المَوتِ جُبَّةَ خائِف ... قد ضَاقَ عنه مَسْلَكٌ ومَقَامُ
لاتَأْمَنَّنْ عليكَ مِن إقْدَامِهِ ... فلهُ عَلَى هَذَا الوَرَى إقْدَامُ
واكْحُلْ جُفُونَكَ بالرُّقَادِ لأجْلِهِ ... فالسُّهْد حِلٌ والمَنَامُ حَرَامُ
إلا غِرَاراً كالغِذَاءِ تَنَالُهُ ... لَوْلَا الضَّرُوْرةُ ما وُجِدَتْ تَنَامُ
ومِن العَجَائِبِ أنْ تَراهُ نائِماً ... مَنْ طَالِبُوهُ سَاهِرُوْنَ يَنَامُ

وقال وآخر : قد مُدَّ في عُمُره وطُوِّلَ في أَمَلِهِ فازْدَادَ في كَسَلِهِ ودَخل الوَهَنُ في عَمَلِهِ .

ورجُلٌ آخَرُ قد جَعَلَ التَّقْوَى بِضاعَتَه ، والعِبَادَةَ صِنَاعَتَه ، ولم يَتَجَاوَزْ بأمَلِهِ سَاعَتَه بل جَعَلَ الموتَ نَصْبَ عَيْنَيْهِ ومِثالا قائِماً بَيْنَ يَدَيْهِ وسَيْفاً مُصْلَتاً عليه .

فهو مُرْتَقِبٌ له مُسْتَعِدٌ لِنُزُوْلِهِ لا يَشْغَلُهُ عن إرْتِقَابِهِ شاغِلٌ ، ولا يَصْرِفُهُ عن الاسْتِعْدَادِ له صَارِف قد مَلأ قلبه خَوْفاً وَوَجَلا وعُمُرَهُ عَمَلاً ، وَعَدَّ يَوْماً يَعيْشُهُ بَقَاءً ومَهَلاً وغنِيْمَةً تَمْلأُ نَفْسَهُ سُروراً وفرحاً وجَذَلا .

لا زْدِيادِهِ فيه مِن الخَيرِ وادَّخارِه فِيْه مِن الأَجْرِ واكْتِسَابِهِ عند اللهِ عز وجل مِن جَمِيْلِ الذِكْرِ ، ومِثْلُ هذا قَدْ وَفَّقهُ اللهُ ، فَرَفَعَ التَّوْفِيْقُ عليه لواءَهُ ، وأَلْبَسَهُ رِدَاءَهُ ، وأَعْطاهُ جَمَالَهُ .

فانْظُرْ رحِمكَ الله أيَّ الرَّجُلَين تُرِيْدُ أنْ تَكُوْنَ وَأيُّ العَمَلَيْنِ تُرِيْدُ أنْ تَعْمَلَ ، وبأيِّ الرِّدَاأَيْن تُرِيْدُ أنْ تَشْتَمِل ، وبأيِّهمَا تُرِيْدُ أنْ تتزَيَن وتتجَمَّلَ .

فَلَسْتَ تَلْبَسُ هُنَاكَ إلاَّ مَا لَبِسْتَ هُنَا ولا تُحْشَرُ هُنَاكَ إلا فيما كُنْتُ فيه هُنَا إنْ صَلاحٌ فصَلاحٌ ، وإنْ فُجُورٌ فَفُجُور .

ولَعَلَّ هذا تأْوِيلُ الخَبَرِ المَرْوي عن النبي ﷺ أنه قال : « يُبْعَثُ الميتُ في ثِيَابِهِ التي مَاتَ فيها »لأنه قَدْ صَحَّ أنَّ الناسَ يُبْعَثُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاَ فَتَفكَّرْ في هَذا المشهدِ العَظِيم ، واليوم العَقِيم ، يَومٌ يُجمَعُ فيه كُلُّ الخَلْقِ ، قال الله جل وعلا : ﴿ يوم يَجْمَعُكُم ليوم الجمع ذلك يَوْمُ التغابن ﴾ ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ ذلك يوم مَجْمُوعٌ له الناس ﴾ وقال النبي ﷺ : « يَجْمَعُ اللهُ الأولين والآخرين في صَعيد واحِدٍ فَيُسْمِعُهم الداعِي ويَنْفُذُهُم البَصَرُ » .

فتفكر يا أخي في أيِّ أرضٍ تَسَعُهُمْ ، وأيُّ مكان يَحْمِلُهُمْ ، فكَيْفَ ويُجْمَعُ الوُحُوشُ النافِرةُ والهَوامُ الشارِدَةُ ، وكَيْفَ يُحْشَرَوْنَ مَن بَيْنِ مَحْمُول قَدْ مُدَّ ظِلالُ الرحمةِ عليه ، وجُمِعَتِ الأماني بَيْنَ يَدَيْه .

وقسمٌ آخر يُحْشرون على وجوههم قال الله عَزَّ مِن قائِل : ﴿ونَحْشُرهُم يَوْمَ القِيَامة على وجوههم عُمْياً وبُكْماً وصُمَّاً مأواهم جَهَنَّم كُلما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيْرا ﴾ .

يُحْشر الخلائق على أرض بَيْضَاء قاعٍ صَفْصَف مُسْتَوِيَة قال تعالى :

﴿ ويسألونَكَ عن الجبال فقل يَنْسِفُها ربي نَسْفَا فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيْهَا عِوَجاً ولا أمْتَا ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يُحْشَرُ الناسُ يَومَ القِيَامَةِ على أرضٍ بَيْضَاء عَفْرَاء كَقُرصِ النَّقِي لَيْسَ فيها عَلم لأحَد » أرْضٌ مُسْتوية لا جَبَلُ فيها ولا أكَمَة ولا رَبْوَة ولا وَهْدَة أرضٌ بَيْضَاء نَقِيَّة .

قال الله جَل وَعلا : ﴿ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسمواتُ وبَرَزُوا لله الواحد القهار ﴾ .

فَتَفَكَّرْ يَا أخِي ما دُمْتَ في قَيدِ الحَيَاةِ في هذا المَجتمع العظيم ، وهذا الهَوْلِ الأشْنَع والخَطْبِ الأفدحِ ، الأقطعِ الأبْشَعِ .

وفكِّرْ فِيْمَـنْ يَحْضرُهُ ويَشْهَـدُه ويُعَانِيـه ويُبْصرُه ، وكيْـفَ يَقومُـون على أقْدَامِهم ، ويَشْخصُوْنَ بأبصارهم .

قال تعالى : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخَصُ فيه الأبْصَار ﴾ وأنْتَ مَعَهم في ضِيْقِ مَقَام ، وطُوْل قيام قد جُمِعُوْا .

وقـد أنْشَقَتِ السمـاءُ فَوَقهُـم ، وطَـاشَتِ الألْبَـاب ، وذَهَـلت الأوهـام ، وتَحَيَّرت العُقُول ، وتَلَجْلجَتِ الألْسُن ، فلم يَدْرِ قائلٌ ما يَقُول .

قال الله جل جلاله وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤهُ : ﴿ وأنْذِرْهُم يوم الآزفة إذ القلوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كاظِمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وخَشَعَت الأصواتُ لِلرحمٰن فلا تسمع إلا هَمْسَا ﴾ .

فَيَالَهُ مِن هَوْلٍ تَنْهَدُّ منه الجبالُ ، فكَيْفَ الرجال ، وَيالَهُ مِن خَطْبٍ تَنْشَقُّ

منه السماءُ ، فكيْفَ الأحْشَاء ، ففكِّرْ يَا أخِي فيما يَشُـقُّ سَمْعَكَ مِنْ ذَلِكَ ، وما يَخْلَعُ قَلْبَكَ مِن الرَّوْع .

وكَيْفَ بِكَ إذَا رَأيْتَ الشمسَ مُكَوَّرَةً فَذَهَبَ ضَوْؤُهَا ، والنجومَ قَدْ طُمِسَتْ فَمُحِيَ نُورُهَا ، وَزَالَتْ عن مَوَاضِعِها ، واشْتَبَكَ الناسُ بَعْضُهم في بَعْضٍ ، وصَارُوْا كالفراشِ الْمَبْثُوث ، وكانَتْ الجبالُ كالعِهْنِ المَنْفُوش ، وقَامَت الملائكةُ على أرْجَاء السماء ، وأحَاطَت بالخلائق مِن كُلِّ الأرْجَاءِ .

والناسُ حُفَاةٌ عُراةٌ غُرْلاً كما خُلِقُوا ، قال الله جل وعلا : ﴿ ولَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكم أولَّ مَرة ﴾ .

فيالَهُ مِن يَومٍ يَخْتَلطُ فيه الرجال والنساء ، وقد أُمِنُوا أنْ يَنْظر بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ .

وفي مُسْلِمٍ من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : سَمِعْتُ رسُول الله ﷺ يقول : « يُحْشَر الناسُ يومَ القيامة حُفَاةً عُراةً غُرلا قُلْتُ يا رسول الله النساءُ والرجالُ جَمَيْعاً يِنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قال يا عائشة الأمر أشَدُّ مِن أنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ .

فَيَالَكَ مَن هَوْلٍ مَا أعْظَمَهُ ، ومَن كَرْبٍ ما أشَدَّه ،ومَن خطْبٍ مَا أبْشَعَهُ فإيَّاكَ أنْ تَسْتَبْطِىءَ هَذَا اليوم أوْ تَسْتَبْعِدَهُ ، فما سَيْرَك إليهِ بِبُطْىء ، ومَا هَو منكَ بِبَعِيْد ، وإنْ طال المدَى وامْتَدَّتِ الغَايَةُ فَكُلُ ما هُوَ آتٍ قَرِيْب .

قال الله جل وعلا : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُم ﴾ وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يـرون ما يوعدون لم يَلْبثوا إلاَّ سَاعَةً من نهار ﴾ وقال تعالى : ﴿ كأنهم يَومَ يَرَوْنَهَا لم يَلْبثُوا إلا عَشِيَّةً أوْ ضُحَاهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ كم لَبِثْتُم في الأرض عَدَدَ سِنِين قالوا لَبِثْنَا يوماً أوْ

بَعضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ العَادِيْن ﴾ وقال تعالى : ﴿ إذْ يَقُول أمْثَلُهُمْ طَرِيْقَة إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ يَوْمَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجْرِمُوْنَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ .

شِعْـرا :

يا آمِنَ السَّاحَةِ لا يُذْعَرُ ... بَيْنَ يَدَيْكَ الفَزَعُ الأكْبَرُ
وإنَّمـا أنْتَ كَمَحْبُـوْسَةٍ ... حُمَّ رَدَاهَـا وَهْيَ لا تَشْـعُرُ
والمَرْءُ مَنْصُـوْبٌ له حَتْفُـهُ ... لَوْ أنَّهُ مِن عَمَـهِ يُبْصِـرُ
وهَذِهِ النَّفْـسُ لَهَـا حَاجَـةٌ ... والعُمْـرُ عن تَحْصِـيْلِهَا يِقْصُرُ
وكُلَّمَا تُزْجَـرُ عَن مَطْـلَبٍ ... كَانَتْ بِهِ أكْلَـفَ إذ تُزْجَـرُ
وإنَّمـا تَقْصُـرُ مَغْـلُوْبـةً ... كالمـاءِ عن عُنْصُـرِهِ يِقْصُـرُ
ورُبَّمَا أَلْقَتْ مَعَـاذِيْرَهَـا ... لَوْ أنَّهَا وَيْحَـهَا تُعْـذَرُ
وناظِرُ المـوتِ لَهَـا نَاظِـرٌ ... لَوْ أنَّهـا تَنْـظُرُ إذْ يَنْـظُرُ
وزَائِرُ المـوتِ لَهُ طَلْعَـةٌ ... يُبْصِرُهَا الأكْمَـهُ والمُبْصِـرُ
وَرَوْعَةُ المَـوْتِ لها سَـكْرَةٌ ... ما مِثْلُهَـا من رَوْعَـةٍ تسْـكِرُ
وبَيْنَ أطْبَـاق الثَّرى مَنْـزِلٌ ... يَنْزِلُهُ الأعْظَمُ والأحْقَـرُ
يَتْرُك ذُوْ الفَخْـرِ بِهِ فَخْـرَهُ ... وَصَـاحِبُ الكِـبْر بِهِ يَصْـغرُ
قَدْ مَلأَتْ أرْجَـاءَهُ رَوْعَـةٌ ... نكِـيْرُهَا المعـروفُ والمُنكَـرُ
وبَعْـدُ ما بَعْـدُ وأعْظِمْ بِهِ ... مِن مَشْهَـدٍ ما قَـدْرُهُ يُقْـدَرُ
يُرْجَـفُ مِنْهُ الوَرَى رَجْفَـةً ... يَنْهَـدُّ منها المَلأُ الأكْـبَرُ
ولَيْسَ هَـذَا الوَصْفُ مُسْـتَوْفِياً ... كُلَّ الذي مِن وَصْـفِهِ يُذْكَرُ
وإنَّمَا ذا قَطْـرَةٌ أرْسَـلَتْ ... مِنْ أبْحُـرٍ تَتْبَعُهَـا أبْحُـرُ
وقَدْ أتَاكَ الثَّبْتُ عَنْـهُ بمَا ... أخْبَرَكَ الصـادِقُ إذْ يُخْـبِر
فاعْمَـلْ لَهُ وَيْكَ وإلاَّ فَلا ... عُـذْرَ وَمَا مِثْلُكَ مَنْ يُعْـذَرُ

اللَّهُمَّ اعْطِنَا مِنْ الخَيْرِ فَوْقَ مَا نَرْجُوْ واصْرِفْ عَنَّا مِنْ السُّوْءِ فَوْقَ مَا نَحْذَرُ . اللَّهُمَّ عَلِّقْ قُلُوْبَنَا بِرَجَائِكَ وَاقْطَعْ رَجَاءَنَا عَمَّنْ سِوَاكَ . اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ عُيُوْبَنَا فَاسْتُرْهَا وَتَعْلَمَ حَاجَاتِنَا فَاقْضِهَا كَفَى بِكَ وَلِيًّا وَكَفَى بِكَ نَصِيْرًا يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ سَبِيْلِ عِبَادِكَ الأَخْيَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْـــلٌ)

قال أَحد العُلماء إعْلَم أنَّ الموتَ هَائِلٌ وخَطرَهُ عَظِيمٌ وَغَفْلَةُ الناسِ عَنْهُ لِقِلَّةِ فِكْرِهم فيه ، وقِلَّةِ ذكرهم لهُ ، والذي يَذْكُرُهُ لَيْسَ يَذْكُرُ بِقَلْبٍ فارِغٍ بَلْ بِقَلْبٍ مَشْغُولٍ بالدنيا وشَهَوَاتِهَا وَلا يُفِيْدُ ذِكْرُ الموتِ في اللِّسَانِ فَقَطْ .

فالطَّرِيْقُ النافِعُ بإذن اللهِ أنْ يُفَرِّغَ العَبْدُ قَلْبَهُ عن كُلِّ شَيءٍ إلاَّ عَن ذِكْرِ الله وما والاه وذكر المَوْتِ الذي هُوَ بَيْنَ يديه قال جل وعلا : ﴿ إن في ذلك لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهو شَهِيْد ﴾ .

فإذا أَرَدْت أنْ يُؤَثِّر فِيكَ ذِكْرُ الموتِ فاجْعَلْ نَفْسَكَ كالذي يُرِيْدُ أنْ يُسَافِر إلى مَحَل خَطِرٍ أو إلى مَفَازَةٍ مُخْطِـرة أوكالذي يُرِيْدُ أنْ يَرْكَبَ في البَحْرِ أَوْ في أي مَرْكَبٍ مِنَ المَرَاكِبِ الخَطِرَةِ فإنَّهُ لا يَتَفكَّرُ إلاَّ فِيْه .

فإذَا بَاشَرَ ذِكْرُ الموتِ قَلْبَكَ فَيُوْشِكُ أنْ يُؤَثِّر فِيْهِ وعندَ ذَلِكَ يَقِلُ فَرَحُكَ وسُرُوْرُكَ وَيَنْكسِرُ قَلْبُكَ ويَضْعُفُ اهْتِمامُكَ بالدنيا وشُؤُنِها ويَقْوَى اهْتِمَامُكَ للآخِرة .

وأَنْجَحُ الطُرقِ لِذَلكَ بإذْنِ اللهِ تَعَالَى أنْ تَتَذَكَر أَقْرانَكَ في السِّنِ الذينَ

قصمَهُمْ هَادِمُ اللّذاتِ ومُشتّتِ الشمل ومُفرّق الجماعَاتِ فتذكّرْ مَوْتَهُم ومَصَارِعَهُم تَحْتَ التراب ، وتَذكّرْ صُوَرَهُمْ ومَناصِبَهُمْ وأحْوالَهُم ؛ وأزْواجَهُم ، وأوْلادَهُم ، ومَساكنهُم مِن بَعْدِهم وتَفكّرْ وتَأمّلْ كَيْفَ مَحَا التُرابُ أجْسامَهُمْ وحُسْنَ صُوَرِهِم وكَيْفَ تبَدّدَتْ أجْزاؤهُم في قُبورِهِم وكَيْف أرْمَلُوا نِسَاءَهُم وأيْتَمُوا أوْلَادَهُمْ وضَيّعُوا أمْوَالَهُمْ الّتي قاسوْا عَلَى جَمْعِهَا الشّدائد والمَشَقّاتِ وتَنَعّمَ بها غَيْرُهُم مِمّنْ جاءَتْهُم عَفْواً بلا تَعَبٍ والحسابُ والتّبَعاتُ على المسكينِ الذي ضَيّعَ نَفْسَهُ وصارَ كما قَالَ القائِلُ :

وذِيْ حِرْصٍ تَرَاهُ يُلِمُّ وَفْراً   لِوَارِثِهِ ويَدْفَعُ عن حِمَاهُ
كَكَلْبِ الصّيْدِ يُمْسِكُ وهْو طَاوٍ   فَرِيْسَتَهُ لِيأْكُلَهَا سِوَاهُ

وتفكّرْ كَيْف خلتْ مِنْهُمُ المساجدُ والمجالِسُ وانْقطَعَتْ آثارُهُم فَمَهْمَا تَذكّرْتَ أولئك الزُمَلاء والأسَاتِذَةَ والمشايخَ والأقارب والجيران وتَصوّرْتَ حالَهُ ومَوْتَهُ وتَفرّقَهُمْ وتذكّرتَ نَشاطَهُم ، وتَرَدُّدَهُم ، وأمَلُهم في البَقا لِلْعَيْشِ ونِسْيَانَهُمْ لِلْموت وانْخِدَاعِهم لِلنّفْسِ وإبْلِيْسَ والهوى والدُنْيَا ورُكُوْنِهِمْ إلى القُوّةِ والشّباب ونَسْيَانِهم لِلْموتِ وانْخِدَاعِهِمْ بِمُوَاتَاتِ الأسْبَاب ، وَمَيْلِهم إلى الضّحِكِ واللّهْو ، وغَفْلَتِهم عَمّا بَيْنَ أيْدِيْهِمْ من الموت العَظِيم والهَلاك السَّرِيْع .

وَيتفكّر كَيْف أنّهُم كانُوْا يَتَرَدّدُون ، وَالآنَ قَدْ تَهَدّمَتْ أجْسَادُهُم وَتَفرقَتْ أوْصَالُهُمْ ، وأنهم كانُوا يَتَكَلّمونَ وَيَمْرَحُون ، والآنَ أكَلَ الدُوْدُ اللِّسَانَ وتَفرقَتْ في القَبْرِ المفَاصِيلُ والأسْنَان .

ويَتفكّر كَيْفَ أنّهُم كانُوا يَجْمَعُوْنَ لِأنْفُسِهِمْ ما يَكْفِي لِعِدّةِ سِنِيْن في وَقْتٍ لم يَكُنْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الموتِ إلاّ زَمَنٌ يَسِير ، وهم في غَفْلَةٍ عَمّا يُرادُ بهم حَتّى إذا جاءَهُم الموتُ في وقْتٍ ما أحْتَسَبُوا لَهُ وَانْكَشَفَ لَهُمْ صُوْرَةُ المَلَك وقَرَعَ أسْمَاعَهُم النِدَاء إما إلى الجنة وإما إلى النار .

فَعِنْدَ ذَلكَ يَنْظُرُ في نَفْسِهِ وأنَّهُ مِثلَهُم وغَفْلَتُه كَغَفْلَتِهم وستكُون عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَتِهم قال أبُوْ الدرَّدَاء إذا ذكَرْتَ المَوْتَى فَعُدَّ نَفسَكَ كَأَحَدِهِمْ .

قال ابن الجوزي عَجِبْتُ مِن عاقلٍ يَرى اسْتيْلاءَ الموتِ علَى أقرَانِهِ وجيْرانِهِ كَيْفَ يَطِيْبُ عَيشهُ خُصوُصاً إذا عَلَتْ سَنُّهُ .

وَاعَجَباً لِمَنْ يَرى الأفاعِي تَدِبُّ إليه وهُوَ لاَ يَنْزَعِجُ أَمَا يَرى الشيخُ ذَبِيْبَ الموتِ في أعْضَائه ثم في كُلِ يَومٍ يَزِيد الناقِص .

ففي نظر العاقل إلى نَفْسِهِ ما يُشْغِلُه عن النظر إلى خَراب الدنيا وفراق الإخوان وإن كان ذلك مُزْعِجًا .

ولَكِنْ شُغْلُ منَ احْتَرَقَ بَيْتُهُ بَنَقْلِ مَتَاعِهِ يُلْهِيْهِ عن ذِكْرِ بُيُوتِ الجيران انْتهى ا هـ .

فَملاَزَمَة هَذِهِ الأفكار وأمَثَالِهَا مَعَ دَخُول المقابر والمَستشفيات والمُصتَوْصَفَاتِ ، وعِيَادَةِ المَرْضَى هو الذي يُجَدِّدُ ذِكْرَ الموت في القَلْب حَتَّى يَعْتَادُهُ ويَغْلِبُ عَلَيْهِ بحَيْثُ يَصِيْرُ نَصْبَ عَيْنَيْهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُوْشِكُ أنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ ويَتَجَافى عن دَارِ الغُرُوْر .

وإلاَّ فالذكْرُ باللِّسَانِ فَقَطْ قَلِيْلُ الفائِدةِ وَ الجَدْوَى في التَّحْذِيْرِ والتَّنْبِيْهِ ومَهْمَا طَابَ قَلبكَ بشيءٍ مِن الدُنْيَا مَالٍ أوْ وَلَدٍ أوْ عَمَارَةٍ أوْ فُلَّةٍ أوْ قَصرٍ أوْ بُسْتَان .

يَنْبَغِي لَكَ أن تَتَذَكَّرَ في الحَالِ أنَّكَ مُفَارِقُه فِرَاقٌ لا يُشْبِهُهُ فِراق .

نَظَرَ ابنُ مُطِيْع ذَاتَ يوم إلى دَارِهِ فأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا ثُم بَكَى وقال واللهِ لوْلاَ الموت لَكُنْتُ بِكِ مَسْرُورًا ولَوْلاَ ما نَصِيْرُ إليه مِن ضِيْقِ القُبورِ لَقَرَّتْ بالدنْيا أعْيُنُنَا ثم بَكَى بُكَاءً شَدِيْداً حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُهُ .

عَادَ الحسنُ البَصْرِيُ عَلِيْلاً فوافَقَهُ في سَكَرات الموتِ ورأى تَقَلُّبَهُ وشِدَّةَ ما نَزَلَ بِهِ فلما رَجَعَ إلى دَارِهِ قَدَّمُوْا لَهُ طَعَاماً فقال عَلَيْكُم بِطَعامكم وشَرَابِكُم فإني رَأيْتُ مَصْرَعاً لا بُدَّ لِيْ مِنْهُ ولا أزَالُ أعْمَلُ حَتَّى أَلْقَاهُ .

وكان يَقُولُ إيَّاكَ والاغْتَرار فإنَّكَ لَم يَأتِكَ من الله أمان وإنَّ الهَوْلَ الأعْظَمَ والأمْرَ الأكْبَرَ أمَامَكَ وإنَّكَ لا بُدَّ أن تَتَوسَّدَ في قَبْرِكَ ما قَدَّمْتَ إنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وإنْ شَرَاً فَشَرٌ .

فاغْتَنِم المُبَادَرَةَ في المُهْلِ وإيَّاكَ والتَّسويف بالعمل فإنَّكَ مَسْؤُول فَأَعِدَّ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا وكان يقول ابْنَ آدَمَ إنَّ المُؤْمِنَ لا يُصْبِحُ إلاَّ خَائِفاً وإن كانَ مُحْسِنًا ولا يصْلَحُ إلاَّ أنْ يكُونَ كذلك ولا يُمْسِي إلاَّ خَائِفًا وإن كان مُحْسنًا ولا يَصْلَحُ إلاَّ أن يكُونَ كذلك لِأَنَّهُ بَيْنَ مَخافتين ذَنْبٌ مَضَى لا يَدْرِيْ ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدري ما الله مُبْتَلِيْهِ فيه .

فَرَحِمَ اللهُ عَبْداً فَكَّرَ واعْتَبَرَ واسْتَبْصَرَ فأَبْصَرَ ونهى النفس عن الهوى ابن آدَمَ إنَّ الله جَلَّتْ قُدْرَتُه أمَرَ بالطاعة وأعَانَ عَلِيها ولم يَجْعَلْ عُذْراً في تركها ونهى عن المعصية وَأَغْنَى عنها ولَمْ يُوَسِّع لِأَحَدٍ في ركُوْبِهَا .

ولَقَدْ رُوِي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وتعالى يَقُولُ يومَ القِيَامَةِ لِآدَمَ أنْتَ اليوم عَدْلٌ بَيْنِي وبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ فَمَنْ رَجَحَ خَيْرُهُ على شَرِّه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَلَهُ الجنة حتى تَعْلَم أني لَا أُعَذِّبُ إلاَّ ظَالِما .

وكان يَقُولُ ابن آدَمَ لا يَغُرنَّكَ مَنْ حَوْلك مِن السِّبَاعِ العادِيَةِ إبنِكَ وحَلِيْلَتِكَ ، وخَادِمِكَ ، وَكَلَالتِكَ ، أمَّا ابْنُكَ فَمِثْلُ الأسَد يُنَازِعُكَ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ ، وأمَّا حَلِيْلَتُكَ فَمِثْلُ الكَلْبَةِ في الهَرِيْرِ والبَصْبَصَةِ ، وأمَّا خَادِمُكَ فَمِثْلُ الثَعْلَبِ في الحِيْلَةِ والسَّرِقَة ، وأمَّا كَلاَلُتُكَ فَوَاللهِ لَدِرْهَمٌ يَصِلُ إليهم بَعْدَ مَوْتِكَ أحَبُّ إليهم مِنْ أنْ لَوْ كُنْتَ أعْتَقْتَ رَقَبَةً .

فايَّاكَ أنْ تُوْقِرَ ظهْرَكَ بِصَلاحِهم ، فإنَّما لَكَ منهم أيَّامُكَ القَلائِل وإذَا وَضَعُوْكَ في قَبْرِكَ انصرفوا عَنْكَ ، فَصَفَّروا بَعْدَكَ الثِيَاب ، وضَرَبُوْا الدُفُوف ، وضحكُوْا القَهْقَة ، وأنْتَ تُحَاسَبُ بما في أيْدِيهْم فقدم لِنَفسِكَ أيْ تَزَوَّد مِن الخَيْر .

شِعْـرا :

فَعُقْبَى كُلِّ شيءٍ نَحْنُ فيـهِ مِن الجَمْعِ الكثيف إلَى شَتَاتِ
وَمَا حُزْنَاهُ مِن حِـلٍّ وَحُـرْمٍ يُوَزَّعُ في البَنِيْنِ وفي البَنَـاتِ
وفِيْمَـنْ لَم نُؤَهِّلْـهُمْ بِفَلْـسٍ وَقِيْمَـةِ حَبَّـةٍ قَبْـلَ المَمَـاتِ
وتَنْسَـانا الأحِبَّـةُ بَعْدَ عَشْرٍ وَقَدْ صِرْنَا عِظَـاماً بَالِيَـاتِ
كَأنَّا لَمْ نُعَـاشِـرْهُمْ بِوُدٍّ ولَمْ يَكُ فِيْـهِمُ خِـلٌّ مُوَاتِ

• قال رحمه الله تعالى لَمَّا أُهْبِطَ آدَمَ أوحَى اللهُ إليهِ أرْبعٌ فيهن جماع الأمْر لك ولِوَلَدِكَ مِن بَعْدِكَ .

أمَّا وَاحِدةٌ فلي
وأمَّا الثانيةُ فَلَكَ .
وأمَّا الثالثة فَبَيْنِي وبَيْنَك .
وأمَّا الرابعة فَبَيْنَكَ وَبَيْنَ الناسِ .
أمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُني ولا تُشْرِكُ بِي شيئاً .
وأمَّا الَّتِي لَكَ فَعَمَلُكَ أجْزِيْكَهُ أفْقَرَ مَا تكونُ إليه .
وأمَّا الَّتِي بَيْنِيْ وبَيْنَكَ فَعَلَيْكَ الدُعَا وعليَّ الإجابة .
وأمَّا الَّتي بَيْنَكَ وبَيْنَ الناس فَتُصَاحِبُهُم بما تُحِبُ أنْ يُصَاحِبُوكَ به .

أربعُ مَن حَصَلَ عَلَيها واجْتَمَعَتْ عنده اجْتَمَعَ له خير الدنيا والآخرة

امرأةٌ صَالحةٌ عَفِيْفَةٌ ، وصَدِيقٌ مُوَافِقٌ عَلى طاعةِ اللهِ ، وَمَالٌ من حَلال واسِع يُنْفِقُه في مَرَاضِي اللهِ ، وعَمَلٌ صَالِحٌ .

أُوصَى رسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً فقال هَيِّءْ جَهَازَكَ ، وقَدِّمْ زَادَكَ ، وكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، فإنَّه لا خَلَفَ مِنَ التقوى ، ولا عِوَضٌ مِن اللهِ عَزَ وجَلَّ ا هـ .

مِن كل شيءٍ إذَا ضَيَّعتَه عَوضٌ   وما مِن اللهِ إنْ ضَيَّعْتَه عَوَضُ

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل يُوْصِيْه عَلَيْكَ بِذِكْرِ الموت فإنه يَشغَلكَ عما سواه وعليكَ بكثرة الدعاء فإنك لا تَدْرِيْ مَتَى يُسْتَجَابُ لَكَ وأكثرِ مِن الشكْرِ فإنه زيادة » .

شِعْــرا :

كأني بِنَفْسِي وهْيَ في السَّكَراتِ   تُعَالِجُ أنْ ترْقَى إلى اللَّهَوَاتِ
وقَدْ زُمَّ رَحْـلي واسْتَقَلَّتْ رَكائِبِي   وَقَدْ آذَنَتْنِي بالرحِيْلِ حُدَاتِي
إلَى مَنْزل فيه عَذابٌ وَرَحْمَةٌ   وَكَمْ فِيهِ مِن زَجْر لَنَا وعِظَاتِ
ومِنْ أَعْيُنٍ سَالَتْ عَلَى وَجَنَاتِهَا   ومِنْ أوجُهٍ في التُربِ مُنْعَفِرَاتِ
ومِن وَارِدٍ فيه عَلى مَا يَسُرُّهُ   ومِن وَارِدٍ فيه عَلَى الحَسَرَاتِ
ومِن عَاثِرٍ ما أنْ يُقَالَ لَهُ لَعَا   على مَا عَهِدْنا قَبْلُ في العَثَرَاتِ
ومِن مَلكٍ كانَ السُّرُوْرُ مِهَادُهُ   مَعَ الآنَسِاتِ الخُرَّدِ الخَفِـرَاتِ
غَدَا لا يَذُوْدُ الدُّوْدَ عَن حُروجْهِهِ   وكان يَذُوْدُ الأسْدَ في الأَجماتِ
وعُوِّضَ أُنْساً مِن ضِبَاءِ كِنَاسِهِ   وأرَامِـهِ بالـرُّقْشِ والحَشَـرَاتِ
وصارَ بِبَطْنِ الأرضِ يَلْتَحِفُ الثَّرى   وكانَ يَجُرُّ الوَشْىَ وَ الحَبَراتِ
وَلَمْ تُغْنِهِ أَنصَارُهُ وجُنُــودُهُ   ولم تَحْمِهِ بالبِيضِ والأَسَـلاَتِ
وَمِمَّا شَجَانِي والشُجُوْنُ كَثِيْرَة   ذُنُوبٌ عِظَامٌ أَسْبَلَتْ عَـبَرَاتِ
وَأَقْلَقَنِي أنّي أَمُوْتُ مُفَـرِّطاً   عَلَى أنَّنِي خَلَّفْتُ بَعْدُ لِذَاتِي

وَاغْفَلْتُ أمْرِي بَعدهُم مُتَشَبِطاً فَيَاعَجَباً مِنِّي ومِن غَفَـلاتِي
إلَى اللهِ أشْكُوْ جَهْلَ نَفْسِي فإنَّها تَمِيْلُ إلى الرَّاحَـاتِ والشَّهَوَاتِ
ويا رُبَّ خِلٍّ كُنْتُ ذَاصِلَةٍ لَهُ يَرَى أنَّ دَفْنِي من أجَلِّ صلاتِي
وَكُنْتُ لَهُ أُنساً وشَمْساً مُنِيرَةً فَأَفْرَدَنِي في وحْشَةِ الظُلُماتِ
سَأضْرِبُ فُسْطَادِي على عَسْكَرِ البِلَى وأرْكُزُ فِيْهِ لِلـنُّزْلِ قَنَـاتِي
وَأرْكَبُ ظَهْـراً لا يَؤُوْبُ بِرَكِبٍ ولا يُمْتَـطَى إلاَّ إلَىَ الهَلَـكَاتِ
ولَيْسَ يُرَى إلاَّ بِسَـاحَةِ ظَاعِنٍ إلى مَصْـرَعِ الفَرْحَاتِ والنَّزَحَاتِ
يُسَيِّرُ أدْنَي النَّاسِ سَيْراً كَسَيْرِهِ بِأرْفَعِ مَنْعِيّ مَن السَّـرَوَاتِ
فطَوراً تَرَاهُ يَحْمِـلُ الشُمَّ وَالرُّبَا وطَوْراً تراهُ يَحْمِـلُ الحَصَيَـاتِ
وَرُبَّ حَصَـاةٍ قَدْرُهَا فَوْقَ يَذْبُلٍ كَمقْبُوْلٍ ما يُرْمَى مِن الجَمَـراتِ
وكُلُ صَغِيْر كانَ لِلَّهِ خَالِصـاً يُرَبَّى على ما جَاءَ في الصَّدَقَاتِ
وكُلُ كَبِيْرٍ لا يَكُوْنُ لِوَجْهِـهِ فَمِثْلُ رَمَادٍ طَارَ في الهَبَـوَاتِ
ولَكِنَّهُ يُرْجَى لِمَنْ مَاتَ مُحْسِـناً وَيُخْشَى عَلَى مَنْ مَاتَ في غَمَـراتِ
وَمَا اليَوْمُ يَمْتَازُ التَّفَـاضُل بَيْنَهُم ولكِنْ غَداً يَمْتَازُ في الدَّرَجَـاتِ
إذَا رُوِّعَ الخَاطِيءِ وَطَارَ فُؤَآدُهُ وَأفرَخَ رَوْعُ البِّرِ في الغُرُفَاتِ
وما يَعْرِفُ الإنْسانُ أيْنَ وَفَاتُهُ أفِي البَرِّ أمْ في البَحْرِ أمْ بِفَلاَةِ
فيا إخْوَتِي مَهْمَا شَهِدْتُمْ جَنَازَتِي فقُومُوْا لِربِّيْ واسْألُوْهُ نَجَـاتِي
وجُدُّوْا أبتِهالاً في الدُعَاءِ واخْلِصُوْا لَعَـلَّ إلٰهِـي يَقْبَـلُ الدَّعَـواتِ
وقُولُوا جَمِيْلاً إنْ عَلِمتُم خِلاَفَهُ وأغْضُوْا عَلَى ما كانَ مِن هَفَـوَاتِي
ولا تَصفُونِي بالذِيْ أنا أهْـلُهُ فَأشْقَى وَحَـلُّوْنِي بخَيْرِ صِفَـاتِي
ولا تَتَنَاسَوْنِي فَقِـدْماً ذَكَرْتكُمْ وَوَاصَلْتكُم بالبِرّ طُوْلَ حَيَـاتِي
وبالرَّغْمِ فارَقْتُ الأحِبَّـةَ مِنْكُمُ وَلَمَّا تُفَارِقنِي بِكُمْ زَفَـرَاتِي
وإنْ كُنْتُ مَيْتاً بَيْنَ أيْدِيْكُمُ لَقاً فَرُوْحِى حَيٌّ سَـامِعٌ لِنُعَـاتِي

أَنَا جِئْكُم حياً وإنْ كُنْتُ صَامِتاً ... أَلَا كُلُكُم يَوْماً إليَّ سَيَاتِي
ولَيْسَ يَقُوم الجِسْمُ إلا بِرُوْحِهِ ... هُوَ القُطْبُ والأعْضَاءُ كالأَدَوَاتِ
ولا بُدَّ يَوْماً أنْ يَحُوْرَ بِعَيْنِهِ ... لِيُجْزَى على الطَّاعَاتِ والتَّبَعَاتِ
وإلاَّ أكُنْ أهْلاً لِفَضْلِ ورحمةٍ ... فَرَبِي أهْلُ الفَضْلِ والرَّحَمَاتِ
فمازلْتُ أرْجُو عَفْوَهُ وجِنَانَهُ ... وأحْمَدُه في اليُسْرِ والأزمَاتِ
وأسْجُدُ تَعْظِيماً لَهُ وَتَذَلُّلاً ... وأعْبُدُهُ في الجَهْرِ والخَلَوَاتِ
ولَسْتُ بِمُمْتَنٍ عليه بِطَاعتي ... لَهُ المَنُّ في التَّيْسِيْرِ لِلحَسَنَاتِ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ الأَبْرَارِ ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ، وأمْنُنْ عَلَيْنَا بِالعَفْوِ وَالعِتْقِ مِنْ النَّارِ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمعِيْنَ

فَصْلٌ

وقال رحمه الله ثم لا تَغْفُلْ عن الميزانِ وتَطَايُرِ الكُتُبِ إلى الأيمانِ والشمائِلِ ، فإنَّ الناسَ بَعْدَ السؤالِ ثلاثُ فِرَق فِرْقةٌ لَيْسَ لَهُمْ حَسَنة .

فَيَخْرج مِن النارِ عَتَقٌ أسْوَدُ يَلْتَقِطُهُم لَقْطَ الطَّيرِ الحَبِ وَيَنْطَوِيْ عَليهم ويُلْقِيْهِم في النارِ فَتَبْتَلعُهُم النارُ ويُنَادَى عَليهم شَقَاوةً لا سَعَادَةً بعدها .

وقِسْمٌ آخَرُ لَيْس لَهُمْ سَيئَة فَيُنَادِي مُنَادٍ لِيَقُمِ الحَمَّادُوْنَ لِلهِ على كُلِّ حَالٍ ، فَيَقُومُون ويَسرحُونَ إلى الجنةِ .

ثم يُفْعَل ذَلكَ بأهْل قِيَامِ اللَّيْل ثم بِمَنْ لم تُشْغِلْهُ تجَارَةُ الدنيا ولا بَيْعُهَا عن ذكرِ اللهِ وَيُنَادَ عَلَيْهِم سَعَادَةً لا شَقَاوَةَ بَعْدَها .

ويَبْقَى قِسْمٌ ثالثٌ وهُم الأكثرون خَلَطُوا عملاً صَالِحاً وآخرَ سَيِّئاً وقد يَخْفى عليهم ولا يَخْفَى على الله أنَّ الغَالبَ حَسَنَاتهم أوْ سَيئاتهم .

ولَكِنْ يأبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُعَرِّفَهُمْ ذَلِكَ لِيُبَيِّنَ فضْلَهُ عند العَفْوِ وعَدْلَهُ عند العِقَابِ فَتطايَرَ الصَحِفُ والكتُبُ مُنْطَوِيَة على الحَسَناتِ والسَّيئآتِ

وَينْصَب الميزان وتشَخصُ الأبصارُ إلى الكُتُبِ أتقعَ في اليَمينِ أوْ في الشمال .

ثُمَّ إلى المِيزَان أيَمِيْلُ إلى جَانِب السَّيئآت أوْ إلى جَانِبِ الحَسَنات وهَذِهِ حَالَة تَطيْشُ فيها عُقُولَ الخَلائِق انتهى كلامُهُ رَحمهُ الله .

ذكر أبُو دَاوُد مِن حَدْيثِ عَائِشَةَ رضى الله عنها أنها ذَكَرَتْ النارَ فَبَكَتْ فقال رسول الله ﷺ ما يبْكَيْكِ قُلْتُ ذكَرتُ النار فَبَكَيْتُ فَهَلْ تذكرُوْنَ أهْلِيْكُمْ يَومَ القِيَامَةِ .

فقال رسول الله ﷺ :« أمَّا في ثَلَاثة مَوَاطِنَ فلا يَذْكُرُ أحَدٌ أحَداً عندَ المْيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أيَخِفُّ مِيْزَانُهُ أمْ يَثْقُلْ وعندَ تَطَايُرِ الصُّحُفِ حَتَّى يَعْلَمِ أيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ في يَمِيْنِهِ أمْ في شِمَالِهِ أمْ مِن وَرَاء ظَهْرِهِ .

وعندَ الصِّرَاط إذا وُضِعَ بيْنَ ظَهْرَي جَهَنَّم حَتَّى يَجُوز .

وَذَكَرَ التِّرمِذِيُ مِن حديث أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ في قول الله جل وعلا : ﴿ يوم نَدْعُوْ كُلَّ أناس بإمامِهم ﴾ قال يُدْعَى أحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابَهُ بِيَمينِهِ ويُمَدُّ لَهُ في جِسْمِهِ ستونَ ذرَاعَا ويُبَيِّضُ وجْهَهُ ويُجْعَلُ على رَأسِهِ تَاجٌ مِن لُؤْلُؤ يَتلألأُ .

فَيَنْطَلِقُ إلى أصْحَابِهِ فَيَرَوْنَهُ مِن بَعيْدٍ فَيَقُولُون اللَّهُمَّ ائْتِنَا بِهَذا وبارِكْ لَنا في هَذا فيأتيهِمْ فَيَقُولُ أبْشِروا لِكُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِثْلَ هَذا .

قَالَ وَأَمَّا الكَافِرُ فَيَسْوَدُّ ويُمَدُّ فِي جَسَدِهِ سِتُّون ذِرَاعًا على صُوْرَةِ آدَمَ فَيُلْبَسُ تاج من نارٍ فَيَرى أصْحَابهُ فَيَقُولُون نعوذ بالله مِن شَرِ هَذا اللَّهُمَّ لا تَأْتنا بِهِ فَيأتِيْهِمْ فَيقولُون اللهم أخِّرْهُ فَيَقُولُ أبْعَدَكمُ الله فإنْ لِكل رجل منكم مثل هذا .

شِعْــرا :

أُمْدُدْ يَمِيْنكَ من دُنْيَاكَ آخِــذَةً ... كِتَاب فَوْزِكَ إذْ تَحْتَــلَّ أُخْرَاكَا

فَلَسْتَ تُدْرِكُ ما فِي ذَاكَ مِن أَمَلٍ ... إلاَّ بِوَاسِطَــةٍ مِن دَارِ دنْيَــاكَا

فإنْ تكَاسَلْتَ أوْ قَصَّرْتَ في طَلَبٍ ... كُنْتَ المُخَيَّبَ والمطــلُوب إذْ ذَاكَا

يا نائِمَ القَلْبِ عَنْ أمْرٍ يُرَادُ بِهِ ... نَبِّهِهُ وَيْحَكَ إنَّ الأمْــر حَاذَاكَا

واشْدُدْ حُزَيْمَكَ وَاكْشِفْ سَاعِدَيْكَ لهُ ... فَرُبَّمَا حُمِدَتْ بالجِــدِّ عُقْبَــاكَا

كَمْ رابِحٍ بِكِتَابٍ كَانَ أمْــلاَهُ ... هَنَا بما شَاءَ لا مَنْ كَانَ أفَّاكَا

فَظَلَّ مُرْتَقِياً أدْرَاجَ مَكْرُمَــةٍ ... في عَدْنٍ أوْ نَازلاً في النــار أدْراكَا

وطَلَعَةُ الموتِ تُبْدِي عن حَقيقَةِ مَا ... تُمْلِيْ فإيَّاكَ أنْ تَنْسَــاهُ إيَّاكَا

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا بَدِيْعَ السَّمَواتِ وَ الأَرْضِ نَسْأَلُكَ أنْ تُوفِّقَنَا لِمَا فِيْهِ صَلاحُ دِيْنِنَا وَدُنْيَانَا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا وَأَكْرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْــلٌ

ذَكَرَ التِرمذيُ مِن حديث أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يُجَاءُ بابن آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ كأنَّه بَذْخٌ فيُوقفُ بَيْنَ يَدَي الله عَزَّ وَجَلَ .

فيقول الله لَهُ أعْطَيْتُكَ وخَوَّلْتُكَ وأنْعَمْتُ عَلَيْكَ فماذا صَنَعْتَ فَيَقُولُ جَمَعْتُه وثَمَّرْتُهُ وتَرَكْتُهُ أكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِيْكَ بِهِ فَيَقُولُ لَهُ أرِنِي ما قَدَّمْتَ فَيَقُولُ

يَا ربِّ جَمَّعْتُهُ وثَمَّرْتُهُ وتَرَكْتُهُ أكْثَر ما كَانَ فارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ فإذا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّم خَيْرًا فَيُمْضَى بِهِ إلى النار .

فَتَفَكَّرْ يَا مِسْكِين في نَفْسِكَ مادُمْتَ في قَيْدِ الحَيَاة وأنْتَ تَحَكَّمُ في مالِكَ ولا لَكَ مُعَارِضٌ وتَتَصرَّفُ فيه كَيْفَ شِئْتَ واجْعَلْ يَوْمَ تُبْلَى السرائر نَصْبَ عَيْنَيْكَ بَيْنَ مَا أنْتَ في هَذا اليوم العَظِيم الذي قَدِ امْتَلَئَتْ فيه القُلُوبُ مِن الخوفِ والقَلَقِ والرُّعْبِ والذُّعْرِ والانْزِعَاجِ وقد بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِر .

قال تعالى : ﴿ وأَنْذِرهم يوم الآزِفَةِ إذِ القلوب لدى الحناجر كاظِمين ﴾ فَبَيْنَما الناسُ في هَذِهِ الحال الَّتِي حُدِثَت عَنْهَا إذ جيء بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِينَ ألِف زِمَامِ مَعَ كُلِّ زِمَام سَبْعُونَ ألِف مَلَكٍ يَجُرُوْنَها حَتَّى تَكُون بِمَرْأَى مِن الخَلْقِ ومَسْمَع يَرَوْنَ لَهِيْبَهَا ويَسْمَعُونَ زَفِيْرَهَا فَبَيْنَما أنْتَ في تِلْكَ الحَال إذا أُخِذ بِضَبْعِكَ وقُبِضَ على عَضُدَيْكَ وجِيءَ بِكَ تَتَخَطَّى الرِّقَابَ وتَخْتَرِقُ الصُفُوفَ والخَلائِقُ يَنْظُرُوْنَ إليكَ حَتَّى إذا وَقَفْتَ بينَ يَدَى اللهِ تعالى فَسُئِلْتَ عن القَليلِ والكثيرِ والدقيقِ والجَلِيلِ والقطْمِيرِ والنَّقِيرِ ولا تَجِدُ أحَداً يُجَاوِبُ عَنْكَ بِلَفْظَةٍ ولا يُغِيْثُكَ بِكَلِمةٍ ولا يَرُدُّ عَنْكَ جواباً في مَسْألة .

وأنْتَ شاهَدْتَ من عِظَمِ الأمْرِ وجَلَالَةِ القدْرِ وهَيْبَةِ الحَظْرَةِ ما أذْهَبَ بَيَانَكَ وأخْرَسَ لِسَانَكَ وأذْهَلَ جَنَانَكَ .

ونَظَرْتَ يَمْيناً وشِمَالَا وبَيْنَ يَدَيْكَ فلَمْ تَرَ إلاَّ النَّـــار وعَمَلَكَ الذي كُنْتَ تَعْمَل وكَلَّمَكَ رَبُّ العِزَّةِ جَلَّ جَلَالُه بِغَيْرِ حِجَاب يَحْجِبُكَ ولا تَرْجُمَان يُتَرْجِمُ لَكَ .

وكَيْفَ تكون حَيْرَتُكَ ودَهْشتُكَ إذَا قِيْلَ عَامَلْتَ فُلَاناً يَوْمَ كَذَا وكَذَا في كَذَا وكَذَا وغَبَنْتَه في كَذَا وكَذَا وغَشَشْتَهُ في السِلْعَةِ الفُلانِيَّةِ .

وتَركْتَ نَصِيْحَتَهُ في كَذَا وكَذَا وبعْتَهُ السِلْعَةَ المَعْيُوبَة ولم تُبَيِّن له العَيْب أَوْ غَصبْتَ فُلاناً أَوْ ظَلَمْتَ فُلاناً أَوْ قَتَلْتَ فلاناً أَوْ أَعَنْتَ على قتلِهِ أو نحو ذلِكَ .

وقِيْلَ مَا حُجَّتُكَ أَقِمْ بَيِّنَةً إئتِ بِبُرهان فأَرَدْتَ الكلام فلم تُبَيِّنْ وجِئْتَ بعُذْر فَلم يَسْتَبِنْ هيهاتَ أَنَّي لَكَ الكلام وَلَمْ تُنقحْهُ وأَنَّي لَكَ بالعُذْرِ وَأَنْتَ في الدُنْيَا لم تُصَحِّحْهُ قال الله جل وعلا : ﴿ وكُلُّهم آتية يوم القيامةِ فَرْدَا ﴾ .

وقَال تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُوم الروحُ والملائكةُ صَفاً لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَن أَذن لَهُ الرحمن وقال صَوَابًا ﴾ الآيات وقال تعالى : ﴿ ذلك يَومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ الآيتين .

فانْظُر في هذا الموقف عندَ السُؤال بأيِّ بَدَنٍ تَقِفُ بَيْنَ يَدَى اللهِ وَبأيِّ لِسَانٍ تُجِيْبُهُ فاعِدَّ لِلسُؤال جَوَابا ولِلْجَوَابِ صَوَابًا فما شِئْتَ مِن قَلْبٍ يُخْلَعُ ومِن كَبِدٍ تُصَدَّعُ ومِن لِسَانٍ يَتَلَجْلَجُ ومِن أَحْشاءٍ تتمَوَّجُ ومِن نَفْسٍ تُرِيْدُ أَنْ تَخْرُجْ .

وانْظُر ما أشأم تِلْكَ الأَرْبَاح التي رَبِحْتَهَا وأَخْسَر تِلْكَ المعاملات الَّتِي أَلْهتْكَ عن ما خُلِقْتَ له انْظُر كَيْفَ ذَهَبَتْ عَنْكَ مَسرَّاتُهَا وبَقِيتَ حَسَرَاتُها والشَّهَواتُ التي في ظُلْم العِبَاد انْفَذْتَهَا كَيْفَ ذَهَبَ عَنْكَ الفرحُ بها وبَقَيَتِ التَّبِعَةُ

وانْظُر هَلْ يقبلَ مِنْكَ فِدَا في ذلكَ الموقِف الرَّهِيْب وما الذي يخَلِّصُكَ من ذلك السُؤآلِ قال الله تباركَ وتعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ .

وفي بعض الأَخبَارِ يَتمَنَّى رجَال أَنْ يُبْعَثَ بهم إلى النار ولا تُعْرضَ قبائِحُهُمْ على الله تعالى ولا تُكْشَفَ مَسَاوِئُهم على رُؤسِ الخَلائِقِ ، فما ظَنُكَ بِهذَا المَقَامِ وبِهذَا السُؤآل وبِهذَا النَّكال والوَبَال .

وما ظَنُّكَ بِنفسِكَ وقد جِيءَ بِجَهَنَّم على الوَصْفِ الذي تَقَدَّم وقد دَنَتْ مِن الخَلائِق ، وشَهَقَتْ وزَفَرَتْ ، وثارَتْ ، وفَارتَ .

ونَهَضَ خُزَّانُها ، والمُوكَّلُون بها ، والمُعَدُّوْنَ لِتَعْذِيْبِ أهْلِهَا مُتَسَارِعِيْنَ إلىَ أخْذِ مَن أمُرُوا بأخْذِهِ ، ساحِبِيْنَ له على بَطْنِهِ ، وحَرِّ وَجْهِهِ سامِعِينَ مُطِيْعِيْنَ لِلهِ ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أمَرهُم ويَفْعَلون ما يؤمرون ﴾ .

فتَصَوَّرْ حَالِكَ ، وكَيْفَ وقَدِ امْتَلأَتِ القُلُوب خَوْفاً وَرُعْبا وَذُعْراً وفَزَعَا ، وارتَعَدَتِ الفرائصِ ، وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ، واصْطَفَقَتِ الأحشا ، وتَقَطَّعَتِ الأمعاء ، وطَلَبُوا الفرار وطَارُوا لو يَحْصُلُ لَهُم مَطَار .

وَجَثتِ الأُمَمُ على الرُكَبِ وَأيْقَنَ المذنبون بالهَلاكِ والْعَطَبِ وسُوءِ المُنْقَلِب ، ونَادَى الأنْبِيَاءُ ، والصِّدِيْقُونَ ، والأولِيَاءُ نَفْسِيْ نَفْسِي .

كُلُّ نَفسٍ قَدْ أُفْرِدَتْ لِشأنها وتُركَتْ لِمَا بِهَا قال الله جل وعلا وتقدس : ﴿ يَوْمَ تأتِي كُلُ نَفْسٍ تُجَادِلُ عن نَفْسِهَا ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ يوم لا تملك نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئَا والأمْر يومئذٍ لِله ﴾ وظَنَّ كُلُّ إنسانٍ أنَّهُ هُو المأخوذ ، وأنَّهُ هُوَ المقْصُودُ ، وَ المطْلُوبُ ، وذَهَلَتِ العُقُولُ ، وطَاشَتِ الألْبَابُ ، وتَحَيَّرَتِ الأذْهَانُ ، وفَرَّ المَرْءُ مِن أخِيهِ وأمِّه وأبْيه وصَاحِبَته وبَنِيْه .

واشْتَغَلَ بشَأنِه الذي يَهِمُّهُ وَيَعْنِيْه ، وسُئِلَ عن جَمِيعِ أمْرِه سِرِهِ وجَهْرِهِ دَقِيْقِهِ وجَلِيله كَثِيره وقَلِيلِهِ ، وسُئِل عن أعْضَائه عُضواً عُضْواً وَجَارِحَةَ ، وعن شُكْرِهِ عَلَيْهَا ، وعن أدَاءِ حَقِّ الله فيها .

وظَهرَتِ القبائحُ وَكَثُرتِ الفَضَائِحُ ، وبَدَتِ المخازي واشْتَهرتِ المساوِي ، وتَرَكَكَ الأهْلُ والأقْرَبُون ، ولم يَنْفَعْكَ مَالٌ ولا بَنُون ، وأقْبَلْتَ تُجَادِلُ عن نَفْسكَ وتخاصم عنها وتطلب المَعَاذِيْر لها قال الله جل وعلا : ﴿ يَومَ تأتِي كُلُّ نَفسٍ تُجادِل عن نَفْسِهَا ﴾ .

وقد أُسْلِمتَ وأُفْرِدْتَ واشْتَغَل كُلُ إنْسَانٍ عَنْكَ بِنَفْسِهِ قال الله جل وعلا : ﴿ لكَلِ امْرىءٍ منهم يومئذ شأْنٌ يُغْنِيْه ﴾ وقال عَزَّ مِن قائل : ﴿ واتقوا يَوماً لا تَجْزِيْ نفْسٌ عن نفْسٍ شيئاً ﴾ الآية .

وأنشـدوا :

خَلِيْلَيّ ما أقْضى وما أنا قائلٌ ... إذَا جِئْتُ عن نَفْسِي بِنَفْسِي أُجَادِلُ
وقَدْ وضَع الرحْمنُ في الخَلْق عدْلَهُ ... وسِيْق جَمِيْعُ النَّاسِ واليَوْمُ بَاسِلُ
وجِيْءَ بجُرْم النار خاضعةٌ لهُ ... وثُلَّتْ عُرُوْشٌ عنـدها وَمَجَادِلُ
فيالَيْتَ شِعْري ذلك اليوم هلْ أنا ... أُغْفر أمْ أُجْزَى بِمَا أنا فَاعِلُ
فإنْ أكُ مجْزياً فعـدْلٌ وحُجَّةٌ ... وإنْ يَكُ غُفْرانٌ فَفَضْلٌ وَنَائِلُ

اللّهُمَّ ثَبتْ محبّتك في قُلوبنا وَقوِّها وَارْزُقْنا القِيامَ بطَاعَتِكَ وَجَنّبْنَا مَا يُسْخِطُكَ وأَصْلحْ نيّاتنا وذُرّياتنا وأَعذْنا مِنْ شرّ نُفوسِنا وَسيِّئَاتِ أعْمالِنا وَأُعِذْنَا مِنْ عَدُوِّك واجْعلْ هوانا تبعاً لما جاء به رَسُولُكَ صلى الله عليه وسلَّم وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنا ولجميع المُسْلمِيْن برحْمتك يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحْبه أجْمعيْن .

فصل في التحذير من النار وما أُعِدَّ لأَهْلِهَا

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فاتّقُوا النار التي وقُوْدُهَا الناسُ والحجارةُ أعِدَّتْ للكافرين ﴾ ، وقال جل وعلا : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قوا أَنْفُسَكُم وأَهليكم نَاراً وقُودُها الناسُ والحجارة ﴾ ، وقال جل وعلا : ﴿ إنَّ لَدَيْنَا أنْكالاً وجَحِيْمًا وطعاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً ألِيْما ﴾ .

فيا أيُّها الغافلُ عن نَفْسه المغْرُوْرُ بما هُوَ فِيْهِ مِن شَوَاغِل الدُّنْيَا المُشْرِفَةِ

على الإنْقِضَــاءِ والزَّوَال ، دَعِ الاشْتَغَالَ والتَّفَكُرَ فِيْمَا أَنْتَ مُرْتَحِلٌ عَنْه ، واصْرِفْ فِكْرَكَ واجْتِهَادِكَ إلى مَوْرِدِكَ الذي سَتَرِدِهُ ، فإنَّكَ أُخْبِرتَ أنَّ النارَ مَوْرِدٌ لِلْجَمِيع .

قال اللهُ جَلَّ وَعَلَا وتَقَدَّسَ : ﴿ وإنْ منكُم إلاَّ وَارِدُهَا كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضيا ﴾ فأَنْتَ مِن الوُرُوْدِ على يَقِيْنَ ، ومن النجاةِ في شَكٍ .

فاسْتَشْعِرِ في قَلْبِكَ هَوْلَ ذَلِكَ المَوْرِدِ فَعَسَاكَ تَستَعِدٌّ لِلنَّجاةِ منه ، وتَأَمَّلْ في حَالِ الخَلَائِقِ وقد قاسَوْا من دَواهي القِيَامَةِ وأهْوالِهَا وشَدَائِدِهَا ما قاسَوْا .

فَبيَنا هُم في كُرَبِهَا وأَهْوَالِهَا وَدَوَاهِيْهَا وقُوْفاً يَنْتَظِرُوْنَ حَقِيْقَةَ أَخْبَارِهَا وَتَشْفِيْعَ شُفَعَائِهَا إذْا أَحَاطَتْ بالمُجْرِمِيْنَ ظُلُمتٌ ذاتُ شُعَبٍ وأَظَلَّتْ عَليهم نارٌ ذَاتُ لَهَبٍ وسَمِعُوْا لَهَا زَفِيراً وجَرْجَرَةً تُفْصِحُ عن شِدَّةِ الغَيْضِ والغَضَبِ .

قال الله تباركَ وتعالى : ﴿ إذَا رَأَتْهُمْ مِن مَكَانٍ بَعِيْدٍ سَمِعُوْا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيْرَا ﴾ ، فَعِنْدَ ذلك أَيْقَنَ المُجْرِمُوْنَ بالعَطَبِ ، قال اللهُ عَزَّ مِن قَائِلٍ : ﴿ ورَأَى المُجْرِمُوْنَ النارَ فظنُوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوْهَا ولم يَجِدُوْا عنها مَصْرِفَا ﴾ .

وجَثَتِ الأُمَمُ عَلى الرُكَبِ حَتَّى أَشْفَقَ البُرَءَاءُ مِن سُوءِ المُنْقَلَبِ ، قال الله جل وعلا وتقدس : ﴿ وتَرَى كل أُمَّةٍ جَاثية كُلُ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها اليومَ تجْزَوْنَ مَا كنتم تَعْمَلُون ﴾ .

وخَرَجَ المنادِي قائلاً أَيْنَ فُلَانُ المُسَوِّفُ نَفْسهُ في الدنيا بِطُوْلِ الأملِ ، المضَيِّع عُمُرَهُ في سُوْءِ العمل .

فَيُبَادِرُوْنَه بِمقَامِعَ مِن حَدِيْدِ ويَسْتَقْبِلُونَهُ بِعَظَائِمِ التَّهْدِيْد ويَسُوْقُونَهُ إلى العَذَابِ الشَّدِيْدِ ويُنَكِسُوْنَهُ في جَهَنَّمَ ويَقُولُونَ لَهُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكريم ﴾ .

فأُسْكِنُوا دَاراً ضَيِّقَةَ الأَرْجَاءِ ، مُظْلِمَةَ المَسَالِكَ ، مُبْهَمَةَ المهالك ، قال الله جل وعلا :﴿ وإذا أُلقُوا منها مَكَاناً ضَيِّقاً مُقرنين دَعَوا هُنَالِكَ ثُبورَا ﴾ دَارٌ يُخَلَّدُ فيها الاسْير ويُوْقَد فيها السعِير شرابهم الحميم ومُسْتَقَرُّهُم الجَحِيْم .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هذه جهنم التي يُكذب بها المجرمون يَطُوفون بَيْنَهَا وبَيْنَ حَمْيم آن ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنها ساءت مُسْتقراً ومقاما ﴾ الهَاوِيَةُ تَجْمَعُهُمْ والزَّبَانِيَةُ تَقْمَعُهُمْ .

قال تبارك وتعالى : ﴿ فالذين كَفَرُوا قُطِعَتْ لهم ثيابٌ من نار يُصَب مِن فوق رؤوْسِهِمُ الحميم يُصْهَر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامِعُ مِن حَدِيْد كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا منها مِن غَمٍّ أُعِيْدُوْا فيها وذوقوا عَذاب الحريْق ﴾

وقال تعالى : ﴿ إنها عليهم مُؤصَدة في عَمَدٍ مُمَدَّدَة ﴾ أَمَانِيُّهُمْ فيها الهَلاكُ ، وما لِهُمْ منها فكاك ، قال تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك لِيَقْض عَلَيْنَا رَبُّكَ قال إنكم مَاكِثُون ﴾ قَدْ شُدَّتْ أَقْدَامُهُم إلى النواصي ، واسْوَدَّتْ وجُوْهُهُمْ مِن ظُلْمَةِ المَعَاصِي .

يُنَادُوْنَ مِن أَكْنافِها ويَصِيْحُوْنَ في نَواحِيْهَا وأَطْرَافِهَا يَا مالك قد حَقَّ عَلَيْنَا الوَعِيْد يَا مَالِكُ قد أَثْقَلَنَا الحَدِيْد ، يَامِالِكُ قد نَضِجَتْ مِنَّا الجُلُودُ ، يَا مَالِكُ العَدَمُ خَيرٌ مِن هَذَا الوُجُوْد ، يَا مَالِكُ أَخْرِجْنَا منها فانَا لا نَعُوْد .

فَتَقُول الزَّبَانِيَةُهَيْهَاتَ لَاتَ حِينَ مناص ، ولا خُرُوْجَ لَكُمْ مِن دَارِ الهُوْن قال الله جل جلاله وتَقَدَّسَتْ أسماؤه : ﴿ قالوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوتنا وكنا قوماً ضالين ،رَبَّنَاأخرجْنَا منها فإن عُدْنا فإنا ظالمون ، قال اخْسَؤُا فيها ولا تُكَلِّمُوْن ﴾ .

ولو خَرَجْتم لَكُنْتُم إلَى ما نُهِيْتُوا عنه تَعُوْدون قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا على النارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ولا نكذب بآيات رَبنا ونكُونَ

من المؤمنين ، بل بَدَا لَهُم ماكانوا يُخْفُونَ مِن قَبل وَلو رُدُّوْا لعَادُوْا لِمَا نهو عنه وإنَّهُمْ لكاذبون ﴾ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ يقْنَطُون وعلى تَفَرِيْطِهِم في جَنْب الله يَتَأَسَّفُون ولا يُنْجِيْهِمُ الندم ولا يُغْنِيهُم الأسَفُ بَلْ يُكَبُوْنَ على وجُوهِهِمْ مَغْلُولِيْن قال تَعَالى : ﴿ فَكَبكِبُوا فيها هُمْ والغَاوُوْن وجُنُوْدُ إبْلِيْسَ أجْمَعُون ﴾ .

النارُ مِن فَوقِهم والنارُ مِن تَحتِهِم والنارُ عن أيْمَانِهم والنارُ عن شمائِلِهم قال الله جَلَّ وعَلا : ﴿ لِهُمْ مِن فوقِهم ظُلَلٌ مِن النار ومِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ﴾ فهم غَرْقَى في النارِ طَعَامُهُمْ نارٌ وشرابُهُمْ نارٌ ولِبَاسُهُم نارٌ ومِهَادُهم نارٌ قال الله جل وعلا : ﴿ لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهادٌومِن فَوقهم غَواشٍ ﴾ .

فَهُمْ بَيْنَ مُقَطَّعَاتِ النِيرانِ وسَرَابِيْلِ القَطِران وضرب المقامِعِ وثِقْل السَّلاسِلِ فهم يَتَجَلْجَلُوْنَ في مَضَايقهَا ويَتَحَطَّمُوْنَ في دَرَكَاتِهَا ويَضْطَرِبُوْنَ في غَواشِيْهَا تَغْلِي بِهِم النارُ كَغَلْي القُدُوْرِ ويَهْتِفُونَ بالوَيْلِ والثُبور .

قال تعالى : ﴿ فالذين كَفَرُوْا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثيابٌ مِن نار يُصَبُّ من فَوق رُؤُسِهِم الحَميْم يُصْهَرُ بِهِ ما في بِطُوْنِهم والجلود ولهم مقامِعُ مِن حَدِيْد كُلَّما أرَدُوا أن يَخْرُجُوا منها مِن غَمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عَذابَ الحَرِيْق ﴾ .

قِيْلَ إنَّ مَقَامِعَ الحَدِيْد تُهْشَمُ بِهَا جِبَاهُهُمْ فيَتفَجَّرُ الصَّدِيدُ في أفْوَاهِهِم وتَنْقَطِعُ مِن العَطَشِ أكْبَادُهُم وتسِيْل على الخُدُوْدِ أحْدَاقهم وتَسْقُطُ مِن الوَجَنَاتِ لُحُومُهَا وتَتَمَزَّقُ الجُلُود .

قال الله جل وعلا : ﴿ كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ قد عَرِيَتْ مِن اللَّحْمِ عِظَامُهُمْ فَبقِيَتْ الأرْوَاحُ مَنُوطَةٌ بالعُرُوْق وعلائق العَصَب وهِيَ تَنِشُّ في لَفحِ تِلْكَ النِيران وهِمْ مَعَ ذلك يَتَمَنَّونَ الموتَ فَلا يمُوْتُون .

قال الله جل وعلا وتقدس : ﴿ ويأتيهِ الموتُ مِن كل مكانٍ وما هو بِميت ومن ورائه عَذابٌ غليْظ ﴾ فكيف بك لو نَظَرْتَ إليْهم وقد سُوِّدَتْ وجوههم وأُعْمِيَتْ أبْصارُهم وأُبْكِمتْ أَلْسِنَتُهُمْ وقُصِمَتْ ظُهُورُهُم وكُسِرَتْ عِظَامُهُمْ ومُزِّقَتْ جُلُوْدُهُم وغُلّتْ أيْدِيهم إلى أعْناقِهم وجُمِعَ بَيْنَ النّواصي والأقْدَام .

قال تعالى : ﴿ يُعْرفُ المُجْرِمُوْن بسِيماهُم فيؤخَذُ بالنّواصِي والأقدام ﴾ وقال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وُجُوهِهم عُمْياً وبُكْماً وصماً مأواهُم جهنّم كلما خبت زدناهم سَعيْرا ﴾ .

فلهيْبُ النار سارٍ في بَواطِنِ أجْزائهم وحَيَّاتُ الْهَاوِيَةِ وعَقَارِبُهَا مُتَشَبِّثَةٌ بِظَواهِرِ أعْضائهم . ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يخْرُج عُنُقٌ من النار يوم القيامة لهُ عَيْنَانِ تُبْصِران وأُذُنَانِ تَسْمَعَان ولِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ إني وُكِّلْتُ بثلاثة بِمَنْ جَعَل مَعَ الله إلهاً آخَرَ وبِكُلِ جَبَّارٍ عَنِيْد وبالمصَوِّرِيْن » .

وذكر الترمذيُ من حديث أبي أمَامَةَ عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ويُسْقَى من ماءٍ صَدِيْد يتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسِيْغُهُ ﴾ قال : يُقَربُ إلىَ فِيْهِ فيكْرَهُهُ فإذا أُدْني منه شوى وجْهَهُ وَوقعَتْ فروة رَأْسِهِ فإذا شرب قَطَعَ أمْعَاءَهُ حتى يَخْرُجَ من دُبُره يقول الله عز وجل : ﴿ وسقُوا مَاء حَميْماً فَقَطَّعَ أمْعَاءهم ﴾ ويقول : ﴿ وإن يَسْتَغيثوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمْهل يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشرابُ وساءَتْ مُرْتفقا ﴾ .

وأنشـدوا :

أَمَا سَمِعْتَ بأَهْلِ النَّار في النَّارِ   وعن مقَاسَـاةِ مَا يَلقَوْنَ في النَّارِ
أَمَا سَمِعْتَ بأكْبادٍ لهُم صَـدِعَتْ   خوفاً من النـارِ قد ذَابَتْ عَلَى النارِ

أَمَا سَمِعْتَ بِأَغْـلالٍ تُنَـاطُ بِهِم ... فَيُسْحَبُونَ بِهَـا سَحْبـاً عَلَى النَّارِ
أَمَا سَمِعْتَ بِضِيْقٍ فِي مَجَالِسِهِـمْ ... وفي الفـرَارِ ولا فِـرَارَ فِي النَّـارِ
أَمَا سَمِعْتَ بِحَيَّـاتٍ تَدِبُّ بِهَـا ... إِلَيْهِمُ خُلِقَتْ مِن خَـالِصِ النَّـارِ
أَمَا سَمِعْتَ بِأَجْسَـادٍ لَهُم نَضِجَتْ ... مِن العَـذَابِ ومِن غَلْيٍ عَلَى النَّارِ
أَمَا سَمِعْتَ بِمـا يُكَلَّفُـونَ بِهِ ... مِن ارْتِقَـاءِ جِبَـالِ النَّارِ فِي النَّارِ
حَتَّى إِذَا مَا عَلَوْا عَلَى شَوَاهِقِهَا ... صُبُّـوْا بِعُنْفٍ إِلَى أَسَافِلِ النَّـارِ
أَمَا سَمِعْتَ بِزَقُّـوم يُسَـوِّغُهُ ... مَاءٌ صَدِيْدٌ ولا تَسْـوِيْغَ فِي النَّـارِ
يُسْقَوْنَ مِنْهُ كُئُـوْساً مُلِئَتْ سَقَماً ... تَرْمِي بِأَمْعَـائِهِم رَمْيَـاً عَلَى النَّـارِ
يَشْوِيْ الوُجُوهَ وُجُوْهاً أُلْبِسَتْ ظُلَماً ... بِئْسَ الشَّرَابُ شَرَابُ سَـاكِنِي النَّارِ
ولا يَنَـامُوْنَ إِنْ طَافَ المَنَـامُ بِهِمْ ... ولَا مَنَام لِأَهْلِ النَّـارِ فِي النَّـارِ
إِنْ يَسْتَقِيْلُوا فلا تُقَـال عُثْرَتُهُـمْ ... أَوْ يَسْتَغِيْثُوْا فَلا غِيَـاثَ فِي النَّـارِ
وإِن أَرَادُوْا خُرُوْجـاً رُدَّ خَارِجُهُمْ ... بِمَقْمَعِ النَّـارِ مَدْحُوْراً إِلَى النَّـارِ
فَهُمْ إِلَى النَّـارِ مَدْفُوْعُوْنَ بِالنَّـارِ ... وَهُمْ مِن النَّـارِ يُهْرَعُـوْنَ لِلنَّـارِ
ما أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُـمْ مِن عَذَابِهِمْ ... ولا تُفَـتَّرُ عَنْهُمْ سَوْرَةَ النَّـارِ
فَهَذِهِ صَدَعَتْ أَكْبَـادَ سَامِعِهَـا ... مِن ذِي الحِجَى ومِن التَّخْلِيدِ فِي النَّارِ
ولَوْ يَكُونُ إِلَى وَقْتٍ عَذَابُهُمْ ... فِي النَّـارِ هَوَّنَ ذَاكُمْ لَفْحَـةَ النَّارِ
فَيَا إِلَهِي ومَن أَحْكَـامُهُ سَـبَقَتْ ... فِي الفِرْقَتَيْنِ مِن الجَنَّـاتِ والنَّـارِ
رَحْمَاكَ يَا رَبِّ فِي ضَعْفِي وفِي ضَعَتِي ... فَمَا وُجُودِكَ لِيْ صَبْرٌ عَلَى النَّـارِ
ولا عَلَى حَرِّ شَمْسٍ إِنْ بَرِزْتُ لها ... فَكَيْفَ أَصْبِرُ يا مَوْلَايَ لِلنَّـارِ
فَإِنْ تَغَمَّـدَنِي عَفْوٌ وثِقْـتُ بِهِ ... مِنْكُمْ وإِلَّا فَإِنِّي طُعْمَةُ النَّـارِ

اللهم يا عالم الخفيات ، ويا رفيع الدرجات، ياغافر الذنب وقابل التوب شديد العِقَاب ذي الطول لا إله إلا أنت إليك المصير .

نسألك أن تذيقنا برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، يا أرحم الراحمين وأرأف الرائفين وأكرم الأكرمين .

اللهم اعْتِقْنَا مِن رِقّ الذُنُوبْ ، وخَلِّصْنَا مِن شَرّ النُّفوسْ ، وأذْهِبْ عَنَّا وَحْشَةَ الإسَاءَةْ ، وطَهِّرْنَا من دَنَسِ الذنوب ، وباعِدْ بَيْنَنا وبَيْنَ الخَطَايَا وأجِرْنَا مِن الشيطان الرجيم .

اللهم طَيِّبْنَا لِلَقَائِكْ ، وأهِّلْنَا لِوَلائِكْ وأدْخِلْنَا مَعَ المَرْحُوميْنَ مِن أوْلِيَائِكْ ، وتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ والحقنَا بالصَّالحين .

اللهم أعِنَّا على ذِكْرِكَ وحُسْن عِبَادَتِكْ ، وتِلَاوَةِ كِتَابِكْ ، واجْعَلْنَا مِن حِزْبِكَ المُفْلِحِيْنَ ، وأيِّدْنَا بجُنْدِكَ المنصُورين ، وأرْزُقْنَا مُرافقَة الذيْنَ أنْعَمْتَ عليهم من النبيين والصِّدِيقين والشهداء والصَّالحين . وصلى الله على محمد وعلى آلهِ وصحبه أجمعين .

« مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ المَوْتِ وأحْوَالِ المَيِّتِ في سَكَرَاتِهِ وَفِتْنَةِ القَبْرِ وسُؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيْرٍ وعَذَابِ القبْرِ ونَعِيْمِهِ وَخَطَر مَنْ كَانَ مَسْخُوطاً عَلَيْهِ وأعْظَمُ مِن ذلِكَ الأخْطَارُ الّتِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ نَفْخِ الصُّوْرِ والبَعْثِ والنُّشُوْرِ والعَرْضِ عَلَى الجَبَّارِ وَالسُّؤالِ عن الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ ونَصْبِ المِيْزَانِ لِمَعْرِفَةِ المَقَادِيرِ .

ثُمَّ جَوَازُ الصِّرَاطِ مَعَ دقَّتِهِ وَحدَّتِهِ ثُمَّ انْتِظَارُ النِّدَاءِ عِنْدَ فَصْلِ القَضَاءِ إمَّا بالإسْعَادِ وإمَّا بالإشْقاء فَهَذِهِ أحْوَالٌ وأهْوَالٌ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ثُمَّ الإيْمَانُ بِهَا عَلى سَبِيْلِ الجَزْمِ والتَّصْدِيْقِ ثُمَّ تَطْوِيلُ الفِكْرِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ الّذي مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ ألفَ سَنَةٍ .

كَمَا جَاءَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ يَجْمَعُ اللّهُ فِيهِ الأوَّلِيْن والآخِرِيْنَ في صَعِيْدٍ

وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِيْ وَيَنْفُذُهُمْ البَصَرُ لا يَغِيبُ مِنْهُمْ أحَدٌ وَتَدْنُو مِنْهُم الشَّمْسُ ويُلْجِمُهُمْ العَرَقُ هَذَا اليَوْمُ هُوَ اليَوْمُ الّذي تَذْهَلُ فِيهِ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَنْ مَا أرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد » .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَبْلُغُ الأمْرُ مِن الحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ والاضْطِرَابِ والذُّهُولُ أنْ تَذْهَلَ المُرْضِعَةُ عن وَلَدِهَا الّذي فَمُهُ في ثَدْيِهَا وَهُوَ أعزُّ شَيْءٍ لَدَيْهَا فَكَيْفَ بالذُّهُوْلِ عَمَّا سِوَاهُ وتسْقِطُ الحَوَامِلُ مِنَ الفَزَعِ وَالرُّعْبِ والرَّوْعِ مَا فِي بُطُونِهَا مِن الأجِنَّةِ قَبْلَ التَّمَامِ وتَرَى النّاسَ كَأنَّهُمْ سُكَارَى مِن شِدّةِ الرَّوْعِ والفَزَعِ والخَوْفِ الّذِي صَيَّرَ مَنْ رَآهُمْ يُشَبِّهُهُمْ بالسُّكَارَى لِذَهَابِ عُقُوْلِهِمْ مِن شِدَّةِ الخَوْفِ كَمَا يَذْهَبُ عَقْلُ السَّكْرانِ مِن الشَّرَابِ « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ تَكُونُ الأرْضُ كالسَّفِيْنَةِ في البَحْرِ عِنْدَ اضْطِــراب الأمْوَاجِ تكفأُ بأهْلِهَا .

فَيَمِيْدُ النّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا وَيَتَسَاقَطُونَ مِنْ شِدَّةِ الأمْرِ وبُلُوغِهِ أقْصَى الغَايَاتِ وَلِهَذا أذْهَلَ العُقُولَ وأذْهَبَ التّمْييز والفِكْرَ والصَّحْوَ إنَّهُ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴿إذَا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزَالَهَا وأخْرَجَتِ الأرْضُ أثْقَالَهَا﴾ .

إنَّهَا لَهَزَّةٌ عَنِيْفَةٌ لِلْقُلُوبِ الغَافِلَةِ حَيْثُ تَرْجُفُ الأرْضَ الثَّابِتَةُ ارْتِجَافاً وتَزَلْزَلُ زِلْزالاً وَتَنْفُضُ ما فِي جَوْفِهَا نَفْضاً وَتُخْرِجُ مَا يُثقّلُهَا مِن أجْسَادٍ وَنُقُوْدٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا حَمَلَتْهُ طَوِيْلاً وَهُوَ مَشْهَدٌ يَهُزُّ كُلُّ شَيْءٍ ثَابِتٍ والأرْضُ تَهْتَزُّ والسَّمَاءِ تَمُوْرُ .

إنَّهُ لَمَشْهَدٌ مُجَرَّدُ تَصَوُّرِهِ ، يَخْلَعُ القُلُوْبَ يَرَى الإنْسَانُ مَا لاَ يَعْهَدُ

وَيُوَاجِهُ مَا لاَ يُدْرِكُ وَيَشْهَدُ مَا لاَ يَمْلِكُ الصَّبْرَ أَمَامَهُ وَلاَ السُّكُوتَ عَنْهُ ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ما الّذِي يُزَلْزِلُهَا هَكَذا وَيرُجُّهَا رَجّاً .

وكَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ مَا نَزل يَتمَايَلُ عَلى ظَهْرِ الأَرْضِ وَيَتَشَبَّثُ وَيُحَاوِلُ أَنْ يُمْسِكَ بِشَيْءٍ لَعَلَّهُ يَثْبُتُ لأَنَّ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَمُورُ مَوْراً شَدِيْداً قَدْ إمْتَلأَ مِنَ الرُّعْبِ والفَزَعِ وَالدَّهْشَةِ والعَجَبِ .

يَرَى الجِبَالَ وَهِيَ تَسِيْرُ وإذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ، هَذِهِ الجِبَالُ وَقَدْ نُسِفَتْ وبُسَّتْ وَرآهَا ذَرَّاتٍ فِي الهَوَاءِ ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفا ، وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابا » .

هَذِهِ تُصَرِّحُ وَتُشِيْرُ إِلى حَدثٍ عَظِيمٍ تَتَزَلْزَلُ مِنْهُ الجِبَالُ وَتَذْهَبُ هَبَاءً يَتَلاَشَى ثَبَاتُهَا وَرُسُوخُهَا واسْتِقْرارُهَا وَتَمَاسُكُهَا والإِنْسَانُ يَنْظُرُ وَلاَ يَكَادُ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ ﴿إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كاظِمِيْنَ﴾ .

هُنَا يُشَاهِدُ وَيُواجِهُ الحَشْرَ والحِسَابَ والوَزْنَ والجَزَاءَ وَيقِفُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ والملاَئِكَةُ صَفّاً بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والملاَئِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرحمن وقَالَ صَواباً﴾ « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ يَوْمَ يَأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذْنِهِ » ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والملكُ صَفّاً صَفّاً﴾ .

وَمَوْقِفُ هَؤُلاءِ المُقَرَّبِيْنَ صَامِتِيْنَ خَاشِعِيْنَ خَاضِعِيْنَ لِعَظَمَةِ اللّهِ ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسَا﴾ ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾.

مَوْقِفُهُمْ هَكَذا صَامِتِيْنَ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ بِإِذْنٍ مِن الرَّحْمَنِ يُلْقِي فِي

النَّفس الرَّهْبَةَ والرُّعْبَ والفَزَعَ مِن ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيْمِ الَّذي يَنْكَشِفُ فِيْهِ كُلُّ مَسْتُوْرٍ وَيُعْلَمُ فِيْهِ كُلُّ مَجْهُوْلٍ .

وَتَقِفُ فِيْهِ النَّفْسُ أمامَ مَا أَحْضَرَتْ مِن الرَّصِيْدِ والزَّادِ فِي مَوْقِفِ الفَصْلِ والحِسَابِ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوْءٍ تَوَدُّ لَو أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمَداً بَعِيْداً﴾ ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ المرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِيْهِمْ اللهُ دِيْنَهُم الحَقَّ﴾ .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَكُون التَّغَيُّرُ العَظِيْمُ الشَّامِلُ لِلْمَعْهُوْدَاتِ السّموات والأَرْضِ الشَّمْسُ مُكَوَّرَةٌ وَالنُّجُومُ مُنْكَدِرَةٌ والسَّمَاءُ مُنْشَقَّةٌ والوُحُوشُ النَّافِرَةُ مَحْشُوْرَةٌ والأَنْعَامُ والطُّيُورُ والعِشَارُ مُعَطَّلَةٌ ﴿فإِذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَرُ وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُ﴾ ﴿إِذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ ونُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنْزِيلا﴾ ﴿فإِذا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَان﴾ .

هَذِهِ الآيَاتُ وأَمْثَالُهَا تُشِيْرُ إِلى ذَلِكَ الحَادِثِ الهَائِلِ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ وَلاَ يَعْلَمُ حَقِيْقَتَهُ إِلاّ اللّهُ إنَّهُ حَادِثٌ عَظِيْمٌ تَرْجُفُ الأَرْضُ مِنْهُ وَتَخَافُ وَتَنْهَارُ فَكَيْفَ بالخَلْقِ الضِّعَافِ المَهَازِيْلِ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ الصَّوَاعِقُ هَزّاً وتَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ خَلْعا ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُوْنَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيْبَا السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيْباً مَهِيْلاً﴾ .

وفي وَسَطِ هَذَا الرُّعْبِ والخَوْفِ والقَلَقِ والفَزَعِ والذُّهُوْلِ والانْقِلابِ يتساءلُ الإِنْسَانُ المَذْعُوْرُ المَرْعُوْبُ أَيْنَ المَفَرُّ وَيَبْدُوْ ذلِكَ في سُؤَالِهِ وَكَأَنَّما يَنْظُرُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ فَإِذَا هُوَ مَسْدُوْدٌ دُوْنَهُ مَأخُوْذٌ عَلَيْهِ وَلاَ مَلْجَا وَلاَ مَحِيْصَ ولا مَنْفَذَ وَلاَ وِقَايَةَ مِنْ قَهْرِ اللّهِ وأخذِهِ، والرُّجْعَةُ إِلَيْهِ والمَصِيْرُ والمستقرُّ عِنْدَهُ ﴿كَلا

لاَ وَزرَ إلى رَبّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقرْ﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ إنْ اسْتَطَعْتُمْ انْ تَنفُذُوا مِن أقطارِ السّمواتِ والأرضِ فانفذوا﴾ .

فَفِيْ هَذا المَوْقِفِ الرَّهِيْبِ يَتَبَيَّنُ عَجْزُ الخَلاَئِقِ وضَعْفُهُمْ وَكَمالُ سُلْطَانِ اللّهِ وقُدْرَتِهِ ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ ﴿إنّمَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ وَما أنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ﴾ إنّكُمْ في قَبْضَةِ اللّهِ ﴿مَا مِن دابّةٍ إلاّ هُوَ آخذٌ بِناصِيَتِها﴾ إنَّهُ لَيَوْمٌ عَصِيْبٌ وَمَوْقِفٌ رَهِيْبٌ ﴿إنْ كُلُّ مَن فِي السّمَواتِ والأرْضِ إلاّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً لقَدْ احْصَاهُم وعَدَّهُم عَدّا وكُلُّهُم آتِيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدا﴾ .

فَلاَ مَجَالَ لِهَرَبِ أحَدٍ وَلا نِسْيَانَ لأحَدٍ فَعَيْنُ اللّهِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ وَكلّ فَرْدٍ يَقُوْمُ وَحِيْداً لاَ يأنَسُ باحَدٍ فإذا هُوَ فَرِيْدٌ وَحِيْدٌ أمَامَ الدَّيّانِ ﴿يَوْمَ تأتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عنْ نَفْسِها﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ اخِيْهِ وأمِّهِ وأبِيْهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيْهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يغنِيه﴾ .

مَشْهَدُ المَرْءِ يَفِرُّ وَيَنْسَلِخُ وَيَهْرَبُ مِنْ أقْرَبِ النّاسِ إلَيْهِ وألْصَقِهِمْ بِهِ أولَئِكَ الّذِينَ تَرْبُطُهُمْ بِهِ وَشَائِجُ وَرَوَابِطُ لا تَنْفَصِمُ وَلَكِنْ الصّاخةُ وَالطّامَةُ تُمَزِّقُ هَذِهِ الرَّوَابِطِ وتُقَطِّعُ الوَشَائِجَ والصّلاتِ ﴿فَلاَ أنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ﴾ .

فَالْهَوْلُ يُفْزِعُ النّفسَ ويُقْلِقُهَا وَيفصِلُهَا مِنْ مُحِيطِهَا وَيَسْتَبِدُّ بِهَا اسْتِبْدَاداً فِلَكُلِّ نَفْسُهُ وَشأنُهُ وَلَدَيْهِ الكِفَايَةُ مِنَ الهَمِّ الخَاصِ بِهِ الّذِي لاَ يَدَعُ لَهُ فَضْلَةً مِنْ وَعْيٍ أوْ جُهْدٍ ﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمُ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهْ ﴾ ﴿ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِيْنَ ﴾ .

ألَم تَسْمَعْ عن النّبأ العَظِيْمِ وعن خطْبٍ خُلِقْتَ لَهُ جِسْيمِ

وَزِلْزَالٍ يَهُدُّ الأرْضَ هَـدًّا ... ويَرْمِي في الحَضِيْضَةِ بالنُّجُوْمِ
وأهْـوالٍ كَأطْـوَادٍ رَوَاسَــيْ ... تَلاطَمُ في ظُلُـوعٍ كَالهَشِيْـمْ
فَمِن رَاسٍ يَشِيْبُ ومِن فؤآدٍ ... يَذُوْبُ ومِن هُمُومٍ في هُمُوْمْ
وسَكرانٍ ولَمْ يَشْرَبْ لِسُكْرٍ ... وهَيْمانٍ ولَمْ يَعْلَقْ بِرِيْـمْ
ومُرْضِعَةٍ قَدْ أذْهَلَها أساهَا ... فَمَا تَدْرِي الرَّضِيْع مِن الفطِيْم
ومُؤْتَمةٍ تولَّتْ عن بَنِيْهَـا ... وألْقَتْ باليَتِيْمَـةِ واليَتِـيْم
وحُبْلَى أسْقَطَتْ ذُعْراً وخَـوْفاً ... فيااللهِ لِلْيَـوْمِ العَقِيْـم
وهَذا مَشْهَـدٌ لا بُدَّ مِنْـهُ ... وجَمْعٌ لِلْحَـدِيْثِ ولِلْقَـدِيْمِ
وما كِسْرَى وَقَيْصَرُ والنَّجَـاشِي ... وتُبَّعُ والقُرُوْمُ بَنُـوا القُرُوْمِ
بذَاكَ اليَومِ إلاَّ في مَقَـامٍ ... أذَلَّ مِن التُرابِ لِـذِي السَّـلِيمِ
وما لِلْمَرءِ إلاَّ مَا سَـعَاهُ ... لِدارِ البُؤسِ أوْ دَارِ النَّعِـيْمِ
وأنْتَ كما عَلِمْتَ .وَربَّ أمْـرٍ ... يَكُونُ أذاهُ أوْقَـعُ بالعَـلِيْمِ
فَدَعْ عَيْنَيْكَ تَسبَحْ في مَعِـيْنٍ ... وقَلْبَكَ ذَرْهُ يَقْلُبُ في جَحِيْم
وشُقَّ جُيُوب صَبْرك شَقَّ ثُكلى ... تَعَلَّقتِ ابنها رَجُـلاً سَهُـوْمْ
وَمَاذَا الأمْـرُ ذَلِكُمُ وَلَكِنْ ... تُشَبَّهُ بالبِحَـارِ يَدُ الكَرِيْـمِ

اللَّهُمَّ نَجِّنا برحمتِكَ مِن النارِ وعافِنَا مِن دارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وأدْخِلنا بِفَضْلِكَ الجنةَ دارَ القَرارِ وعامِلْنا بِكَرَمِكَ وَجُودِكَ يا كريم يا غفارُ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدِيْنَا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ مِهْم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وصَلّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

فَصْـــلٌ

إعْلَم رَحِمَنَا اللهُ وإيَّاكَ أنَّ في الجنائِز عِبْرَة لِلْمُعْتَبِرِين ، وفِكْرةً لِلْمُتَفَكِّرين ، وتَنْبِيْهاً لِلْغَافلين ، وإيقاظاً لِلنَّائِميْنَ .

بَيْنَمَا الإنسانُ في قِيَامٍ وقُعُودٍ ، ونُزُولٍ وصُعُودٍ ، وخُذْ هذا واتْرُكْ هذا ، واشتَرْ هذا وبِعْ هَذا ، وابْنِ هَذا واهْدِمْ هذا ، وقد كان وما كان ، وتَقَدَّم هذا وتأخَّرَ هذا ، وعُيِّنَ فلانٌ وفُصِلَ فلان ، ورَبِحَ فلان وخَسِرَ فُلان .

إذْ فَاجَأهُ الأَمْر الإلهي والحادِثُ السَّمَاوِي والحُكْم الرباني فَسَكَنَتْ حَرَكَتُه وطَفِئَتْ شُعْلَتُه ، وذَهَبَتْ نَظْرَتُهُ وصَارَ كالخشبَةِ المَنْبُوذَةِ والحَجَر المَرْمِي .

إنْ نُودي لم يَسْمَعْ وإنْ دُعْي لم يُجِبْ وإنْ قُطِّعَ أوْ سُحِبَ أوّ حُرِّق لَمْ يُمَانِعْ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، عبرة لِمَنْ اعْتَبَرْ وذِكْرِى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ .

ولكِنْ حُبُّ الدنيا وزينَتُهَا وشَهَواتُها وحِجَابُ الهَوى غَطَّى القُلُوبَ وأعْمَى البَصَائِر يَمْنَعُ التَّفكُرَ في الجَنَائِز والإعْتِبَارَ بِهَا .

فَصَارَتْ لا تزيْدُ رُؤْيَتُهَا عند كَثِير من النَّاسِ إلاَّ غَفْلَةً ولا مُشَاهَدَتُهَا إلاَّ قَسْوَة حتى كأن الميت نائم يسْتيْقِظْ بَعْدَ سَاعَة أوْ كأنَّ الذي يَرَىَ الجنازة لا يَكُونُ مِثْلَهَا وكأنَّ المَيِّتَ نَزَل بِهِ الموتُ وَحْدَهُ وقَصَدَهُ خَاصَةً .

ولذلك تجد كَثِيراً من المشيعين يَبْحَثُ في مُخَلَّفَاتِهِ نَعَمْ يَعْلَمُ كلُ إنسان أنه سَيَمُوتُ لقول الله جل جلاله : ﴿ كُلُ نَفْس ذَائِقَةُ الموت ﴾ .

وقد تخالف الناس إلاَّ في الموت فَهُم مُتَّفِقُون ، ولكن لا يَظُنُّون ذلك مِن قَرِيْب قد فَسَحُوا لِأنْفسِهم في المدة ومَدُّوْا لَهَا في المُهْلَة بِدَليلٍ ما يُنْشِئُوْنَهُ مِن الأعْمَالِ والقُصُور والشركاتِ ونحو ذلك .

وإنْ دَارَ على لِسَانِهِ ذِكْرِ الموتَ عن قريب فهو قول ضَعِيْف بِدَليل عَدَمِ تَحَركِهِ مِن قِبَلِ الآخِرَةِ وحَالتُه قبل رُؤْيَةِ الجنائز كَحَالَتِهِ بَعْدَ تَشْيِيعِهَا أكْبَر بُرهَان على ذلك ورُبَّما تَحَدَّثوا بِحَدِيْث الدنيا وضَحِكُوْا والميتُ يُدْفَنُ .

وقلَّما يَبْكِي على الجَنَازَةِ إلاَّ أهْلُهَا وذلِكَ لِفِراقها ، لا لِنَفْسِ الموت ، كَبكاء الطفل والمرأة الذين لا يَعْقِلان و لا يَعْلَمان ، ولو كانوا يَعْلَمُون لَكَانَ بُكاؤهُم على أنْفُسِهِم لَا عَلى مَيِّتِهِم لأنه ماتَ وهم يَنْتَظِرون الموتَ .

بَكَى لأنْ مَاتَ مَيْتٌ مِن عَشِيْرَتِهِ وقَالَ واحَـرَبَا وصَاحَ يَا هَـرَبَا
وباتَ فَوقَ حَشَاهُ للأَسَى لَهَبٌ إذَا أرَادَ خُبُواً فَارَ وَ الْتَهَبَـا
وَلَوْ رَآى بِصَحِيْحِ العَقْلِ حِيْنَ رَآى وكَشَفَ اللهُ عَنْهُ لِلْهَوَى حُجُبَـا
لَمَا رَآى الدَّهْرَ مَيْتاً أوْ أحسَّ بِهِ إلاَّ بَكَى نَفْسَهُ المِسْكِيْنُ وانْتَحَبَـا
ومَنْ رَأى السُّمْرَ في جَنْبَيْهِ شارِعَةً أنَّى يَرَاهَا بجنْبٍ نَاءَ أو قَرُبَا
وطَلْعَةُ الموتِ ان تَطْلُعْ عَلى أحَدٍ أرَتْهُ في نَفْسِهِ من هَوْلِهَا عَجَبَا

اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِالأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أعْمَارَنا وحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ في جَمِيْعِ الأحْوَالِ أعمالَنَا يَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَى وَيَا دَائِمَ الإحْسَانِ أذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَأَنِلْنَا مِنْ كَرمِكَ وَجُودِكَ مَا تَقَرُّ به عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْـــلٌ

وقال رحمه الله تعالى واعْلم أنَّ الميتَ كالحي فيما يُهْدَى إليه بَلْ المِيِّتُ أكْثَرُ وَأكْثَرْ لِأنَّ الحَيَّ قد يَسْتَقِل ما يُهْدَى إليه ويَسْتَحْقِرُ ما يُتْحَفُ بِهِ .

والمِيِّتُ لا يِسْتَحْقِرُ شيئاً مِن ذلك لأنه يَعْلَم قيمتَهُ بَعْدَ مَا خَرجَ مِن الدُنْيا وطُويَتْ صَحِيْفَتُه وقد كان يَقْدِرُ عَليه أيَّام حَيَاتِه ولَكِنْ ضَيَّعَهُ .

ومِمَّا يَدُل على وُصُوْلُ القُرَبِ إلى المَيِّتِ قَوْلُ النبي ﷺ : « إذا مَاتَ

الإنسانُ انْقطَعَ عَمَلُه إلاَّ مِن ثلاثٍ صَدقةٍ جَارِيَةٍ أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث رواهُ مُسْلِم ا هـ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مَمَّا يلْحَقُ المؤمِنَ مِن عَمَلِهِ وحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوتِهِ عِلْماً عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ وَوَلداً صَالِحاً تَرَكَهُ .

أو مُصْحَفاً ورَّثَهُ أو مَسْجِداً بَنَاهُ أَوْ بَيْتاً لإبْنِ سَبِيْلٍ بَنَاهُ أو نَهراً أجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أخْرَجَهَا مِن مَالِهِ في صِحَّتِهِ وحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِن بَعْدِ مَوْتِهِ » رواه ابن ماجَهْ وابن خُزَيْمَة .

وَرَوَاهُ البَزَّارُ مِن حَدِيث أَنَس إلاَّ أنَهُ قال : « سَبْعٌ تَجْري لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وهُوَ في قَبْرِهِ مَنْ عَلَّمَ عِلْماً أَوْ كَرى نَهْراً أَوْ حَفَرَ بِئراً أَوْ غَرَسَ نَخْلاً أَوْ بَنَى مَسْجِداً أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفاً أَوْ تَرَكَ وَلَداً يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ » .

ولِلطَّبَراني عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « كُنْتُ نَهَيْتُكم عن زيارة القُبور فَزُورُوْهَا واجْعَلُوا زِيارَتَكُم صَلاة عليهم واسْتِغْفَاراً لَهُم » .

ولابْن أبي شيبةَ عن أبي جَعْفَر قال كان الحَسَنُ والحُسَين يُعْتِقَانَ عن عَلِيٍ بعد مَوْتِهِ .

وله عن الحجاج بنِ دِيْنَارٍ مَرْفوعَا « إن مِن البر بَعد البر أنْ تُصلِيَ عَلَيْهما مَعَ صَلاتِكَ وأن تَصُومَ عنهما مَعَ صِيَامِكَ وأن تَصَدَّق عنهما مَعَ صَدَقَتِكَ » .

ولِلبَيْهَقِي في سُنَنِهِ عن أبي هريرة مرفوعا : « إنَّ اللهَ لَيَرفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصالح في الجنة فيقول يا رَبِّ أنَّي لِي هَذِهِ فيَقَال بِدُعاءِ وَلَدِكَ لَكَ » وأخرجه البخاري في الأدب عنه موقوفا .

ويُرْوَى أنَّ النبي ﷺ قال : « المَيِّتُ كالغَرِيق في قَبْره يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُه

مِن ولده أو أخيه أَوْ صَدِيق لَهُ فإذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إليه مِن الدنيا ومَا فيها .

ومِمَّا يَدُلُ عَلَى وُصُـول القُـرب إلى الميت أَمْـرُهُ عليه الصلاة والسـلام بالسلام على أهلِ القُبُور والدعاء لهم وماذاك إلاَّ لِكَون الدعاء لهم والسلام عليهم يصل إليهم والله أعْلم .

قال بشرُ بنُ مَنُصور كان رَجُلٌ زمَنَ الطاعون يَخْتَلِفُ إلى المَقَابِر ثم يَسْتَقْبِلُ القُبور فَيَقُولُ أَمَّنَ اللهُ رَوْعَتَكُم وآنَسَ اللهُ وحْشَتَكُم رحم الله غُرْبَتَكُم تَقَبَّلَ الله حَسَنَاتِكم وتَجَاوَزَ اللهُ عن سَيِّئَآتكمِ لا يَزِيْدُ على هذِهِ الكلمات .

قال الرجُلُ فانْصَرِفْتُ يَوْماً ولَمْ أَدْعِ فلما كان الليل رأيتُ فيما يَرى النَّائِم خلْقاً كثيراً قد جاؤني فَقُلْتُ لَهُمْ مَنْ أنْتم قالوا أَهْلُ المقابِرِ قُلْتُ وما حَاجَتُكُم .

قالوا إنَّكَ قَدْ عَوَّدْتَنَا مِنْكَ هَدِيَّة تُهْدِيْهَا إليْنَا عِنْدَ انْصرافِكَ قُلْتُ ومَا هي قالو الدعوات التي كُنْتَ تَدْعُو بها قُلْتُ فإنِّيْ أعُوْدُ لِمَا كُنْت أدْعُوْ بِهِ قال فما تَركَتُ ذَلِكَ .

شِعْرا :

قِفْ بالقُبُور بأَكْبَـادٍ مُصَدَّعَةٍ — وَدَمْعَـةٍ مِن سَوَادِ القَلْبِ تَنْبَعِثُ
وَسَلْ بها عن أناسٍ طَالَما رشَفُوْا — ثَغْر النَّعِيْمِ وَمَا في ظِلِّهِ مَكَثوْا
مَاذَا لَقُوْا في خَبَايَاهَا ومَا قَدِمُوْا — عَلَيهِ فِيْهَا ومَا مَن أجْلِهِ أرْتَبَثُوْا
وعَن مَحَاسِنِهم أنْ كَانَ غَيَّرَهَا — طُوْلُ المَقَامِ بِبطْنِ الأَرْضِ واللَّبَثُ
وَمَا لَهُم حَشَرَاتُ الأَرْضِ تَنْهَشُهُمْ — نَهْشاً تَزُوْلُ لَهُ الأَعْضاءُ والنَّجَثُ
وتِلْكُمُ الفَتَيَاتُ إذْ طُرِحْنَ بِهَـا — هَلْ كانَ فِيْهِنَّ ذَاالتَّغْيِيْرُ والشَّعِثُ
فإنْ يُجبْكَ عَلَى لأَيٍ مُجِيْبهُمُوْا — ولَنْ يُجيْبَ وأَنَّى يَنْطِقُ الجَـدَثُ
فانْظُرْ مَكَانَكَ في أفْنَاءِ سَاحَتِهِمْ — فَإِنَّهُ الجِدُّ لَا هَزْلٌ ولَا عَبَثُ

واعْمَلْ لِمَصْرَعِ يَوْمٍ هَالَ أَوَّلُهُ ومِن أمَامَكَ فيهِ الرَّوْعُ والْجَأْثُ

اللَّهُمَّ أنْظُمْنَا في سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، واجْعَلْنَا مِنْ المُتَّقِيْنَ الذيْنَ أعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جِنَانِكَ ، وأدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ في دَارِ أَمَانِكَ ، وَعَافِنَا يَا مَوْلَانَا في الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ مِنْ جَمِيْعِ البَلَايَا وأجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِب فَضْلِكَ وَهِبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَر إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذيْنَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ والصِّدِّيْقِيْنَ وَ الشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُمْ وَ المَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَم الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْــــلٌ

فوائد ومواعــــظ

إعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أنَّ كَثْرةَ الإشتَغالِ بالدنيا وفَراغَ الجهُود فيها ، والمَيْلَ إليها بالِكليةِ ، وإلى حلاِوة أحَادِيْثها ولَذَّةِ أمَانيّهَا ، تَمْنَعُ حَرَارَةَ ذِكْرِ المَوتِ أنْ تَرِدَ على القلب ، وأنْ تَلجَ فيه ، لِأنَّ القَلْبَ إذَا امْتَلأَ بِشَيءٍ لم يَكُن لِشَيءٍ آخَرَ فيه مَدْخَلٌ ولا لِسِوَاهُ فِيْهِ مَجَالٌ .

ألَا ترى أنَّ الإناءَ إذَا مَلَأْتَهُ بِشَيءٍ لم يُمْكِنْكَ أنْ تُدْخِلَ عَليه شيئاً آخَرَ ، وَوَجْهَكَ إذَا صَرَفْتَهُ إلى مَوْضِعٍ صَرَفْتَهُ عن مَوْضِعٍ آخَرَ .

ومَتَى دَامَ القلب على هذا لم يَكُنْ لِذِكْرِ الموتِ فيه تأثِير ، ولا لِتَرْدَادِهِ حلاوة ، وكَيْفَ يؤثر فيه وهو لا يَجِدُ مَكَاناً ينزل فيه ، ولا موضعا يتعَلَّقُ به .

قد مَلاءه حُبُّ الشهوات الفانية ، واللذات المتصرِّمَة ، فَهُوَ شَبْعَانٌ رَيَّان

حَيْران سَكْرَان ، أعْمَى أصَم إنْ عُرِضَ عليه طريق لم يَرَهْ ، أو نُودِيَ باجْتِنَابِ رَدِيءٍ لَمْ يَسْمَعْ .

فإذا أَرَادَ صَاحِبُ هَذا القلب سَمَاع الحِكْمَةِ والانْتِفَاعَ بالموعظة لم يَكُنْ لَهُ بُدٌ مِن تَفْرِيْغِهِ مِمَّا شَغَلَه لِيَجِدَ التَّذَكُرُ فيه مَنْزِلا ، وتَلْقَى الموعظَةُ فيه مَحَلاً قَابِلا .

فَلَا يَزَالُ يَتَعَاهَدُهُ ويَتَفَقَّدُهُ بالأذكارِ والأفكارِ والنظرِ والاعتبارِ آناءَ الليل وأطراف النهارِ لِئلاَ يَرْجِعَ إلى مَا كَانَ عَليه مِن الطَّبْعِ والدَّنَسِ فَيَعُوْدَ إلى حَالَتِهِ الأولى من الغَيْنِ والغيم .

فإنْ لَم يَقْدَرْ على تَفْرِيغِهِ بِمَّرةٍ فَرَّغَ مِنه ما أمكن وجعَل مَكَانَ ما أَزَالَ ضِدَّهُ ، فَيَجْعَلُ مَكَانَ الغَفْلَة ذِكْراً ، ومَكَانَ الفرحِ حزْناً ومَكَانَ الاغْتِبَاطِ نَدَماً ، ومَكَانَ السَّهْوِ تَيَقُظاً ، ومَكَانَ النوم انتباهاً ، ومَكَانَ الإهمال اجتهاداً واسْتدراكا لما فاته .

وَهَكذا يُزِيْلُ شَيْئاً ويَجْعَلُ مَكَانَهُ ضِدَّهُ ويَسْتَعِيْنُ بالله الحي القيوم ويَسأَلَهُ التوفيقَ والسدادَ والتَّيْسِيْر والعَوْنَ إنه القادر على ذلك .

ثم إعْلَمْ أيها الأخ الحريصُ على حفظ وقته عن الضياع أنها إنْ قَلَّتْ أشْغَالُكَ وَقَلَّتْ عَوَائِقُكَ ثم قَعَدْتَ عن الجدّ والاجْتِهَادِ فيما يُقَرِّبُكَ إلى الله مِن أنواع الطاعات أن هذا هُو الخُذْلان أعاذَنا الله منه .

فَفَرَاغُ القَلْبِ مِن الأَشْغالِ نِعْمَةٌ عظيمة لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ إغْتنَامَهَا في البَاقِيَاتِ الصَّالحات والوَيْلُ لِمَنْ كَفَر هذه النِّعْمَةَ بإنْ فَتَحَ على نَفْسِهِ بابَ الهَوى وانْجَرَّ في قِيَادِ الشَّهْوَاتِ .

قال صلى الله عليه وسلم :« بادِرُوْا بالأعمال سَبْعَا هل تَنْتَظِرونَ إلا فقراً

مُنْسِيَا أو غِنىً مُطْغِيَا أو مَرَضاً مُفسِدا أو هَرَماً مُفْنِدا أو مَوْتاً مُجْهِزَا أو الدجَالَ فشَرُ غائِبٍ يُنْتَظَر أو الساعةَ فالساعُة أدْهَى وأمَر » .

وقال بعضهم الفِكْرَةُ سِرَاجُ القلب فإذا ذَهَبَتْ فلا إضَاءَتَ له فالقلبُ الخالي مِن الفِكْرَة خالي مِن النور مُظِلِمٌ بُوجُودِ الجهلِ والغُرور .

فَفِكْرُ الزاهِدين في فَنَاءِ الدنيا واضْمِحْلَالِهَا وقِلَّةِ وَفَائِها لِطُلّابِهَا فَيَزْدَادُوْنَ بالفِكْرِ زُهْدا فيها .

وفِكْرُ العَابدين في جَمِيْلِ الثواب فَيَزْدَادُوْنَ نَشاطاً عليه ورَغْبةً فِيْهِ .

وفكْرُ العَارِفِيْنَ في الآلَاءِ والنَّعْمَاءِ فَيَزْدَادُوْنَ نَشَاطاً في جَمِيْعِ أنْواعِ العِبَادَةَ . ويَزْدَادَوْنَ مَحبَّةً لِلَّهِ وشكراً له وحَمْداً على نِعَمه التي لا تُعَدُّ وَلا تُحصى قال الله جل وعلا : ﴿ وإنْ تعدُوا نِعمةَ الله لا تُحصُوها ﴾ .

وقال عُثمانُ بن عَفَان رضى الله عنه في خطبتِهِ (إن الله عز وجل إنما أعْطَاكُم الدُنْيَا لِتطْلُبُواْ بها الآخِرةَ ، ولم يُعْطِكُموهَا لِتركنُوا إلَيْهَا) .

إنَّ الدنيا تَفْنى والآخِرةَ تَبْقَى ، فلا تُبْطِرَنكُم الفَانيةُ ولا تشْغَلَّنَكُم عن الباقِيَةِ ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى ، فإنَّ الدنيا مُنْقَطِعَةٌ ، وانَّ المصيْرَ إلى الله .

فاتقوا اللهَ جَلَّ وَعَلا فإنَّ تَقْواهُ جُنَّةٌ مِن بَأسِهِ ، وَوَسيْلَةٌ مِن عنده ، واحْذَرُوْا مِن الله الغَيْرَة ، والزَمُوا جماعَتَكُم ولا تَصِيْرُوْا أحْزَابًا ﴿ واذكروا نعمةَ الله عَلَيْكم إذا كُنْتُم أعداء فألَّف بين قُلُوبكم فأصْبَحْتُمْ بِنِعمِتِه إخوانًا ﴾ .

وبَلغَ زَيْنُ العَابِدين مِن الدنيا أفْضَلَ ما تَسعَى إليهِ همَّةُ رَجُلٍ فَرَفَضَها ونَبذَهَا قائِلاً :(هَذَا سُرُوْرٌ لَوْلا أنَّهُ غُرُوْر ونَعِيْمٌ لَولَا أنَّهُ عن قَرِيبٍ عَدِيْم وَمُلْكٌ لَوْلَا أنَّهُ هُلْكٌ وغِنَى لَوْلَا أنَّهُ فَنَى وأمْرٌ جَسِيْمٌ لَوْلَا أنَّه ذَمِيم وارْتِفَاعٌ لَوْلَا أنَّه

اتِّضاع وحَسْبُ امْرِءٍ مِن الدُنْيَا لُقَيْماتٌ يُقِيْمُ بِها صُلْبَه وثوبٌ يِسْتُرُ به عَوْرَتَه وصِحَّةٌ يَسْتَقْوِى بِهَا على طَاعَةِ الله) هذا الزهد الصحيح لأنَّها أقْبَلَتْ عليه وَرَفَضَها .

قال بعضهم :

ازْهَدْ إذَا الدنْيَا أنَالَتْكَ المُنَى فَهناك زُهْدُكَ مِن شُـرُوْطِ الدِّيْنِ
فالزُّهْدُ في الدنيا إذَا هِيَ أعْرضَتْ وأبَتْ عَلَيْكَ كَتَـوْبَةِ العِنِّيْنِ

آخـــر :

تَصُدُّ عَن الدُنْيَا إذَا هِيَ أقْبَلَتْ وَلَوْ بَرَزَتْ في زِيِ عَـــذْراءَ نَاهِـد
إذَا المَرْءُ لم يَزْهَدْ وقَدْ صَبَغَتْ لَهُ بِعُصْفُرِهَا الدُنْيَا فَلَيْسَ بِزَاهِـــدِ

آخــر :

العَيْشُ لَا عَيْشَ إلاَّ ما قَنِعْتَ بِهِ قَدْ يَكْثُرُ المالُ والإنسانُ مُفْتَقِرُ

وقال آخرُ : إنَّ المؤمنَ أبْصرَ الدُنْيَا فَانَزَّلَها مَنْزِلَتها فإنْ هِيَ أقْبَلَتْ عليه قال لا مَرْحَبَا ولا أهلاً ، واللهِ ما أرَاكِ جِئْتِ بخير وما فيكَ مِن خير إلا أنْ تُطْلَبَ بِكِ الجَنَّة ، ويُفْتَدَي بِكِ من النار .

فإن هي أدبرت قال عليكِ العَفَاء ، وعلى مَن يَتَّبعُكِ .

الحمد لله الذي خارَ لِي وصَرَفَ عَنِّي فِتْنَتَكِ وشغلكِ .

وكان يقول إذا وَصَفَ أهلَ الدنيا حَيَارى سُكَارى ، فارسُهم يَرْكُضُ ، ورَاجِلُهم يَسْعَى سَعْيًا ، لا غَنِيُهم يَشْبَع ، ولا فَقِيرهُم يَقْنَع .

وكان يقولُ إذا وصَفَ المقْبِلَ على الدنيا ، دَائِبُ البِطْنَة ، قليل الفِطْنَة ، إنما همه بَطْنُه وفَرْجُهُ وجلْده .

مَتى أصبح فاكل وأشرَبُ والْهُوْ والْعَبُ ، مَتى أمسى فأنام ، جِيفَة بالليل بطال بالنهار .

ويحك ألهذا خُلقتَ أمْ بهذا أمِرْتَ أمْ بهذا تطلب الجنة وتَهْرَبُ مِن النار .

شــعرا :

كل امْرىءٍ فيما يدِيـنُ يُدانُ　　سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْ عِلْمِهِ مَكَانُ
يَا عَامِرَ الدنيا ليسكُنَهــا وَمَا　　هِيَ باللّتي يَبْقَى بِهَـا سُكّـانُ
تَفْنَى وتَبْقَى الأرضُ بَعْدَكَ مِثْلَمَا　　يَبْقَى المَكَانُ وتَرْحَــلُ الرُّكْبَـانُ
أأَسَرُّ بالدنيــا بكُلِّ زيــادَةٍ　　وزِيَادَتِي فيهـا هِيَ النُّقْصَــان

آخــــر :

إلى دُنْياك أنْظُرْ باعْتِبَـارٍ　　تَجِدْهَا دَارَ ذُلٍّ مَـعْ فَنَـاءِ
إلىَ كَمْ تَحْمِـلُ الأوْزارَ فيْهـا　　مَعَ الشَّهَــواتِ تَسْرِي يا مُـرَائِي
أَمَا آن انْتِبَـاهُكَ مِنْ غُـرُورٍ　　بِهِ أصْبَحْــتَ بَيْنَ الأغْبِيَــاءِ
تَيَقَّظْ وانْتَبِهْ واقْبِـلْ بِقَـلْبٍ　　عَلَى مَوْلاكَ تَظْفَــرْ باهْتِـدَاءِ
وَقِفْ بالبابِ واطْـلُبْ منهُ فتْحاً　　عَسَى تَحْظَـى بِصُبْحٍ أوْ مَسَاءِ

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغفلةِ وَنَبِّهْنا لاغتِنَامِ أوقاتِ المُهْلَةِ ووَفِّقْنا لمصالِحِنا واعْصِمْنا من قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنا بما انْطَوَتْ عليه ضمائرُنا واكنَّتْهُ سرائرُنا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمعائِبِ التي تَعْلَمُها مِنا ، وامْنُنْ علينا يا مولانا بتوبةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغْفِرْ لَنا ولوالِدِيْنَا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وآله وصحْبِه أجمعين .

فَصْــــلٌ

قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تَتَكَلَّمَنَّ فيما لا يَعْنِيْك حَتى تَرىَ لَهُ مَوْضعَا فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ بالحَقِ في غير مَوْضِعِه قَدْ عِيْبَ ، ولا تمارين سَفِيهاً ولا حليما ، فإنَّ السَّفِيْهَ يُؤْذِيْكَ ، والحَلِيْمَ يَقْلِيْكَ (أيْ يُبْغِضُكَ) .

قُلْتُ قد نَظمه الشاعِر فقال :

ولا تُمَارِي سَفِيهاً في مُحَاوَرَةٍ　　　ولا حَليماً لِكَي تنْجُو مِن الزَّلَلِ

وقال ولا تَذْكُرُنَّ أخَاكَ إذَا غَابَ عَنْكَ إلاَّ بِمثْلِ ما تحبّ أنْ يَذكُركَ به إذَا غِبْتَ عنه ، واعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أنه مَجزِيٌّ بالاحسانِ ، ومأخوذٌ بالإجْرَام .

هلاك الناس بِثلاث في الكبر ، والحرص ، والحسد ، فالكبرُ هَلاَكُ الدِين وبه لُعِنَ إبليْسُ حَيْثُ تكبر عن السُجُود لآدَمَ لما أَمَرَهُ اللهُ بالسُجُوْدِ لَهُ وَالحِرْص عَدُوُّ النَّفِسِ وبه أخرج آدم من الجنةَ نهاه الله عن الشجرة فأكَلَ مِنها ، والحَسَدُ رَائِدُ السوء وبه قَتَلِ قابِيْل هابِيل وقال ﷺ : « لا تَحَاسَدُوْا » .

ستَّةٌ يُمِتْنَ القَلْبَ إتْبَاعُ الذَّنْبِ بالذَّنْبِ وكَثْرَةُ مَجَادَلةُ النِسَاءِ ، والسُّفَهاء ، وَمُلاَحَاتُ الأحْمقِ ، ومُجَالَسَةُ مَوْتَى القُلُوب وهُمُ الأغْنِيَاءِ المُتْرَفُون المتكبرُوْن ، والسُلطانُ الجائِر ، والعَالِمُ المَفْتُونُ بالدُنْيا .

قال سَعِيدُ بنُ المُسَيَّب ما أكْرَمَتِ العِبَادُ أنْفُسَهَا بِمثْلِ طَاعةِ اللهِ ، ولا أهانَتْ أنْفُسَهَا بِمثْلِ مَعْصِيَةِ الله ، مَن اسْتَغْنَى بالله افْتَقَرَ الناسُ إليه .

وكان يَتَّجِرُ في مالِهِ ويَقُولُ اللهم إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي لم أُمْسِكْهُ بُخْلاً ولا حِرْصاً عليه ، ولا مَحَبَّةً لِلْدنيا ونَيْلِ شَهَواتهَا ، وإنَّما أرِيْدُ أنْ أصُوْنَ به وجْهِيْ ، وأَصِلُ منه رَحِمِيْ ، وأؤدِيْ مِنْهُ الحُقُوقَ التي فيه .

كَتَبَ عمُرُ بنُ الخَطَّابِ رَضىَ اللهُ عنه لِسَعْد بِبَعْضِ تَوجِيْهَاتِهِ العَسْكَرِيَّةِ يَقُول لَهُ : (تَرَفَّقْ بالمسلمين في مَسِيْرِهم ، ولا تُجَشِّمْهُمْ مَسِيْراً يُتْعِبُهُم ، ولا تُقصِّرْ بهم عن مَنْزِلِ رِفْقٍ حَتى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ والسفر لم يَنْقُصْ قُوَّتَهُم .

وأَقِمْ بِمَنْ مَعَكَ في كل جُمُعَةٍ يَوْماً ولَيْلَةً حَتَّى تكونَ لَهُمْ رَاحَةٌ يَجْمَعُوْنَ فيها أَنْفُسَهُمْ ويَرْمُون أسْلِحَتَهم وأمْتِعَتَهم .

ثم يقول وإذا وطِئتَ أدْنِي أَرْضِ العَدُوِّ فأُذْكِ العُيُون (أي أَيْقِظها) بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ حتى لا يَخْفَى عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، واخْتَرْ لِهَذا مَن تطْمَئِنُ إلى نُصْحِهِ وصِدْقِهِ ، فإنَّ الكذُوْبَ لا يَنْفَعُكَ خَبَرُهُ ، وإنْ صَدَقَ في بَعْضِهِ ، والغَاشُّ عَيْنٌ عَلَيْكَ ولَيْسَ عَيْناًلك .

قال صلى الله عليه وسلم فِيْمَا يَرْوِيهْ عن رَبِّهِ : « يا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ لِلْعِبَادَةِ فلا تَلْعَبْ وقَسَمْتُ لَكَ رِزْقَكَ فلا تَتْعَبْ .

فإن أنْتَ رَضِيْتَ بِمَا قَسَمْتُ لَكَ أَرَحْتُ قَلْبَكَ وَبدَنكَ وكنْتَ عِنْدِي مَحْمُودًا .

وإنْ لم تَرْضَ بِمَا قَسَمْتُهُ لَكَ فَوَعِزَّتِي وجلالي لأُسَلِّطَنَّ عَلَيْكَ الدنيا تَرْكُضُ فيها رَكْضَ الوُحُوش في البَرِيَّةِ ثم لا يَكُونُ لَكَ منها إلاَّ مَا قَسَمْتُهُ لَكَ وكُنْتَ عِنْدِي مَذْمُوْمَا .

يا ابنَ آدَمَ خَلَقْتُ السَّمواتِ السَّبْعَ والأَرَضِيْنَ السَّبْعَ ولَمْ أعْيَ بِخَلْقِهِر أَيُعْيِيْنِي رَغِيْفُ عَيْشٍ أَسُوْقُ لَكَ بلا تَعَبٍ .

يا ابْنَ آدَمَ إنَّنِي لَمْ أَنْسَ مَنْ عَصَانِي فَكَيْفَ مَن أُطَاعَنِي ، وأَنَا رَبٌّ رَحِيْم وعلى كل شيْءٍ قدير .

يا ابْنَ آدَمَ لا تَسْأَلني رِزْقَ غَدٍ كَمَا لَمْ أَطْلُبْكَ لِعَمل غَد ، يا أَبْنَ آدَمَ أَنَا لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِي عَلَيْكَ كُنْ مُحباً لي .

أوْصَى لُقْمانُ أبْنَهُ فقال : (يا بُنَيَّ كُنْ لَيِّنَ الجانبِ ، قَرِيْبَ المَعْرُوْفِ ، كَثِيْرَ التفكِيرِ ، قَلِيْلَ الكلامِ إلا في الحق ، كَثِيْرَ البكاء قَلِيْلَ الفَرَحِ ، ولا تُمَازِح ولا تُصَاخِبْ ولا تُمارِ .

وإذَا سَكَتَّ فاسْكُتْ في تفْكِيْرٍ وإذَا تَكَلَّمْتَ فَتَكَلَّمْ بِحِكَمٍ .

يا بُنَيَّ لا تُضَيِّعْ مالَكَ وتُصْلِحْ مَالَ غيرِكَ ، فإنَّ مالك ما قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ ، ومالَ غيرِكَ ما تَرَكْتَ وَرَاءَ ظَهْرِكَ) .

مَعْرِفَةُ الله نوعان الأول مَعْرِفَةُ إقْرَارٍ ، وهي التي اشْتَرَكَ فيها الناسُ كُلُّهم البَرُّ والفاجَرُ والمُطِيْعُ والعَاصِي .

والثاني مَعْرِفَةٌ تُوجِبُ الحَيَاءَ مِن اللهِ ، والمحبةَ لَهُ ، وتَعَلُّقَ القلب به ، والشوقَ إلى لِقائِهِ ، والخَشْيَةَ منه ، والإنابَةَ إليه ، والأُنْسَ بِهِ ، والفِرارِ إليْهِ .

قال الحَسَنُ البصري مَثَلٌ قَلَّ واللهِ مَن يَعْقِلُهُ ، شَيْخٌ كَبِيْرٌ ضَعُفَ جِسْمُهُ وكَثُر صِبْيَانُهُ أفقَرَ ما كان إلى جَنَّتِهِ فجاءها الإعْصَارُ فاحْرَقَها وإنَّ أحَدَكُم واللهِ أفقَرَ ما يكون إلى عَمَلِهِ إذَا انْقَطَعَتْ عنه الدنيا .

وقال بعضُ العُلماء : إن لِلْباقِي بالماضِي مُعْتَبَرا وللآخِرِ بالأولِ مُزْدَجَرا ، والسَّعِيْدُ لا يَغْتَرُ بالطَّمَعِ ، ولا يَرْكَنُ إلى الخِدَع ، ومَن ذكر المَنِيَّةَ نَسِيَ الأُمْنِيَّةَ ، ومَن أطَالَ الأمَلَ نسِي العَمَلَ ، وغَفَلَ عن الأجَل .

وقال بَعْضُ المُفَسِّرِيْنَ في قول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلكنكُم فَتَنْتُمْ أنفُسَكُم ﴾ قال شَكَكْتُم حتى جاء أمْرُ اللهِ قال الموت ﴿ وغَرَّكُم بالله الغَرُوْر ﴾ قال الشيطان .

وكَتَبَ عُمَرُ بنُ عبدالعزيز رحمه الله إلى يزيد بن عبدالملك : وإيَّاكَ أن

تُدْرِكَكَ الصَّرْعَةُ عند الغِرَّةِ (أي الغَفْلَة) فلا تقَالُ العَثْرَةُ ، ولا تمَكُّنُ مِنَ الرَّجْعَةِ ، ولا يَحْمِدُكَ مَنْ خَلَّفتَ عَلَى مَا تَرَكْتَ ، ولا يَعْذُرُكَ مَن تَقَـدمُ عَلَيْهِ بِمَا بِهِ اشْتَغَلْتَ .

وفي بَعْضِ الخُطب أكثِرُوا مِن ذِكْرها ذِمِ اللذات فإنكُم إنْ ذَكَرْتُمُوهُ في ضِيْقٍ وسَّعَهُ عليكم فَرَضِيتُم به فأجِرْتُمْ وإنْ ذَكَرْتُمُوهُ في غِنَى نَغَّصَهُ عَلَيْكُم فجُدْتُم بِهِ فأُثِبْتُم .

إنَّ المنَايَا قاطِعَاتُ الآمالِ ، والليالي مُدْنياتُ الآجَال ، وإنَّ المؤمِنَ بَيْنَ يَوْمَين يَوم قد مَضى أُحْصِيَ فيه عَمَلُهُ فَخُتِمَ عليه ، ويَوم قد بَقِي لَعَلَّهُ لا يَصِلُ إليه .

إنَّ العَبْدَ عند خُروجِ نفْسه وحُلُوْلِ رَمْسِهِ ، يَرَى جَزَاءَ ما أسْلَفَ ، وقِلَّةَ غِنَى ما خلَّف ، ولعله من بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، أوْ مِن حَقٍّ مَنَعَهُ .

ولبعضهم قصيدة سمَّاهَا بواعِثَ الفِكْرَةِ في حَوَادِثِ الهِجْرَة :

سِنُوا هِجْرَة المختار فيها حَوادثٌ   فَخُذْ نَثْرَها في كُلِّ عَامٍ وأُحْكِمِ
مُصَلَّى قُبَاً في (أوَّلٍ) ثُمَّ مَسْجِدٌ   بُنِيْ وبُيُوْتاً والصَّـلاةَ فأُتْمِمِ
وَتخلُفُ أذانٍ جُمْعَـةٍ مات أسْعَدٌ   بَراءٌ وعَبْدُ اللهِ أسْلَم فاسْـلِمِ
و(ثانٍ) صِيامُ فِطْرَةٍ أمّ كَعْبَـةٌ   وغـزْوَةُ وُدَّانٍ بُـوَاطَ المُغَـنَّمِ
عَشِيرٌ وبَدْرٌ عُرْسُ عائشَ مِثْلُهُ الـ   بَتُوْلُ ومَـوْتٌ لِابْن مَظْعُونَ أُكْرِمِ
سَوِيْقُ سُلَيْمٍ قَيْنُقَـاعٍ ومسْوَرٌ   ومَرْوَانُ والنُعْمانُ سُرُّوْا بِمَقْـدَمِ
كذا ابنُ زُبَيْرٍ مثل مَوْتِ رُقَيَّةٍ   أبُو بِنْتِ هِنْـدِ إنْمَارُ كَانَتْ بمَعْلَمِ
غَزَا أُحُداً في (ثالثٍ) قَتْلُ حَمْزَةٍ   وَذَا أُمِرٍ والخَمْرُ رُدَّتْ فَحَـرِّمِ
وحَمْراءُ مَعْ بَدْرٍ أخِيْراً بنَـاؤُهُ   بِزَيْنَبَ ذَاتِ البِرِّ كَسْبـاً لِمُعْدِمِ

كَذَا حَفْصَةٌ مَعْ أُمِّ كُلْثُومَ زُوِّجَتْ ... أتَى حَسَنٌ قَبْلَ الحُسَيْنِ المُقَدَّمِ
وفي (رَابعٍ) تَزْوِيْجُ هِنْدٍ مَعُوْنَةٌ ... نَضِيرٌ وقصْرٌ والتَّيَمُّم فَافْهَمِ
مُرَ يْسِيْعُ إفْك والرِّقاعُ ومَوْعِدٌ ... وَرَجْمٌ ومَوْتُ أمِّ المَسَاكِين عَظِّمِ
وصل لخوف ثم (في الخَمْسِ) خَنْدَقٌ ... قُرَيْظَةُ سَعْدٍ مَاتَ دُوْمَةُ فافهَمِ
ضِمَامٌ أتَى إسْلام عَمْرٍ وخَالِدٍ ... وعُثْمانٌ الدَّارِي التَّزَلْزُل فاعْلَمِ
وَفي (سَادِسٍ) لَحْيَانُ ذُوْ قَرَدٍ بِهِ ... حُدَيْبَةُ اسْتَسْقَى ابْنُ خَوْلَةَ أُعْظِمِ
مُقَوقِسُ أهْدَى والظهارُ وخاتَمٌ ... لِشَيْروِيَةَ الطَّاعُون حَجٌّ لِمُسْلمِ
وخَيْبَرُ في (سَبْعٍ) صَفِيَّةُ رَمْلَةٌ ... زوَاجُهُمَا ذُوْ الحَبْس آبُوْا بأنْعُمِ
قُدُوْمُ أَبِي هِرٍ هَدَانَا عَطِيَّةٌ ... قَضَى عُمْرة تَزْوِيْجُ مَيْمُونَةَ انْعُمِ
و(ثامِنُ) عامِ مُؤْتَة الفَتْحِ أُسْلمُوا ... ومَوْلِدُ إبْرَاهِيم نَجْلُ المُعَظَّمِ
حُنَيْنٌ غَلاَءٌ طَائِفٌ نصْبُ مِنْبرٍ ... وبِنْتُ رسول الله زَيْنَبُ سَلِّمِ
(بِتِسْعٍ) تَبُوكٌ والوُفُودُ وجزية ... وحَجُ أَبِي بَكْرٍ ومَوْتُ أُمِّ كُلْثُمِ
ومَاتَ أَبْنُ بَيْضَا والنَّجَاشِي وعُرْوَةٌ ... قَتِيْلُ ثَقِيْفٍ والسَّلُوْلِيِّ فافهَمِ
لِعَانٌ وَإِيْلاَءٌ وبُوْرَانُ مُلِّكَتْ ... لِقَتْلِ فَتَى شَيْروْيَةٍ بِتَظَلُّمِ
وفي (العَاشِرِ) إبْرَاهِيْمُ مَاتَ ومَوْلِدٌ ... لِنَجْلِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدُ أعْظِمِ
جَرِيْرٌ اهْتَدَى ظَلَّتْ بأَسْوَدَ عَنسَةٍ ... كُسُوْفٌ بِخُلْفٍ حَجَةٌ التَّمِ أتْمِمِ
وسَبْعٌ وعِشْرُوْنَ المَغَازِي ومِثْلُهَا ... سَرَايَاهُ مَعْ عِشْرِيْنَ أَرِّخْ لِمَقْدَمِ
أُصِبْنَا (لإِحْدَى عَشْرَةٍ) بنَبِّينَا ... فَيا عُظْمَهُ رُزْأً لَدَى كُلِّ مُسْلِمِ
بهَا بَايَعُوْا الصِّدِّيْق رِدَّةَ وأبْكِيَنْ ... لِفَاطِمَةٍ مَعْ أُمِّ أيْمَنَ واخْتِمِ

اللَّهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المُفْلِحين وأَلْبِسْنَا خِلَعَ الإِيْمَانِ واليَقِيْنَ ، وَخُصَّنَا مِنْكَ بالتَّوْفِيق المُبين ، وَوَفِّقْنَا لِقَوْلِ الحَقِ واتْبَاعِهِ وَخلِّصْنَا مِنَ البَاطِل

وابْتِدَاعِهِ ، وَكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا وَلَا تَجْعَل لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا يَدًا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغَدَا وَلَا تُشْمِتْ بِنَا عَدوّاً وَلَا حَاسِداً ، وارْزُقْنَا عِلْمَاً نافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلا ، وَفَهْماً ذَكِيّاً وَطَبْعاً صَفِيّا وَشِفَاً مِنْ كُلِّ دَاء ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فوائد ومواعظ ونصائح

مُوَاسَاةُ المؤمنين أنْواع : ومُوَاسَاةٌ بالمال ، ومُوَاسَاةٌ بالجاه ، ومواساة بالبَدَن والخدمة ، ومُوَاسَاةٌ بالنَّصِيْحَةِ والإرشاد ، إلى طرق الرشاد ، ومُوَاسَاةٌ بالدعاء ، ومُوَاسَاةٌ بالتَّوجُع لهم ، وعلى قدر إيمان الإنسان وتقواه تكون مُوَاسَاتهُ لِأَخِيْهِ .

وقال آخر لِلْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ مَوْقِفان : موقف بين يديه في الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لِقَائِه فَمَنْ قَامَ بِحَقِّ المَوْقِفِ الأولِ هُوِّنَ عَليه الموقف الثاني .

العَجَلَة تُكْنَى أُمَّ النَّدامة ، وهِيَ مِن الشيطان إلا في خَمْسَةِ أشْيَاءَ : التوبة مِن الذنب فوراً ، وتَجهيز الميت إذا خَرَجَتْ رُوْحُهُ ، وقضَاء الدين إذا وجب أداؤه ، والمُبَادَرة إلى أدَاء الفَرائِض التي فَرَضَها اللهُ جَلَّ وَعَلا عَليك ، وتَزْوِيْج البِكْرِ إذَا خَطَبَهَا كُفْؤُهَا .

وقال آخَرُ : لا تَتَكَلَّف ما لا تُطِيْق ، ولا تَتَعَرَّضْ لِمَا لَا تُدْرِك ، ولا تَعِدْ بِمَا لا تَقْدِرُ عَليه ، ولا تُنْفِقْ إلاَّ بِقَدْرِ مَا تَسْتَفِيْد ، وفي المَثل السائر مُدَّ رِجْلكَ على قَدْرِ لِحَافِكَ ، ولا تَطْلُبْ مِن الجَزَاء إلاَّ بِقَدْرِ مَا صَنَعْتَ ، ولا تَفْرَحْ إلاَّ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِه .

وقال بعضهم : إذا رَأَيْتَ الناسَ في الخَيْرِ فَنَافِسْهُمْ عليه ، وإذَا رَأَيْتَهُمْ في الشَّرِ فلا تَغْبِطْهُم فيه .

الثواء في الدنيا قليل ، والبَقاءُ هُنَاكَ طَوِيْل أُمَّتُكُم آخِرُ الأُمَمِ وأَنْتُم آخر أُمَّتِكُم وقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُم فما تَنْتَظِرُوْن .

أَمَا إنَّهُ واللهِ لَا أُمَّةَ بَعْدَ أُمَّتِكُم ولا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّكُم ، ولا كِتَابَ بَعْدَ كِتَابِكُم ، أَنْتُم تَسُوقُونَ الناسَ والساعَةُ تَسُوقُكُم ، وإنَّما يَنْتَظِرُ بأَوَّلِكُمْ أَنْ يَلْحَقَهُ آخِرُكُم .

واعِلَمْ يا ابْنَ آدَمَ أنَّكَ لَمْ تَزَلْ في هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِن بَطْنِ أمِّكَ رَحِم اللهُ رَجُلاً نَظَرَ فَتَفَكَّر وتفكَّرَ فاعْتَبَرْ وأَبْصَرَ فَصبَر فَقَدْ أَبْصَرَ أقوامٌ وَلَمْ يَصْبِروا ، فَذَهَبَ الجزعُ بقلوبهم ، ولم يُدْرِكوا ما طَلَبُوْا وَلَمْ يَرْجِعُوْا إلَى ما فارَقُوا .

قَدْ طَوَاكَ الزَّمانُ شَيْئاً فشيْئا ... وبَرَتْكَ الخُطُوب جُزْءاً فَجُزْءَا
كان ما كَانَ وانْقَضَتْ مُدَّةُ الْـ ... عُمْر وَوَلَّى الشبَابُ خَبَراً ومَرْءَا
وقَديْماً قَدْ أعْلَمْتكَ اللَّيَالِي ... أنَّ أدْوَاءَهَا تَفُوتُكَ بُرْءَا
فأَدْرِكْ منها فائِتاً بِمَتَابٍ ... بَلْ بِإيْمانٍ أنْشِيءَ اليَومَ نَشْئَا
واتَّخذْ لِلْهِيَامُ وَيْحَكَ رياً ... واتَّخِذ لِلسُّهُومِ وَيْلَكَ فَيْئَا
وإذَا ما خَرَقْتَ بالدِين خَرْقاً ... فارْفِيَنْهُ بالإنَابَةِ رَفْئَا
وإذَا ما وَرَدْتَ مَوْرِدَ دُنْياً ... فلْيَكُنْ ما وَرَدْتَ مِن ذَاكَ ضمْئا
ولْتَدَعْهَا تَخَيُّلاً وأَمَانِي ... أَلْبَسَتْ قَلْبَكَ المُغَفَّلَ صَدْأً
وَإذَا مَا الحِمَامُ جَاءَكَ يَوْماً ... لَمْ تَجِدْ مِن جَمِيْعِ ذَلِكَ شَيْئَا

اللهم انظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفْلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَع الأكبَرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنَا مَع الذين أنعمتْ عليهم مِنَ

النبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين واغفِرْ لنا ولوالِدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برَحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

فَصْـــلٌ

قال أميْرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رحمه الله إنَّما الدنيا أمَلٌ مُخْتَرم ، وأجَلُ مُنْتَقِص ، وبَلاغٌ إلى غيرها ، وسَيْرٌ إلى الموت لَيْسَ فيه تَعْرِيجٍ .

فَرَحِمَ اللهُ إمْرَأً فكَّرَ في أمْرِهِ ، ونَصَحَ لِنَفْسِهِ وَرَاقَبَ رَبَّهُ ، واسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، بِئْسَ الجَارُ الغني يَأْخُذُ بما لا يُعْطِيْكَ مِن نَفْسِهِ ، فإنْ أبَيْتَ لم يَعْذُرْكَ .

وقال إيَّاكُم والبْطنَة ، فإنَّها مكسَلَةٌ عن الصلاة ، ومُفْسِدَةٌ لِلْجِسْمِ ، ومُؤَدِّيَةٌ إلى السقم ، وعَلَيْكم بالقصد في قُوْتِكُم فَهُو أبْعَدُ عن السَّرف ، وأصَحُّ لِلْبَدَنَ ، وأقْوَى على العبَادة ، وإنْ العَبْدَ لَنْ يَهْلِكَ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَاتَهُ عَلى دِيْنِهِ .

وقال عَليُ ابنُ أبي طالب رضى الله عنه حاسبوا أنْفُسَكُم قبل أن تُحَاسَبُوا ، ومَهِّدُوا لَهَا قَبْلَ أن تُعَذَّبوا ، وتزوَّدُا لِلرَّحِيْل قَبْلَ أنْ تُزعَجُوْا ، فإنَّمَا هُوَ مَوْقِفُ عَدل ، وقضاءُ حق ، ولَقَدْ أبْلَغَ في الإعْذَارِ مَنْ تَقَدَّم بالإنْذار .

ومَرَّتْ بالحَسنِ البَصْرِي جَنَازَةٌ فقال يا لَهَا مِن مَوعِظَةٍ ما أبْلَغَهَا وأسْرَعَ نسْـيْانَها يَالهـا مَوعظة لَوْ وَاقَفَتْ مِن القُلُوب حَيَاةً ثم قال يَا لَهَا مِن غَفْلَةٍ شَامِلَةً لِلْقَوْم كأنَّهم يَرَوْنَها في النَّومِ مَيِّتُ غَدٍ يَدْفِنُ مَيِّتُ اليَوم .

شـــعرا :

ما أنْتَ والرَّشأ الأحْوَى تُغَازِلُه والرَّكْبُ تَسْأَلُ عَنْهُ بَانَةَ الوَادِي

وقَدْ أظَلَّكَ جَيْشٌ لِلَّرَدَى لَجِبٌ   كالبَحْرِ يُوصلُ أمْدَاداً بأمْدَادِ
مِن كل دَاهِيَةٍ لَوْ أنَّها مَثَلَتْ   شَخْصاً لأظْلَمَ مِنهـا كلُّ وَقَّادِ
لا يَمْنَعُ المَرْءَ منها رَأسُ شاهِقَةٍ   ولا يَرُدُّ شَبَاهَا نَسْـجُ زرَّادِ
وأنْتَ غَادٍ على ظَهْرِ الطَّرِيْقِ وَمَا   لَدَيْكَ مِن ناصِرٍ يُرْجَى ولا فَادِ
كَأنَّنِي بِكَ مَصْرُوْعاً لِوَطْأتِهِ   هَذا أوَانُ مَغَارِ الفارسِ العَادِ
قُمْ قَدْ أتِيْتَ ولا مَنْجَى ولا وزرٌ   لِلْوَيْلِ أصْبَحْتَ مِن رَكْضٍ وإنْشادِ
صِحْ بالنَّدِيِّ وبالقَصرِ المشيْدِ عَسَى   هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ كان القَصرُ وَالنَّادِ
يا رَاقِداً وعُيُونُ الموتِ سَـاهِرَةٌ   لَقَدْ أعِرْتَ لِأمر غَيْرِ رَقَّـادِ

وقال مالكُ بن دِيْنَار رحمَهُ الله رأيْتُ البادِيةِ في يَوم شَدِيْدِ البَرْدِ شاباً عليه ثوبان خُلْقَانٌ وعليه آثار الدُعَاء وأنْوَارُ الإجَابَةِ فَعَرَفْتُه وكُنْتُ قَبْلَ ذلك عَهِدْتُهُ بالبصرة ذَا ثروة وحُسْن حال وكان ذا مَالٍ وَآمَال قال فبكَيْتُ لما رأيْتُهُ على تِلْكَ الحال .

فلما رآني بَكىَ وَبَدأني بالسلام وقال لي يا مَالِكُ بن دِيْنَار ما تقول في عَبْدٍ أبَقَ مِن مَوْلاه ، فبكيتُ لِقَولِهِ بكاءً شَدِيْداً ، فَقلتُ لَهُ وهَلْ يَسْتَطِيْعُ المسكينُ ذلك ، البِلادُ بلاده ، والعِبَادُ عِبادُه ، فأيْنَ يَهْرَبُ المسكينُ .

فقال يا مالِكُ سَمِعتُ قارِئاً يَقْرَأ : ﴿ يَوْمئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخفى منكم خَافية ﴾ فأحْسَسْتُ في الحال بنارٍ وَقَعَتْ بَيْنَ ضُلُوْعِي فلا تَخْمُدُ ولا تَهْدَأ مِن ذلك اليومِ ، يا مالِكُ أتَرَانِيْ أرْحَمُ وتَطْفَأُ هَذِهِ الجمرةُ مِن قَلْبِي .

فقَلْتُ لِهُ أحْسِنِ الظَّنَ بِمَوْلاكَ فإنه غَفُورٌ رحيم ثم قُلْتُ له إلى أيْنَ قال إلى مكة شرفَهَا الله تعالى لَعَلِّي أنْ أكُونَ مِمَّنْ إذَا التجأ إلى الحرم استَحَقَّ مُرَاعَاةَ الذِّمَمِ .

قال مَالِكُ فَفَارَقني ومَضى فتَعَجَّبْتُ من وُقُوعِ الموعِظَةِ مِنْهُ مَوْقِعَهَا ، وما تأجج بين جَنْبَيْهِ مِن نَارِ التيقُظ والإنابة وما حَصَل عليه من صدق وحُسْنِ الاسْتِمَاع .

وذِيْ بَيَانٍ إذَا مَا قَالَ أوْ خطبَا ... أتى بِلَفْظٍ يَزِيْنُ القَوْلَ وَالخُطَبا
أتى بسَهْلٍ مِن الألْفاظِ مُمْتَنِعٍ ... جَزْلٍ يُصِيبُ المَعَاني آيَةً عَجَبَا
فَلَوْ تمَيَّعَ أضْحَى مَشْرَباً سَلِساً ... ولو تَجَسَّدَ أضْحَى خالِصاً ذَهَبَا
رَمَتْهُ هَذِي المنايَا وهْيَ صَائِبَةٌ ... سَهْماً فما هُوَ إلاَّ أنْ رَمَتْهُ كبَا
فأخْرَسَتْهُ فما يُبْدِي بِضَاحِكَةٍ ... ولا يَرُدُّ جَوَاباً هَانَ أوْ صَعُبَا
وبَاتَ مُطَّرَحاً في قَعْرِ مُوْحِشَةٍ ... غَبْرَاءَ مُصْطَفِقَ الأحْشَاءِ مُسْتَلِبَا
أعْطَي يَدَيْهِ لِدُنياهُ بِمَا طَلَبَتْ ... إذ أُدْرِكَ الدُّوْدُ مِن جَنْبَيْهِ ماطَلَبَا

اللهمَّ انظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الدين ، واحشُرْنا مَعَ الذين أنعمتْ عليهم من النبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحين واغفرْ لنا ولوالِدِينا ولجميعِ المسلمين الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

فَصْـــلٌ

واحْتضِرَ أحَدُ العُبَّادِ فقال ما تأسِفي على دار الهُمُومِ والأنكادِ والأحْزَان والخطايا والذُنوب وإنما تأسِفي على لَيْلَةٍ نِمْتُهَا ويوم أفطَرتُه وساعة غَفَلْتُ فيها عن ذكر الله ثمَّ مات رحمه الله .

ولما حَضرتْ إبراهِيْمَ النَّخَعي الوَفَاةُ بَكَى فقِيْلَ لَهُ في ذَلِكَ فقال إني أنتَظِرُ رسولاً يَأتِيني مِنْ رَبي لا أدْرِي هَلْ يُبَشِّرُني بالجنة أوْ بالنار .

ولَمَّا احْتُضِر سَلمانُ الفَارِسي رضى الله عنه بكى ، فقيل له ما يُبْكِيْكَ ، فقال والله ما أبكي جزعاً مِن الموت ولا حرصاً على الدنْيَا ، وَلكن عَهْدٌ تعَهدَهُ إلَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ قال لِيَكُنْ بَلاغُ أحَدِكم كَزَادِ الراكِبِ فَلَمَّا مَاتَ نَظَرُوْا في جَمِيْع ما تَرَكَ فإذا هُوَ ثَلاثُون دِرْهَمَا وكان أمِيْراً على المَدائِنِ ، مدائن كِسْرى .

ويروى أنَّ عَمْر بن العاص رضى الله عنه لَمَّا دَنَا مِنْهُ الموتُ دَعَا بِحَرَسِهِ ورجاله فلما دخلوا عليه قال هَلْ تُغْنُونَ عَنِّي من الله شَيْئًا قالُوا لَا قال فاذْهَبُوا وتَفَرقُوا عَنِي .

ثم دَعَا بماءٍ فَتَوَضَأَ فأَسْبَغَ الوضوء ثم قال احْمِلُوني إلى المسجد فَفَعَلُوا وحَمَلُوه فقال اسْتَقْبِلُوا بي القِبلة فَفَعَلُوا .

فقال اللهم إنكَ أمَرْتَني فَعَصَيْتُ وائتَمنْتَنِيْ فَخُنْتُ وحَدَّدْتَ لِيْ فَتَعَدَّيْتُ اللهم لا بَرِيْءٌ فأَعْتَذِرْ ولا قَوِيٌ فأنْتَصِرْ بل مُذْنِبٌ مُسْتَغْفِرٌ لا مُصِرٌ ولا مُسْتَكْبِر .

ثم قال : (لا إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّيْ كُنْتُ مِن الظالمين) فلم يزل يُرِدِّدُهَا حَتَّى مَاتَ .

ولَمَّا حَضَرَتْ مُعَـاوِيَةُ الوفاةُ رضى الله عنه قال أَقْعِدُوْني فَأَقْعَدُوه فَجَعَل يَذْكُر اللهَ ويُسَبِّحُهُ ويُقَدِّسِهُ .

ثم قال مُخَاصِماً نَفْسَهُ الآنَ تَذْكَر رَبَّكَ يا مُعَاوِيَةُ بعد الإنْحِطَامِ والإنْهِدَامِ ألا كانَ ذلكَ وغُصْنُ الشَّبابِ نَضِيرٌ رَيَّان وبَكَا حَتَّى عَلا بُكَاؤُه ثم قال :

هُوَ المَوْتُ لا مَنْجى مِن الموتِ والذي أُحاذِرُ مِنْهُ المَوْتَ أَدْهَى وأَفْظَعُ

ثم قال يا ربِّ ارْحَمِ الشيخَ العَاصِي ذَا القَلْبِ القَاسِي ، اللَّهُمَّ أَقِلِ العَثْرَةَ ، واغْفِرْ الزَّلَّةَ ، وجُدْ بِحلْمِكَ عَلى مَنْ لَمْ يَرْجُ غَيْرَكَ ، ولا وَثِقَ بأَحَدٍ سِوَاكَ .

ثم قال لابنه يزيد يا بُنَيَّ إذَا وَفَى أَجَلِي فاعْمِدْ إلى المَنْدِيْلِ الذي في الخِزَانَةِ فإنَّ فيه ثَوْباً مِن أَثْواب النبي ﷺ وقُرَاضَةً مِنْ شَعَرِهِ وأَظْفَارِهِ ، فاجْعَلِ الثَّوبَ مما يَلِيْ جَسَدِيْ واجْعَلْ أَكْفَانِي فَوْقَهُ واجْعَلِ القُرَاضَةَ في فمِي وأَنْفِي وعَيْنِي .

فإنْ نفعَنِي شيءٌ فَهَذَا فإذا جَعَلْتُمُونِي في قَبْرِيْ فَخَلُوْا مُعَاوِيَةَ وأَرْحَمَ الراحِمين .

ويُرْوَى أَنَّهُ قال في جُمْلَةِ ما قال : يا لَيْتَنِي كُنْتُ رَجُلاً مِن سَائِرِ قُرَيْش بِذِي طُوَى ولَمْ أَلِ مِن هَذَا الأَمْرِ شَيْئًا .

ولما حَضرَتْ أبا هُريرة الوَفَاةُ بَكَى فَقِيْلَ لَهُ مَا يُبْكِيْكَ فقال يُبْكِيْنِي بُعْدَ المفازة ، وقِلَّةُ الزَّادِ ، وضُعْفُ اليَقِين ، والعَقَبَةُ الكَؤُوْد الَّتي المَهْبَطُ منها إما إلى الجنةِ وإمَّا إلى النار .

ولما حَضَرَتْ حُذَيْفَةُ بن اليَمَاني الوَفَاةُ قال اللهم إني كُنْتُ أَخَافُكَ وأنا اليومَ أَرْجُوْكَ اللهم إنك تعْلَمُ أني لم أَكُنْ أُحبُّ البَقَاءَ في الدنيا لِجَرْيِ الأنهارِ ولا لِغَرْسِ الأَشجار ولكن لِظمأ الهَوَاجِر وقِيَامِ الليلِ ومكابَدَةِ الساعاتِ ومُزَاحَمَةِ العلماء في حلق الذكر .

ولَمَّا اشتد به النزع جَعَلَ كُلَّمَا أَفَاقَ مِن غَمْرَةٍ فَتَحَ عَينيهِ وقال يا رَبِّ شَدِّدْ شِدَّاتِكَ واخْنِقْ خَنَقَاتِكَ فَوعِزَّتِكَ لَتَعْلَمُ أني أحِبُّكَ .

ولَمَّا نَزَلَ الموتُ بِمُحَمَّدِ بن المنكدر بَكَى فَقِيْلَ لَهُ ما يُبْكِيْكَ فقال ما أبْكي حِرْصاً عَلَى الدُنْيَا ولا جَزَعاً مِن الموت ولكن أبْكي عَلَى ما يفُوتُنِي مِن ظَمأ الهَوَاجِرِ وقِيَامِ ليالِ الشِتَاءِ .

ويُرْوَى عن فاطِمةَ بنْت عَبْدِالملكِ بنِ مَرْوَانَ إمْـرَأةُ عُمَرَ بن عبدالعَزيز أنها قالت كُنْتُ أسْمَعُ عمر في مرضه الذي ماتَ فيه يَقُول اللهم أخْفِ عَلَيهِم مَوْتي ولو ساعةً مِن نهار .

فلما كان اليوم الذي ماتَ فيه خَرَجْتُ مِن عِنْدِهِ فَجَلَسْتُ في بَيْتٍ قَرِيْبٍ مِنه بَيْنِي وبَيْنَهُ باب فَسَمِعْتُه يَقُول : ﴿ تِلْكَ الدارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا للذين لا يُريدون علواً في الأرض ولَا فَسَاداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ثم بعد هذا لم أسْمَعْ له حرَكَةً ولا كلاماً فَقُلْتُ لِوَصِيْفٍ عنده (أي خادِم) أُنْظُرْ إلى أمِير المؤمنين ما صَنَعَ فلما دَخَلَ عليها صَاحَ فأسْرَعْتُ إليْهِ فإذا هُوَ مَيِّتٌ رحمَهُ اللهُ .

تَفَانَوا جَمِيْعاً فلا مخْبِرٌ ... ومَاتُوا جَمِيْعاً ومَاتَ الخَبَرْ
وصَارُوْا إلىْ مَالِكٍ قاهِرٍ ... عَزِيْزٍ مُطَاع إذَا مَا أمَرْ
تَرُوْحُ وتَغْدُ بَنَاتُ الثَّرى ... وتَمْحُوْ مَحَاسِنَ تِـلْكَ الصُوَرْ
فَيَا سَائِلِي عن أُنَاسٍ مَضَوْا ... أمَالَكَ فِيْمَا تَرَى مُعْتَـبَرْ
لَقَدْ لَقَى القَـومُ ما قَدَّمُوْا ... فإمَّا نَعِيْمٌ وإمَّا سَـقَرْ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإيْمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابت في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ والْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وَيَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

ولَمَّا حَضَرَتْ محمدُ بنُ سِيْرِيْن الوَفَاةَ بَكَى فَقِيلَ لَهُ ما يُبْكِيْكَ فقال أبْكِي لِتَفْرِيْطي في الأيامِ الخاليةِ وقِلةِ عَمَلِي لِلْجَنَّةِ العَالِيةِ وما يُنْجِيْنِيْ من النارِ الحَامِية .

ولَمَّا حَضَرَ أَبَا عَطِيَّة الموتُ جَزِعَ فقالوا له أتجْزَعُ مَن الموت فقال وَمَا لِيَ لا أجْزَعُ وإنما هي سَاعَةٌ فلا أدْرِي أيْنَ يُسْلَكُ بِيْ .

وكان الجُنيْدُ يَقْرَأُ القُرآن وهو في سِيَاقِ الموتِ ويُصَلِّي فَخَتَمَ فَقِيْلَ لَهُ في مِثْلِ هذِهِ الحَالِ يَا أبَا عَلِي فقال ومَن أحَقُ مِنِّي بذالك وهَا هُوَ ذَا تُطْوَى صَحِيْفَةُ عَمَلِي ثم كَبَّرَ ومَاتَ .

ولَمَّا نَزَلَ الموتُ بسليمان التَّيْمِي قيل أَبْشِرْ فَقَدْ كُنْتَ مُجْتَهِداً في طاعةِ الله تعالى فقال لا تقولوا هكذا فإني لا أدْرِي ما يَبْدُوْلِي مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ فإنَّهُ سُبحانه وتعالى يَقُول : ﴿ وبَدَا لَهُم مِن الله ما لم يكُونُوا يَحْتَسِبُوْن ﴾ قال بَعْضُهم عَمِلُوا أعْمَالاً كانُوا يَظُنُونَ أنَّهَا حَسَنَاتٍ فوجَدُوها سَيِّآت .

ولَمَّا حَضَرتْ الفُضَيلَ بنُ عِيَاضٍ الوَفَاةُ غُشْيَ عليه ثم أفاق وقال يا بُعْدَ سَفَرِي وقِلَّةَ زَادِي .

ولَمَّا حَضَرتْ الوَفاةُ عامِرَ بنَ قِيْسٍ بَكَى فقيل لَهُ ما يبْكَيْكَ قال أبْكِي لقوله تعالى : ﴿ إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِن المتقين ﴾ .

قال بعضهم يوبخ نفسه ويعظها ، يا نَفْسُ بادري بالأوقات قبل إنْصِرامِهَا ، واجتهِدِي في حراسة لَيَالي الحَيَاة وأيامها .

فكأنكِ بالقبور وقد تشَقَّقَتْ ، ، وبالأمور وقد تَحَقَّقَتْ ، وبوجوه المتقين وقد اشرقت ، وبرؤس العُصَات وقد أُطْرَقَتْ قال تعالى وتقدس : ﴿ ولو ترى

إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ يا نَفْسُ أما الوَرِعُونَ فقد جَدُّوا ، وأمَّا الخائِفون فقد استعدوا ، وأما الصالحون فقد فَرِحُوْا ورَاحُوا وأما الوعِظُونَ فقد نَصَحوا وصاحُوا العلْمُ لا يَحْصُلُ إلاَّ بالنَّصَب والمالُ لا يَجْمَعُ إلاَّ بالتَّعب أيهَا العبدُ الحَريص على تخليص نفسه إنْ عَزَمَتْ فبَادِرْ وإنْ هَمَمْتَ فثابر ، واعلم أنه لا يُدْرِكَ العز والمَفَاخِر مَن كانَ في الصف الآخِرْ .

وقال آخر إذا أَرَدْتَ اللّحَاقَ بالمجُدين وأنْتَ صَادِق فاجْعَلْ نَصْبَ عَيْنَيكَ قول الله جل وعلا : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُ نَفْس ما عَمِلَتْ من خير محضرا وما عملت من سوء تود لَوْ أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَومَ تبلو كلُ نَفْس ما أسلفت ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واستمع يومَ يناد المنادي من مكان قريب يوم يَسمعُون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ وَتَفكَّرْ في بَهْتِكَ وحَيْرَتك وذُلِكَ وانْكِسارِكَ وافْتِقَارِكَ وَقِلَّتِكَ وقَلَقِكَ وانْزعَاجِكَ يَوْمَ لا تجِدُ إلاَّ عَمَلَكَ الذي عَملْتَ وسَعْيَكَ الذي سَعَيْتَ .

ثُمَّ تَفَكَّرْ – بَعْدَ تَفكُّرِ فِيْمَا سَبَقَ – في الصِّرَاطِ ، الذِيْ هُوَ الجَسْرُ المنصُوْبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ ، بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنارِ ، خَرَّجَ البَيْهَقيّ مِنْ حَدِيْثِ زِيَادٍ النُّمَيْرِيّ ، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : « الصِّرَاطُ كَحَدِّ الشَّفْرَةِ ، أوْ كَحَدِّ السَّيْفِ ، وَأنَّ الملائِكَةَ يُنَجُّوْنَ المُؤْمِنِيْنَ ، وأنَّ جِبْرِيْل لآخِذٌ بِحُجْزَتِي ، وأنِّي لأَقُولُ يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، فالزَّالُّوْنَ والزَّالَّاتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ » وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدِ الخُدْرِيّ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَم فذَكَرَ حَدِيْثاً طَوِيْلاً قالَ فِيْهِ « ثُمَّ يُضْرَبُ الجَسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ ، فَيَقُولُونَ اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الجَسْرُ ؟ قَالَ : « دَحْضٌ مَزَلَّةٌ ، فِيْهِ خَطَاطِيْفُ وَكَلَالِيْبُ ، وَحَسَكَةٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ ، فِيْهَا

شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ المُؤْمِنُ كَطَرْفِ العَيْنِ وَكَالبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمُكَرْدَسٌ عَلَى وجْهِـهِ في النَّارِ » خَرَّجَاهُ في الصَّحِيْحَيْنِ .

شِـــعْرًا :

واذكَر رُقَادَكَ في الـثَّرى ... في قَعْـرِ مُظْلِمَـةٍ بِهَـيمْ
قد نُحِيَتْ تِلْـــكِ الحُـلَى ... واستُبْدِلَتْ تِلْكَ الرُّسُــومْ
وتُرِكْتَ وَيْحَـــكَ مُفْــرَداً ... لَا أَهْـلَ فِيْـهِ ولا حَمِـيْمْ
حَـيْرانَ تَفْـزَعَ لِلْبُـكَا ... لَهْفَـانَ تَأْنَسُ بالغُمُـــوْمْ
حَتَّى يُنَـــادَي بالـوَرَى ... فَتَقُـوْمُ أَسْـرِعَ مَا تَقُـوْمْ
عَرْيانَ مُصْطَفِـــقَ الحَشَـا ... هَيْمَانَ مُجْتَـمِعَ الهمُـوْمْ
والنـاسُ قَدْ رَجَفَتْ بِهِـمْ ... حَرْبٌ هُنـا لِكُمُوا عَقِيْمْ
في مَأْزِقٍ تَهْفُـــوْ بِـهِ ... لَفَحَـاتُ نِيْرانِ السُّمُـوْمْ
وَبَدَتْ هُنَـاكَ سَـرائِرٌ ... قَدْ كُنْتَ قَبْلُ لهـا كَتُـوْمْ
وَرَأَيْتَ في مَحْصُـــوْلِهَا ... ما شِـئْتَ مِنْ خُسْرٍ وشُوْمْ

اللَّهُمَّ نَجِّنا برحمتِكَ مِن النارِ وعافِنا مِن دارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وادْخِلْنا بفَضْلِكَ الجَنَّةَ دارَ القرارِ وتامِلْنا بِكَرَمِكَ وَجُودِكَ يا كَرِيمُ يا غَفَّارُ واغْفِرْ لَنا ولوالِدِيْنَا ولِجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منْهم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصِحْبِهِ أجمعين .

فَصْـــل وَخَرَّجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أَبِيْ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ ، عَنْ أَبِيْ حَازِمٍ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ، وَأَبِيْ مَالِكٍ ، عَنْ رَبْعِيّ ، عَنْ حُذَيْفَةَ كِلَاهُمَا عَنْ النبي صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ فذكَرَ حَدِيْثَ الشَّفَاعَةِ ، وَفِيْهِ قَالَ : « فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عليه

وَسَلَّمَ ، فَيَقُومُ ، وَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرسَلُ مَعَهُ الأَمَانَةُ والرَّحِمُ ، فَيَقُومَانِ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِيْنَاً وَشِمَالًا ، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كالبَرْقِ » قالَ قُلْتُ : بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ البَرْقِ ؟ قالَ : « أَلَمْ تَرَ إِلَى البَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ ، وَأَشَدِّ الرِّجَالِ ، تَجْرِيْ بِهِم أَعْمَالُهم ، وَنَبِيُّكُم صَلَّى اللهُ عليه وَسَلم قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، حَتَّى تَعْجَزُ أَعْمَالُ العِبَادِ ، وَحَتَّى يَجِيْءُ الرَّجُلُ ، فلا يَسْتَطِيْعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفَا » قَالَ : « وفي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيْبُ مُعَلَّقَةٌ ، مَأْمُورَةٍ بِأَخذِ مَنْ أُمِرَتْ بِأَخْذِهِ فَمُخَدَّشٌ ناجٍ ، وَمُكَرْدَسٌ في النَّارِ » وَالذِيْ نَفسُ أَبِيْ هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعِيْنَ خَرِيْفاً .

وَرَوَى أَبُو الزَّعْرَاءِ عَنْ أَبْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : يَأْمُرُ اللهُ بالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ ، فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم زُمَراً زمراً ، أَوَائِلُهم كَلِمْحِ البَرْقِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيْحِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ ، ثُمَّ كَمَرِّ البَهائِم ، حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ سَعْياً ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ مَشْياً ، حتى يَجْيءَ آخِرُهم يَتَلَبَّطُ على بِطْنِه ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ لِمَ بَطَّأْتَ بِيْ ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي لَمْ أُبطِيءْ بِكَ ، إِنَّمَا بَطَّأَ بِكَ عَمَلُكَ » ، وَذَلِكَ أَنَّ الإِيْمَانَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ في الدُّنْيَا ، هُوَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمُ في الدُّنْيَا ، الذي أَمَرَ اللهُ العِبَادَ بِسُلُوكِهِ ، والاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِسُؤَالِ الهِدَايَةِ ، فَمَنْ اسْتَقَامَ سَيْرُهُ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ في الدّنْيَا ، وَلَمْ يَنْحَرِفْ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً اسْتَقَامَ سَيْرُهُ عَلَى الصِّرَاطِ المَنْصُوبِ عَلَى مَتْنِ جهنمَ وَمَن لَمْ يَسْتَقِمْ سَيْرُهُ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ في الدُّنْيَا بَلْ انْحَرَفَ عَنْهُ إِمَّا إلى فِتْنَةِ الشُّبُهَاتِ أَوْ إِلَى فتْنة الشهوات كان اختطافُ الكَلاليب لَهُ على صراط جَهَنَّمَ ، بِحَسَبِ اخْتِطَافِ الشُّبُهَاتِ والشَّهَواتِ لَهُ عَنْ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ .

فَفَكِّرْ في أَهْوَالِ الصِّرَاطِ وَعَظائِمِهِ ، وَمَا يَحِلُّ بالإِنْسَانِ مِنْ الذُّعرِ وَالخَوْفِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، وَوُقُوعِ بَصَرِكَ عَلَى جَهَنَّمَ مِنْ تَحْتِهِ ، وَسَمَاعِكَ

شَهِيْقَهَا وَتَغَيُّظَهَا عَلَى الكَفَرَةِ ، وَقَدْ اضْطُرِرْتَ إلَى أنْ تَمْشِي على الصِّرَاطِ الذِيْ مَرَّتْ صِفَتُه وَصِفَةُ المُرُوْرِ عَلَيْهِ ، مَعَ ضَعْفِ حَالِكَ ، وَكَوْنِكَ حَافِياً عَارِياً ، وَثِقَلِ الظَّهْرِ بالأَوْزارِ عَنْ المَشْيِ في الأَرْضِ المُسْتَوِيَةِ ، فَضْلاً عَنْ المَشْيِ عَلَى الصِّرَاطِ ، فَتَصَوَّرْ وَضْعَكَ رِجْلَكَ عَلَيْهِ ، وإحْسَاسَكَ بِحِدَّتِهِ ، وأَنْتَ مُضْطَرٌّ إلَى أنْ تَرْفَعَ رِجْلًا وَتَضَعَ الأُخْرَى ، وأنْتَ مُنْدَهِشٌ مِمَّا تَحْتَكَ وَأَمَامَكَ ، مِمَّنْ يَثْبُتُوْنَ ، وَآخرُونَ يَزِلُّونَ ، وَآخَرُونَ يُخْطَفُونَ بالخَطَاطِيْفِ وبالكَلَالِيْب ، وَالعَوِيْلُ وَالبُكَاءُ تَسْمَعُ لَهُ تَتَابُعاً وَدَوِيّاً ، وَتَنْظُرُ الذِيْنَ يَنْتَكِسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِم ، وَآخَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِم ، فَتَعْلُوا الأَرْجُلُ ، فَيَا لَهُ مُنْ مَنْظَرٍ فَظِيْعٍ ، وَمُرْتَقىً مَا أَصْعَبَهُ ، وَمَجَازٍ مَا أَضْيَقَهُ ، وَمَكانٍ مَا أَهْولَهُ ، وَمَوْقِفٍ ما أَشَقَّهُ ، وَكَأَنِّيْ بِكَ مَمْلُوءٌ مِنْ الرُّعْبِ والذُّعْرِ ، تَلَفَّتُ يَمِيْناً وَشِمَالًا إلَى مَنْ حَوْلَكَ مِنْ الخَلْقِ ، وَتُجِيْلُ فِيْهِم بَصَرَكَ ، وَهُمْ يَتَهَافَتُونَ قُدَّامَكَ في جَهَنَّمَ ، وَالزَّعَقَاتُ بالوَيْلِ وَالثُّبورِ قَدْ ارْتَفَعَتْ مِنْ قَعْرِ جَهَنَّمَ ، لِكَثْرَةِ مَنْ يَزِلُّ عَنْ الصِّرَاطِ ، وَالنَّبيُّ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ يَقُولُ : « رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ » فَتَصَوَّرْ لَوْ زَلَّتْ قَدَمُكَ ، فَهَلْ يَنْفَعُكَ نَدَمُكَ ، وَتَحَسُّرُكَ في ذلِكَ الوَقْتِ كلا ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنْسانُ وَأنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .

أَجْنِبْ جِيَاداً مِن التَّقْوى مُضَمَّرةً لِلْسَّبْقِ يَومَ يَفُوزُ الناسُ بالسَّبَقِ
تَمُرُّ مَرَّ الرِّيَاحِ الهُوْجِ عَاصِفَـةً أَوْ لَمْحَةِ البَرْقِ إذَا يَجْتَازُ بالأُفُقِ
وَارْكُضْ إلَى الغَايَةِ القُصْوى وخَلِّ لَهَا عِنَانَ صِدْقٍ رَمَى في فِتْيَةٍ صُدُقِ
فإنَّ خلْفَكَ أعْمَـالاً مُثَبِّطَـةً ولَسْتَ تَنْهَضُ إلاَّ وَيْكَ بالعَنَقِ
كَمْ حَلَّ عَزْمَكَ مِن دُنْيـاً مُعَرِّجَة بِقَصْدِكَ اليومَ عن مَسْلُوْكَةِ الطُّرقِ
يَا غَافِلاً والمَنَايَا مِنْهُ ذَاكِرَةٌ وَضَاحِكاً والرَّدَى مِنْهُ عَلى حَنَقِ
قَطَعْتَ عُمْرَكَ في سَهْو وفي سِنَةٍ ومِنْ أَمَامِكَ لَيْلٌ دَائِمُ الأرَقِ

وَرَبَّ رَأيٍ تَراهُ اليَوْمَ في سَفَهٍ عَقْلاً تَرَاهُ غداً في غايَةِ الخَرقِ

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى النَّجاةَ مِنْهَا وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلأَعْمَالِ المؤَهِّلَةِ لِدَارِ الخُلْدِ وَأَنْ يُوَفق وَلاتَنا لِلقِيَامِ عَلى هَؤلاَءِ المجْرِمينَ ، وَرَدْعِهِمْ والزَامِهِمْ سُلُوْكَ طُرِقِ الحَقِّ إنهُ القَادِرُ عَلَى ذَلِكَ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْ في قُلُوبِنَا نُوْراً نَهْتَدِي بِهِ إلَيْكَ وَتَوَلَّنَا بِحُسْنِ رَعَايَتِكَ حَتَّى نَتوكَلَ عَلَيْكَ وَارْزُقْنَا حَلاوَةَ التَّذَلُّلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْـــلٌ

إعْلَمْ أيها الأخ أن جميع مُصِيْبَاتِ الدنيا وشُرُوْرَهَا وأَحْزَانَها كأحلام نوم أَوَ كَظِلٍ زائل .

إنْ أضحَكَتْ قليلاً أبْكَتْ كثيرا وإنْ سَرَّتْ يَوماً أو أيَّاماً سَاءَتْ أشْهُراً أو أعْوَاماً وإنْ مَتَّعَتْ قليلاً مَنَعَتْ طَوِيْلا .

وما حَصَلَ لِلْعِبْدِ فيها مِن سُرُوْر إلاَّ أَعْقَبَهُ أحْزَانٌ وشُرور كما قيل « مَن سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أزْمَانُ .

وقال بعضُ العُلماء لِبعضِ الملوك إن أحَقَّ الناس بِذَمِّ الدنيا وقِلَاهَا مَن بُسِطَ له فيها وأُعْطِيَ حاجَتَه منها .

لأنه يَتوقَّعُ أفَةً تَعْدُو على ماله فَتَجْتَاحُهُ ، أو على جَمْعِهِ فَتُفَرِّقَهُ ، أو تأتِي سُلطانَه فَتَهْدِمَه من قَواعِدِه .

أو تَدِبُّ إلى جِسْمِهِ فتسقِمُهُ ، أوْ تفْجَعُهُ بِشَيءٍ هُوَ ضَنِيْنٌ بِهِ مِن أحْبَابِهِ .

فالدنيا أحَقُ بالذَّم هيَ الآخِذَةُ لِمَا أعْطَتْ ، والراجِعَةُ لِمَا وهَبَتْ .

بَيْنَمَا هِيَ تُضْحِكُ صاحِبَهَا إذَا هِيَ تُضْحِكُ منه غَيْرَهُ .

وبَيْنَمَا هي تَبْكِي لِهُ إذْ بَكَتْ عليه .

وبِيْنَمَا هِيَ تَبْسُطُ كفَّهُ بالإعْطاءِ إذْ بَسَطَتْهَا بالاسترداد .

تَعْقِدُ التَّاجَ علَى رَأس صَاحِبِهَا اليومَ وتُعَفِّرُهُ بالتُراب غَداً .

سَواءٌ عليها ذَهَابُ ما ذَهَبَ وبَقَاءُ ما بَقِي تَجِدْ في البَاقي مِن الذاهِبِ خَلَفَا وتَرْضَى بِكُلِّ مِن كُلِّ بَدَلَا .

شِــعْرَا :

بأمْرِ دُنْياك لا تَغْفَلْ وكُنْ حَذِراً فَقَدْ أبانَتْ لأرْباب النُّهَى عِبَرَا
فأيُّ عَيْشٍ بِهَا شَــابَهُ غِيَرٌ وَأيُّ صَفْوٍ تَنَاهَى لم يَصِرْ كَدِرَا

آخــر :

أنْظُرْ إلى الدُّنْيَابِعَــيْنِ بَصِــيْرَةٍ ودَعِ الشَّــاغُلَ بالذي لاَ يَنْفَــعُ
كَمْ رَامَهَا فيما مَضَى مِنْ جَاهِلٍ لِيَفُوْزَ مِنْهَا بالذُي هُــوَ يطْمَعُ
ويَكُونَ فيها آمِــناً في سِــرْبِهِ لا يَخْتَشِيْ رَيْبــاً ولا يَتَوَقَّعُ

قَالَ بَعْضُهم أيُّها الناسُ إنَّ الدنيا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارِكُمْ ، ولا مَحَلٌ إقامتكم دَارٌ كَتَبَ اللهُ على أهلها الفَنَاءَ وأوجَبَ منها على أهلها الرحيْلَ فكم مِن عَامِرٍ مُوْنِقٍ ومُحَسّن عَمَّا قَلِيْلٍ سَتَخْرَبُ عِمارَتُه ، وكم مِن مُقِيْمٍ مُغْتَبِطٍ سَيَرحَل إلى المقْبَرَةِ .

فَأحْسِنُوا رَحِمكُم اللهُ منها الرِّحْلَةَ واحْمِلُوا خَيْرَ ما يَحْضُرُكم للنُّقْلَةِ ، وتَزَوَّدُوْا فإنَّ خَيْرَ الزَادِ التَّقْوى .

إن الدنيا كَظِلٍ قلّصَ فَذَهَبَ بَيْنَما ابنُ آدَمَ يُنَافِسُ فيها وعَلَيْهَا يُضَارِب إذْ دعاهُ اللهُ بقَدَرة وَوَفَاهُ يَوْمَ حَتْفِهِ فَسَلَبَهُ آثارَهُ ودُنْيَاهْ ، وَصَيَّر لآخِرِيْنَ مَصَانِعَه ومغناه ، أنَّ الدنيا ما تَسُرُّ بِمقْدَارِ ما تَضُر إنَّها تَسُرّ قليلاً ، وتُحْزِنُ حُزْناً طَويلاً .

شِـــعْرا :

غَرَّتْ زَمَاناً بِمُلْكٍ لا دَوَامَ لَهُ جَهْلاً كَمَا غَرَّ نَفْساً مَنْ يُمَنِّيْهَا
وصَبَّحَتْ قَومَ عَادٍ في دِيَارِهُمُ بِمُفْظِعٍ يَوْمَ عَادَتْهُم عَوَادِيْهَا
وتُبّعاً وَثَمُوْدَ الحِجْـــرِ غادَرَهُمْ رَيْبُ المُنونِ رَمَيْماً في مَغَانِيْهَا
فَكَيْفَ يَبْقَى على الأَحْدَاثِ غَابِرُنَا كأنَّنـا قَدْ أَظَلَّتْنَا دَوَاهِيْهَـــا

وخَطَبَ بَعْضهُمْ :

فقال عِبَادَ اللهِ اتقوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم وكُونُوا قَوْماً صِيْحَ بِهِم فانْتَبَهُوْا وعَلِمُوا أنَّ الدنيا لَيْسَتْ لهم بدار فاسْتَبْدَلُوا بِهَا وتَعَوَّضُوا عنها .

أيها الناس استَعِدُّوْا لِلْمَوْتِ فَقَدْ اظَلَّكُمْ وتَرَحلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُم وإنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَة وتَهْدِمُهَا الساعةُ لَجَدِيْرَةٌ بقَصِرِ المُدَّةِ وأنَّ غَاياً يَحْدُوْهُ الجَدِيْدَان لَجَدِيْرٌ بِسُرْعَةِ الأَوْبَةِ وانَّ قادِماً يَقْدُمُ بالفوز أوْ بالشِقْوة لمُسْتَحِقٌ بأفْضَلِ العُدَّة .

اتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ وغَلَبَ شَهْوَته وقَدَّمَ تَوبَتَه ، فإنَّ أجَلَهُ مَسْتُوْرٌ عَنْهُ وأَمَلَهُ خادِعٌ لَهُ والشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُمَنِّيْهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا ، ويُزَيِّنُ المَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَها حتى تَهجم عَليه مَنِيَّته أغْفَلَ ما يكون عَنْهَا وأنْسَى ما يكونُ لَهَا ، وأنَّ ما بَيْنَ أحَدِكُم وبَيْنَ الجنة والنار إلا الموت أنْ يَنْزِل بِهِ .

فَيَا لَهَا مِن حَسْرَةٍ على ذِيْ غَفْلَةٍ أن يكُوْنَ عُمْرهُ عليه حُجَّةً أو أنْ تُؤَدِّيْه

أَيَّامُهُ إلى شِقْوةٍ جَعَلَنَا اللهُ وإيَّاكم مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ ولا تُقَصِّرُ به عن طاعةٍ مَعْصِيَةٌ ولا تَحلُّ به بَعْدَ الموت حَسْرةٌ إنَّهُ سَمِيْعُ الدُعَاء فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ .

قال بَعْضُ العُلماء كُلُّ يَجْرِي مِن عُمُره إلى غَايَةٍ تَنْتَهي إليها مُدَّةُ أجَلِهِ وتَنْطَوي عَليها صَحِيْفَةُ عَمَلِهِ ، فَخُذْ مِن نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ، وقَسْ يَوْمَكَ بأَمْسِكَ ، وكُفَّ عَن سَيِّئاتِكَ ، وزِدْ في حَسَنَاتِكَ ، قَبْلَ أنْ تَسْتَوْفِي مُدَّةَ الأجَلِ وتَعْصُرُ عن الزِيَادَةِ في العَمَل .

وفي كلام بَعْضِهِم أعْلَمْ رَحِمكَ اللهُ أنَّ أمَانِيَّكَ سَتُرَدُّ عَلَيْكَ وتَرْجِعُ خَائِبَةً إلَيْكَ ، وأنَّ الساعات تَهْدِمُ في جَسَدِكَ ، ورُبَّمَا عَاجَلَتْكَ المنيَّةُ فِي سَاعَاتِكَ ، أَوْ فِي يَومِكَ ، أو في غْدِكَ فوقَفَتْكَ على غِشِّكَ ، وظُلْمِكَ ، وأطَالَتْ في كَرْبِكَ ، وزَادَتْ في غمِّكَ وأرَتْكَ ما لم تَعْهَدْ ، وأشْهَدَتْكَ مَشْهَداً ما مِثْلُ مَشْهَد .

وما تَبْنِيْهِ في دُنْيَاكَ هَذي ⠀⠀ سَتَلْقَاهُ مِنَ الأيَّام هَـدْمُ
وجِسْمُكَ وَيْكَ أسْرَعُهُ انْهداما ⠀⠀ وهَلْ يَبْقَى مَعَ الساعَاتِ جِسْمُ
ومَن تَتْبَعْهُ تابِعَهُ المَنَايَا ⠀⠀ مُحَالٌ أنْ تَبقى مِنْه رَسْمُ
وَلَيْتَكَ لَمْ تَكُنْ إلاَّ مَنُوْنٌ ⠀⠀ يُضَاعَفُ بَيْنَها كَرْبٌ وغَمُّ
ولكنْ بَعْدَهَا يَوْمٌ عَصِيْبٌ ⠀⠀ طَوِيْلُ الكرْبِ ذِكْرَاهُ تَصُمُّ
وَمَا تِلْكَ الكُرُوْبُ كَمَّا عَهِدْنَا ⠀⠀ وَلَا هِيَ ما يُعَبِرُ عنه فَهْمُ
ولا تَغْتَر بالأسْماء جَهْلاً ⠀⠀ فَرُبَّتَ مَعْنَيَيْنِ عَلَيْهِمَا اسْمُ
يُسَمَّي الكَوْكَبُ الدُرِّيُ نجماً ⠀⠀ ومُنْبَسِطُ النَّبَاتِ كَذَاكَ نجْمُ

اللَّهُمَّ أَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ الأبْرَارْ ، وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسنةً ، وَقِنَا عذابَ النَّارْ ، واغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ

مِنهُم والمَيْتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلَّى اللهُ على سَيِّدَنا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

فَصْــــلٌ

خَطَبَ أحَدُ العُلماءِ خُطْبَةً بَلِيْغَةً فقال : إعْلَمُوا أنَّكم مَيِّتُون وَمَبْعُوثُون مِن بَعْدِ الموتِ قال الله جَلَّ وعَلَا : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لَمَيِّتُون ثم إنكم يَوْم القِيَامَةِ تُبعثون ﴾ .

وتُوقَفُونَ على أعمالكم وتُجْزَوْنَ بها فلا تَغُرَنكم الحياة الدنيا فإنها بالبَلاءِ والمَصَائِبِ مَحْفُوْفَة ، وبالفَنَاءِ مَعْرُوْفَة ، وبالغَدْرِ مَوْصُوْفَة ، وكُلُ ما فيها إلى زَوَال وهِيَ بَيْنَ أهْلِهَا دُوَلٌ وسِجَال .

لا تَدُوْمُ أحْوَالُهَا ، ولا تَسْلَمُ مِن شَرِّهَا نُزَّالُها ، بينا أهْلُهَا ورَخاء وسُرُوْر ونَعيمٍ وحُبُور إذا هم منها في بلاءٍ وغُرُور ، العَيْشُ فيها مَذْمُوم والرَّخاءُ فِيها لا يَدُوْم وإنَّما أهْلُها فيها أعراضٌ مُسْتَهْدَفَة ترميها بِسِهَامِهَا وتَقْصِمُهُمْ بِحِمَامِهَا ، وكل حَتْفُهُ فِيْهَا مَقْدُوْر وحظُهُ فيها مَوفُوْر .

واعْلمُوْا عِبَادَ الله أنَّكُم وما أنْتُمْ فيه مِن هَذِهِ الدُنْيَا على سَبِيْل مَنْ قد مَضَى مِمَّنْ كانَ قَبلَكُمْ مِمَّنْ كان أطْوَلَ مِنْكُم أعْمَاراً وأشَدَّ منكم بَطْشاً وأعْمَر دِياراً وأبْعَدَ آثارا فأصْبَحَتْ أصْوَاتُهُم هامِدَةً خامِدَةً مِن بَعْدِ طُوْلِ تَقَلُبِهَا وأصْبَحَتْ أجْسَادُهُم بالية ودِيَارُهُم على عُرُوْشِهَا خاوية وآثارهم عافية .

واسْتبدلُوْا القُصُورِ المُشَيَّدَةِ ، والسُّرِرِ ، والنَّمَارِقِ المُمَهَّدَةِ بِالتُّراب والصُخور والأحْجَار المسنَّدة في القُبور اللاطِئَة المُلَحَّدَةِ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرب وسَاكِنُها مُغْتَرِب بَيْنَ أهْلِ مَحِلَّةٍ مُوْحِشِيْن .

لا يَسْتَأْنِسُونَ بالعُمْران ولا يَتَواصَلُونَ تَواصُل الجيران على ما بَيْنَهُم مِنْ قُرْبِ المَكَانِ والجِوَارِ ودُنُوِّ الدارِ وكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَواصُلٌ وَقَدْ أَكَلَتْهُم الجَنَادِلُ والثَّرى وأَصْبَحُوْا بَعْدَ الحَيَاةِ أَمْواتاً وبَعْدَ نَضَارَةِ العَيْشِ رُفَاتًا .

فُجِعَ بِهِمُ الأَحْبَاب وسَكَنُوا تَحْتَ التُّرَاب ظَعَنُوا فَلَيْسَ لَهُمْ إِيَاب فَكَأَنْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوْا إليه مِن البَلاءِ والوحدة في دَارِ المَثْوَى وارْتُهِنْتُمْ في ذَلِكَ المَضْجَعْ وضَمَّكُم ذلك المُسْتَوْدَع .

فَكَيْفَ بِكُمْ إِذَا عايَنْتُمُ الأُمُورَ بُعْثِرتِ القُبُور وحُصِّلَ ما في الصُّدورِ وَوُقِّفْتُمْ للتَّحْصِيْل بَيْنَ يَدَيْ المَلِكِ الجَلِيْل فَطَارَتِ القُلُوبُ لإشْفَاقِهَا مِن سَالِفِ الذُنُوب وهُتِكَتِ الحُجُبُ والأَسْتَار وظَهَرتْ منكم العُيُوبُ والأَسْرَار .

هُنَالِكَ تُجْزَى كل نَفْس بِمَا كَسَبَتْ قال الله جل جلاله : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاؤُا بما عَمِلُوا ويَجْزِيَ الذِيْنَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرى المُجْرِمين مُشْفِقِيْنَ مِمَّا فيه ﴾ الآية .

قالَ بَعْضُ الحُكماء :

تَباً لِطَالِب دُنْياً لا بَقَاءَ لَهَا ... كأنما هِيَ في تَعْرِيْفِهَا حُلُمُ
صَفَاؤُهَا كَدَرٌ سُرُوْرُهَا ضَرَرٌ ... أَمَانُهَا غَرَرٌ أَنْوَارُهَا ظُلَمُ
شَبَابُهَا هَرَمٌ رَاحَاتُها سَقَمٌ ... لَذَّاتها نَدَمٌ وُجْدَانُهَا عَدَمُ
لا يَسْتَفِيْقُ مِنَ الأنكادِ صَاحِبُها ... لَوْ كَانَ يَمْلِكُ ما قَدْ ضُمِّنَتْ أَرَمُ
فَخَلِّ عَنْهَا ولا تَرْكَنْ لِزَهْرَتِهَا ... فإِنَّها نِعَمٌ في طَيِّهَا نِقَمُ
واعْمَلْ لِدَارِ نَعِيْمٍ لا نَفَادَلَها ... ولا يُخافُ بها مَوْتٌ ولا هَرَمُ

ومما قاله أَحَدُ الحُكَماء في الدنيا لِيَكُنْ نَظَرُكَ إلى الدنيا اعْتِبَاراً ورَفْضُكَ لها اخْتياراً وطَلَبُكَ الآخِرَة ابْتِدَاراً .

وقال بعضُ العُلماء من عَجِيْب ما نَقَدتُ مِن أحوال الناسِ كثرة ما ناحُوا على خَرَابِ الدِيار ومَوتِ الأقاربَ والأسلاف والتَّحَسُّر على الأرْزَاق بِذَمِّ الزَّمانِ وأهْلِهِ وذِكْرِ نَكَدِ العَيش فيه .

وقَدْ رَأوْا مِن أنِهْدَامِ الإسلام ومَوْتِ السُنَنِ وظُهُور البِدعِ وارْتِكَابِ المَعَاصي وتقِضَيْ العُمْرِ في الفارِغِ الذي لا يُجْدِي والقَبِيح الذي يُوْبِقُ وَيُؤْذِي .

فلا أجِدُ منهم مَن نَاحَ على دِينِهِ ولَا بَكَى على فارِطِ عُمُرِهِ وَلَا آسىَ عَلى فَائِتِ دَهْرِه .

وما أرَى لِذَلِكَ سَبَباً إلاَّ عَدَمَ مُبَالاتِهم في الأدْيَانِ وعِظَمَ الدُنيا في عُيُونِهم .

ضِدَّ مَا كَانَ عليه السلفُ الصَّالِحُ يَرْضَونَ بالبلاغ ويَنُوحُونَ على الدِّيْن اهـ .

اللَّهُمَّ انْظُمْنَا في سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، واجْعَلْنَا مِنْ المُتَّقِيْنَ الذِيْنَ أعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جَنَّاتِكَ ، وأدْخِلْنَا بِرَحْمِتَك في دَارِ أمَانِكَ ، وَعَافِنَا يَا مَوْلَانَا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ جَمِيْعِ البَلَايَا ، وَأجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِب فَضْلِكَ وَهبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَر إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذِيْنَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِديْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمِّيتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ على مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْــــلٌ

وقال رحمهُ الله واعلم رحمنا الله وإياك وجميع المسلمين أنَّ الشَّيءَ المُمْكِن وُجُوْدُهُ لا يُعْرَفُ مِقْدَارُهُ على الحقِيْقَةِ إلا إذا عُدِمَ فلم يُوجَدْ .

فانتبه أيُها الأَهِي قَبْلَ هُجُوم الموتِ ، المال تَقَتِّرهُ والعُمْر ما يَهُمُّكَ ذَهَابهُ سَبَهْلَلاَ ولا نِسْبَةَ بَينَ المال والعُمر ولا تَعْرِفُ قَدْرَ ضَيَاعِ عُمرِكَ إلاَّ بَعْدَمَا تَمُوْتُ وتُطوَى صَحِيفتُكَ فلا يُزَادُ فِيهَا وَلا يُنْتَقص وتَنْدَمُ ولاتَ سَاعَةَ نَدَم .

يا أيُّها السَّاهُونَ عن أخراهُمُ　　إنَّ الهِدَاية فِيْكُم لا تُعْرف
المالُ بالمِيْزَانِ يُصْرَفُ عِنْدَكُمْ　　والعُمْرُ بَيْنَكُمْ جُزَافاً يُصْرَفُ

آخــــر :

مَرَّ الشَّبَابُ ولم أَقْدِرْ أُرَجِّعُـهُ　　وَلَمْ أُحَيِّيهِ إلاَّ بَعْدَ مَا انْصَرَفَا
والمرءُ يَجْهلُ قَدْرَ الشَّيءِ يُمْكِنُهُ　　حَتَّى إذَا فَاتَهُ إمْكَانُهُ عَـرَفَا

ألاَ تَرَى رَحِمنَا اللهُ وإيَّاكَ وجميعَ المسلمين أن الصِّحَةَ لا يُعْرَفُ قَدْرَهَا على الحَقِيْقةِ إلاَّ المَرْضَى ، والعافية لا يعْرِفُ مِقْدَارَهَا إلاَّ المُبْتَلَى ، فكذالك الحياةُ لا يعْرِفُ مِقْدارَهَا إلا المَوْتَى لأنَّهمُ قَدْ ظَهَرتْ لَهُم الأمُورُ وتَبَيَّنَتْ لهم الأشيَاءُ وانْكَشَفَتْ لهم الحقائِقُ ، وتَبَدَّتْ لهم المنازِل وعَلِمُوْا مِقْدَارَ الأعْمالِ الصَّالِحَةِ ، إذْ لَيْسَ يَنْفُقُ هُنَاكَ إلاَّ عَمَلٌ صَالِحٌ زَكِي ، ولا يَرْتَفِعُ هُنَاكَ إلاَّ عَبْدٌ تَقِي .

وكُلَّما ازْدَادَ هُنَا عَمَلاً صَالِحاً كانَ هُنَاكَ أرْفَعَ دَرَجةً وأشْرَفَ رُتْبَةً ، وأكْثَر وجَاهَةً ، وكُلَّما ازْدَادَ في الدنيا من الأعْمَالِ الصَّالِحَة فَضِيْلَةً كَانَ أقْرَبَ إلى الله وسِيْلَة .

فَلَمَّا اسْتَبَانَ لهُم ذلكَ وَعَلموا مِقْدَارَ مَا ضَيَّعُوْا وقِيمَة ما فيه فَرَّطُوْا نَدِمُوا وأَسِفُوْا وَوَدُّوْا لَوْ أنهم إلى الدنيا رَجَعُوا وإلى حَالتِهم الأولى رُدُّوْا وكُلّ عَلى حَالِهِ .

فالذي عَمِلَ صَالِحاً يَوَدُّ لَوْ رَجَعَ إلى الدُنيا فازْدَادَ مِن عَمِلِهِ الصَّالِحِ وأكْثَر مِن مَتْجَرِهِ الرَّابِح ، والمقصِّرُ يَوَدُ لَوْ رُدَّ فاسْتَدْرَكَ ما فَاتَ ونَظَرَ فيما فَرَّط فِيْهِ .

فَالمُفَرَّطَ المُهْمِلُ بالجُمْلَةِ يكونُ تَمَنِّيْهِ الرُجُوْع أكْثَر وحِرْصُهُ على الإقالَةِ أشَد كُلّ يَتكَلَّمُ عن حَالِهِ ويُخْبِرُ عَمَّا هُوَ فيه حَتَّى قال الشَّهِيْدُ الذي قُتل في سَبِيْلِ اللهِ لَمَّا قِيْلَ لَهُ ما تَشتَهِي قال أنْ أرْجِعَ إلى الدنيا فأُقَاتِلُ فأُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى وَذَلِكَ لِما يَرى مِن فَضْلِ الشَّهادَةِ .

وقال غَيْرُهُ ﴿ رَبِّ ارْجِعُوْن لَعَلِي أعْمَلُ صَالِحاً فيما تَرَكْتُ ﴾

وقالُوا : ﴿ يا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَنعْمَلَ غير الذي كنَا نَعْمل ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما مِن مَيِّتٍ يَمُوتُ إلا نَدمَ . قالوا وما نَدَامَتُهُ يا رسول اللهِ قال إن كان مُحْسِناً نَدِمَ أن لا يَكُونَ إزْدَادَ وإنْ كانَ مُسيئاً نَدم أن لا يكون نزع » أخرجه الترمذي .

ويُرْوَى أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى القُبورِ وصَلَّى رَكْعَتَين ثم اضْطَجَعَ على شِقِّهِ فَنَامَ فرآى صَاحِبَ القَبْرِ في المنام فقال لَهُ يا هَذا إنكمْ تَعْمَلُوْنَ ولا تَعْلَمُون ونَحْنُ نَعْلَمُ ولا نَعْمَــــل ولَئَنْ تَكُون رَكْعَتَاكَ في صَحِيْفَتِي أَحَبّ إلىَّ مَن الدُنيا وما فيها .

وقال بعضُ الصَّالِحِين مَاتَ أخٌ لِي فِي اللهِ فَرأيْتُهُ في النوم فَقُلْتُ لَهُ يا فُلاَن ما فَعَلَ الله بِكَ عِشتَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين قال لِيْ لأنْ أقْدِرَ يَعْنِي على أنْ أَقُوْلَ الحمد لله رب العالمين أحَبُّ إليَّ مَن الدنيا وما فيها ثم قال : أَلَمْ تَر حَيْث كانُوا يَدْفِنُوني فإنَّ فُلاناً جَاءَ فَصَلى رَكْعَتَيْن لأن أكُوْنَ أقْدِرُ عَلى أنْ أصَلِيْهِمَا أحَبّ إليَّ مِن الدنيا وما فيها .

ألا ترى رَحِمكَ اللهُ إلى نَدَمِهم عَلَى تَفْرِيْطِهِم وتَأسُّفِهِم على تَضْيِيْعِهِم ، نَدِمُوا وَاللهِ حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ النَّدَمُ وطَلَبُوْا ما لا يُمْكِن ، وسَأَلُوا فيما لا يجُوز على حَالِهم ، ولَمْ يُسْعَفُوا في سُؤَالِهِم وبَقِي كُلُّ واحِدٍ منهم بما هو فيه .

شِعْراً مكتوب على قبر :

أيُها الماشِي بَيْن القُبور غافلاً عن حَقِيْقَةِ المَقْبُور
أنا مَيِّتٌ كما تراني طَرِيْح بَيْنَ أَطْبَاقِ رَضْمَةٍ وصُخُور
أُدْنُ مِنّي أُنبيْكَ عَنّي ولا يُنْبِيْكَ عَنِي مِثْلُ خَبِيْر
أَنَا في بَيْتِ غُرْبةٍ وانِفراد مَعَ قُرْبِ مِن جيْرةٍ وعَشِيْر
لَيْسَ فيه مُؤْنِسٌ غير سَعْيٍ مِن صَلاحٍ سَعَيْتُهُ أوْ فُجُور
وكذا أنْتَ فاتَّعِظْ بِي وإلاَّ فَعَـذِيْرِي منكَ الغَدَاةَ عَذِيْر

فَمَنْ رَآى قَبْراً فإنَّما رآى وَاعظاً صامِتاً يَعِظُهُ ومُذَكِّراً يُذَكِّرُهُ فإن كانَ القَبْرُ سَاكناً فإنَّهُ نَاطِقٌ وَوَاعِظٌ بِلِسَانِ الحَالِ ومُفصِحٌ بما يكُونُ مِنْكَ في المآل فكأن الذي يُخَاطِبُكَ إنسان ويُبَيِّنُ لَكَ عَاقِبَتَكَ ويَقُولُ لَكَ يا هذا كَنْتُ حَياً مثْلَكَ وقَدْ مُتُّ وكَذلك أنْتَ تموت فتأهب .

تَضَرع إلَى رَبِّ العِزةِ والجلال :

يَا رَبِّ يا مَنْ هُوَ العَلَّامُ في الأَزَلِ بالسِّرِ والجَهْرِ مِن قَوْلِي ومِن عَمَلِي
ثَبِّتْ بِفَضْلِكَ قَلْبِيْ يَا رَحِيْمُ وجُدْ لِيْ بالرِّضَا واعْفُ يَا رَحْمٰن عَن زَلَلِي
(جَرَائِمِي لَسْتُ أُحصِيْهَا لِكَثْرَتِها أرْجُوْكَ يَاسَيِّدِيْ عَنْهَا تَجَاوَز لِي
حَسْبِي رِضَاكَ ولا أرْجُوْ سِوَاكَ وَلَا أُحْصِي ثَنَاكَ وإني فِيْكَ ذُوْ أَمَلِ)
خَلَقْتَنَـا مِن تُراب ثم من عَلَـقٍ وسَوْفَ تَبْعَثُنا لِلْمَوْقِفِ الجَلِلِ
ذَنْبِيْ عَظِيْمٌ وقَلْبِيْ خائِفٌ وَجِلٌ ومِنْكَ يُرجَى أمَانُ الخَائِفِ الوَجِلِ

رَبِّ اكْفِنِي شَرَّ نَفْسِي واللَّعِيْنَ وَهَبْ لِيْ تَوْبَةً واهْدِنِي قَبْلَ انْقِضَى أَجَلِيْ
زَادَتْ عُيُوبِيْ فَآمِّنْ رَوْعَتِي وأَقِلْ يَا رَبَّنَا عَثْرَتِي وانْظُر بِلُطْفِكَ لِيْ
سَهِّلْ بِفَضْلِكَ رِزْقِيْ واغْنِنِيْ أَبَدَا عَنْ سَائِرِ الخَلْقِ يَا مَنْ لا يَزالُ عَلِيْ
شُغِلْتُ باللَّهْوِ عن ذِكِرِ الالهِ ولَـ كِنْ عفوهُ يَرْتَجِيْهِ كُلُّ مُبْتَهِلِ
صَبَابَتِي عَظُمَتْ إذْ مُقْلَتِي حُرِمَتْ طِيْبَ الكَرى ونَمَا يَا سَيِّدِي زَلَلِي
ضَيَّعْتُ عُمْرِيَ فِي لَهْوٍ وفِي لَعِبِ وفِي فُتُورٍ وفِي عَجْز وفِي كَسَلِ
أَرْجُوْكَ عَفْوَكَ يَا مَنْ قَدْ تَنَزَّه عن ضِدٍ ونِدٍ وعَنْ كَيْفَ وعَنْ مَثلِ
ظَنِّي جَمِيْلٌ بِهِ أَرْجُو النَّجَاةَ غَداً والعَفْوَ عن مَا مَضَى يَا مُنْتَهَى أَمَلِيْ
عَامَلْتَنِي مِنْكَ بالأَلْطَافِ والمِنَنِ مُذْ كُنْتُ طِفلاً ومِنْكَ اللُّطْفُ لم يَزَلِ
غَطَّى الصَّدَا قَلْبِي الصَّادِي فَعَنْهُ أَزِلْ حَتَّى لِغَيْــرِكَ يا مَوْلَايَ لَمْ أَمِــلِ
فإنَّ لِيْ فِيْكَ ظَناً لَمْ يَزَلْ حَسَناً فَعَافِنِي مِنْ أَذَى الأَسْقَامِ والعِلَلِ

اللهُم اخْتِمْ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أعْمَارَنَا وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ أعْمَالَنَا يَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَي وَيَا دَائِمَ الإِحْسَانِ اذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وأَنِلْنَا مِنْ كَرَمِكَ وَجُودِكَ مَا تَقَرُّ به عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فوائِد ومَواعِظ وحِكَم وقِصص

قال بعضُ العُلماء رحمه الله مَن ملك مِن الدُنْيَا شَيْئاً فَتَنَاوَلَهُ وأَمْسَكَهُ لِيَقُوْمَ به في حُقُوق الله تعالى فَهُوَ مأْجُوْر .

وإنما هَرَبَ منها مَن هَرَبَ لِضُعْفِ قَلْبِهِ وقِلَّةِ يَقِيْنِهِ خَافَ مِن نَفْسِهِ أَنْ يَفْتَتِنَ

بِهَا وتُصيبُهُ حلاوتُها وأفراحُها حتّى تُلهِيَهِ عن ذِكرِ اللهِ تعالى وأمْرِهِ .

فَقَدْ حَذّرَ اللهُ جل وعلا المؤمنين فقال : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أمْوالُكم وَلاَ أوْلادُكُم عن ذِكرِ اللهِ ﴾ الآية .

والصِّدِّيقُون ألْهاهُم حُبُّ اللهِ وجَلاَلُهُ وعَظَمَتُهُ .

فلم يُلْهِهِمُ المالُ لأن حَلاوةَ حُبِّ اللهِ غالِبَةٌ على حُبِّ المالِ .

ومَن غَلَبَ على قَلْبِهِ عَظَمَةُ اللهِ وجَلاَلُهُ وَقُدْرَتُهُ لَمْ يَبْقَ لِلْمَالِ عَلَى قَلْبِهِ من السُّلْطَان ما يَغْلبُ على قَلْبِهِ ما فيهِ مِن عِلْمِهِ باللهِ وعَظَمَتِهِ .

وقال آخر : العَجَبُ أن تعرف اللهَ ثم لا تُحِبَّهُ .

وأنْ تَسْمَعَ دَاعِيَه ثم تتأخر عن الإجابَةِ .

وأنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الرِّبْحِ في مُعَامَلَتِهِ ثم تُعَامِلُ غَيْرَهُ .

وأنْ تَذُوقَ ألَمَ الوَحْشَةِ في مَعْصِيَتِهِ ثم لا تَطْلُبُ الأنَسَ بِطاعَتِهِ .

وأعْجَبُ مِنْ هَذا عِلْمُكَ أنّكَ لا بُدّ لَكَ مِنْهُ ، وأنّكَ أحْوَجُ شيء إليه وفيما يُبْعِدُكَ عنه رَاغِب .

شِـعْرا :

أتَيْتُ إلَيْكَ يَا رَبَّ العِبَادِ بافْلاسِي وَذُلِّي وانْفِرَادِ
وَهَا أنَا وَاقِفٌ بالبَابِ أبْكِيْ زَمَانًا مَا بَلَغْتُ بِهِ مُرَادِ
عَسَى عَفْوٌ يُبَلِّغُنِي الأَمَانِي فَقَدْ بَعُدَ الطَّرِيْقُ وَقَلَّ زَادِ
فَأنْتَ ذَخِيْرَتِيْ وبِكَ انْتِصَارِي وفِيْكَ تَألُّهِي وبِكَ اعْتِمَادِي
وما لِي حِيْلَةٌ إلاَّ رَجَائِيْ ومِنْكَ على المَدَى حُسْنُ اعْتِقَادِي
وَلَوْ اقصَيْتَنِيْ وَقَطَعْتَ حَبْلِيْ وحقِّكَ ما أحُوْلُ عَنِ الوِدَاد

فَجُدْ بالعَفْوِ يا مَوْلَايَ وَارْحَمْ عُبَيْداً ظَلَّ عن طرْقِ الرَّشَادِ
وقَدْ وَافَى بِبَابِكَ مُسْتَجِيْراً يَخَافُ مِنَ القَطِيْعَةِ والبِعَادِ
وصَلِّ على النبي البَرِّ حَقاً شَفِيْعِ الخَلْقِ في يَوْمِ المَعَادِ

قال بَعْضُهم إذَا اسْتَغْنَى الناس بالدُنْيَا فاسْتغِنِ بالله وإذَا فَرِحُوْا بالدُنيا فافْرِحْ أنْتَ بالله وبفضله ورحمته قال تعالى : ﴿ قل بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فبذالِكَ فلْيَفْرحُوا هو خير مما يَجْمِعون ﴾ .

وإذَا أَنِسُوْا بأَحْبَابهم فاجْعَلْ أنْسَكَ باللهِ وطَاعتِهِ وإذَا تعرَّفُوا إلى مُلُوْكِهِمْ ورُؤسَائِهم وكُبَرائِهم وتَقَرَّبُوا إلَيْهِمْ لِيَنَالُوا بهم العِزَّةَ والرِفْعَةَ فَتَعَرَّفْ أنْتَ إلى اللهِ وتَودَّدْ وَتَضَرَّعْ إليه تَنَلْ غَايَةَ العِزَّةِ والرِّفْعَةَ .

مِن نَتَائِجِ المَعَاصِي قِلَّةُ التوفيق ، وفَسَادُ الرَّأْيِ ، وخَفَاءُ الحَق ، وفَسَادُ القلْب ، وعَمَى البَصِيْرَةِ ، وخُمولُ الذِكْرِ ، وإضاعَة الوقتِ ، ونُفْرةُ الخَلْقِ ، والوحْشَةُ مَعَ الرَّبِ ، ومَنْعُ إجَابَةِ الدُعَاءِ ، وقَسْوَةُ القلب ، ومَحْقُ بَرَكَةِ العُمر ، ولِبَاسُ الذُلِ ، وضِيْقُ الصَّدْرِ .

لا تُحَدِّثِ مَن تَخَافُ تكذِيْبَهُ ولا تَسأَلْ مَا تَخافُ مَنْعَهُ وَلا تعَدْ ما لا تَمكَّنُ مِن إنْجَازِهِ ولا تضْمَنُ ما لا تَثِقُ بالقُدْرَةِ عليه ولا تُقْدِمْ على أمْرٍ تخافُ العَجْزَ عَنْهُ .

وتوكل على الله في كل أُمُوْرَك .

لا تشاور مَشْغُولاً وإن كان فَطِناً حازِماً لا حْتِيَاجِهِ إلى التفكير ، ولا جائعاً وإنْ كان فَهِماً لَوْ ذَعِياً ، ولا مُحْتَبس البَولِ أو الرِّيْحِ أو الغائِط ، ولا خائِفاً وإن كان ناصحاً ، ولا مَهْمُوماً وإنْ كان فَطِناً لأنَّ هَؤُلاءِ أفكَارُهُمْ عَليها تَشْوِيْش .

لا تُجَالِس إلاّ العُقَلاء العُلماء فإنَّ العُقُولَ تُلَقِح العُقُول وانْظُرْ إلى مَن نَشَوُّا عند النِسَاء والسُّفهاء والعَوَام ، وقارن بَيْنَهُم وبينَ مَن نَشَوُّا عندَ العُلماءِ وطَلَبَةِ العِلْم ، تَجِدْ بَيْنَهُم بُوْنٌ كَمَا بَيْنَ الحَرَكَةِ والسُكُون .

قال بعضُ العُلماء مُجَالسة العُقَلاءِ لا تَخْلُو مِن أحَدِ مَعْنَيَيْنِ إمَّا تُذَكِرُ الحَالَةَ التي يَحْتَاجُ العاقِلُ إلى الانْتِبَاهِ لها ، أوْ الإفادَةِ بالشيءِ الخَطِيرِ الذي يَحْتَاجُ الإنْسانُ إلى مَعْرِفَتِهِ .

وسُئِل آخر : أيُ الرجالِ أفْضَلُ ؟ فقال : مَن إذا حَاوَرَتَهُ وجَدْتَهُ حَكيماً ، وإذا غَضِبَ كان حَلِيماً ، وإذا ظَفِرَ كان كَرِيماً ، وإذا اسْتُمْنِحَ مَنَح جَسِيْما ، وإذا وَعَدَ وَفى ، وإنْ كانَ الوَعْدُ عَظيما ، وإذَا شُكِيَ إليه وُجِدَ رَحِيْمَا .

مَوْعِظَـــةٌ

اخْوَانِي انكُمْ في دَارٍ هِيَ مَحَلُّ العِبَرِ وَالآفَاتِ ، وأنْتُم عَلَى سَفَرٍ وَالطَّرِيْقُ كَثِيْرَةُ المَخَافَاتِ ، فَتَزَوَّدُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ قَبْلَ المَمَاتِ ، وَتَدَارَكُوا هَفَوَاتِكُمْ قَبْلَ الفَواتِ ، وَحَاسِبُوا أنْفُسَكُمْ وَرَاقِبُوا اللهَ في الخَلَواتِ ، وَتَفكَّرُوا فِيْمَا أرَاكُمْ مِنْ الآيَاتِ ، وَبَادِرُوْا بِالأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، واسْتَكْثِرُوا في أعْمَارِكُمْ القَصِيْرَةِ مِنْ الحَسَنَاتِ ، قَبْلَ أنْ يُنَادِيْ بِكُمْ مُنَادِ الشَّتَاتِ ، قَبْلَ أنْ يُفَاجِئَكُمْ هَادِمُ اللّذَاتِ ، قَبْلَ أنْ يَتَصَاعَدَ مِنْكُمْ الأنِيْنُ وَالزَفَرَاتُ قَبْلَ أن تَنْقَطِعَ قُلُوبُكُم عِنْدَ فِرَاقِكُمْ حَسَرَاتٍ ، قَبْلَ أنْ يَغْشَاكُمْ مِنْ غَمِّ المَوتِ الغَمَرَاتُ ، قَبْلَ أنْ تُزْعَجُوا مِنْ هَذِهِ الحَيَاةِ قَبْلَ أنْ تَتَمَنَّوا رُجُوعَكُمْ إلى الدُّنْيَا وَهَيْهَاتَ .

شـــعرا :

مَا دَارُ دُنْيـــاً لِلْمُقِيـــمِ بِدَارِ   وبها النُفوسُ فَرِيْسَـــةُ الأقْـــدارِ

مَا بَيْنَ لَيـلٍ عاكفٍ ونهـارِهِ نَفسَـانِ مُرْتَشِـفَانِ لِلأعْمَـارِ
طُولُ الحياة إذا مَضَى كَقَصِيْرِهَا واليُسْرُ لِلأنْسَـانِ كَالإِعْسَـارِ
والعَيشُ يَعْقِبُ بالمرارَةِ حُلْـوَهُ والصَّفْـوُ فِيه مُخَلَّفُ الأكْـدَارِ
وكأنما تَقْضِي بُنَيَّـاتُ الرَّدَى لِفَنائِنَا وَطَـراً مِن الأوْطَـارِ
والمَرْءُ كَالطَّيْفِ المُطِيفِ وعُمْرُهُ كَالنَّوم بَيْنَ الفَجْـرِ والأسْحَارِ
خَطْبٌ تَضَاءَلَتَ الخَطُـوُبُ لِهَوْلِهِ أَخْطَـارُهُ تَعْلُو عَلَى الأخْطَـارِ
نُلْقِى الصَّوارِمَ والرِمَاحَ لِهَـوِلِهِ ونَلُوْذُ مِن حَـرْبٍ إلى اسْـتِشْعَارِ
إنَّ الذينَ بَنَوا مَشيْداً وانْثنوا يَسْعَونَ سَعْيَ الفاتِكِ الجَبَّـارِ
سُلُبوا النَّضَارَةَ والنَّعِيْمَ فاصْبَحُوا مُتَوَسِّدِيْنَ وَسَـائِدَ الأحْجَـارِ
تَركُوا دِيارَهُمْ علَى أعْدَاهِـم وتوسَّدُوا مَـدَراً بِغَيرِ دِثَـارِ
خَلَطَ الحِمَامُ قَوِيَّهُمْ بِضَعْيفِهم وغَنِّيهِمْ سَـاوَى بذي الأقْتَـارِ
والخَوْفُ يُعْجِلُنا عَلَى آثارِهِـم لا بُدَّ مِن صُبْحِ المُجِـدِّ السَّارِي
وتَعَاقُبُ المَلَوَيْنِ فِينَـا ناثِـرٌ بأكَرِّ مَا نَظَمَا مِن الأعْمَـارِ

ثم إعْلَمْ يَا أخِي أنَّ الدُنْيَا لَا تذَمُّ لِذَاتِها وكَيْفَ يُذَمُّ ما مَنَّ اللهُ به عَلى عِبادِهِ وما هُوَ ضَرُوْرَةٌ في بَقَاءِ الآدَمِي وسَبَبٌ في إعَانَتِهِ على تَحْصِيْلِ العِلْمِ والعِبَادَةِ مِن مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ ومَلْبَسٍ ومَسْجِدٍ يُصَلَى فِيه وإنَما المَذمومُ أخذُ الشَّيءِ مِن غَيرِ حِلِّهِ أوْ تَنَاوُلُهُ عَلى وَجْهِ السَّرَفِ لا عَلَى مِقْدارِ الحَاجَةِ ويُصَرِّفُ النفسَ فيه بِمُقْتَضَى رُعونَاتِهَا لاَ بإذِنِ الشرعِ فالعَاقِلُ يَجْعَلُهَا مَطِيَّةً لَلآخِرةِ فَيُنْفِقُهَا في سبيل اللهِ في المشارِيعِ الدِينيةِ مِن طِباعَةِ مَصَاحِفَ وكُتبٍ دِينيةٍ وعِمَارةِ مَسَاجِد وَبذلٍ للفقراءِ الذينَ لَا مَوارِدَ لَهُمْ ونَفَقَات على طلبة العِلْم الشَرعي .

وعن عَلي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه سَمَعَ رَجُلاً يَسُبُّ الدنيا فقال له : إنها لَدَارُ صِدْق لِمَنْ صَدَقَها ، ودَارُ عَافِية لِمَنْ فَهِمَ عنها ، ودَارُ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ منها .

مَسْجِدُ أَحْبَابِ الله ، ومَهْبَطُ وحْيِهِ ومُصَلَّى مَلائِكتِهِ ومَتْجَرُ أولِيَآئِهِ .

اكتَسَبُوا فيها الرَّحْمةَ ورَبِحُوْا فيها الجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّ الدنيا وقَدْ آذَنَتْ بِفِراقها ، ونادَتْ بعَيْبِها ، ونَعَتْ نَفْسَهَا وأَهْلَهَا ، فَمَثَّلَتْ بِبلَائِها وشَوَّقَتْ بِسُرُورِها إلى أهلِ السرور .

فَذَمَّهَا قومٌ عِنْدَ النَّدامَةِ ومَدَحَهَا آخَرُوْنَ ، حَدَّثَتْهُمْ فصَدقوا وذَكَّرتْهُم فَذَكَرُوْا .

فيا أيُّها المُغْتَرُ بالدنيا المُغْتَرُّ بغُرُوْرِهَا ، مَتَى اسْتَلأَمَتْ إليكَ الدُنيا ، بل مَتى غَرَّتْكَ أَبِمَضَاجِعِ آبائِكَ تَحْتَ الثرى ، أَمْ بِمَصَارِعِ أُمَّهَاتِكَ مِن البَلَى .

كم قَلَّبْتَ بِكَفَيْكَ ومَرَّضْتَ بِيَدِكَ تَطْلُبُ له الشِفَاءَ وتَسْأَلُ له الأَطِبَاء فلم تَظفُر بِحَاجَتِكَ ولَمْ تُسْعَفْ بِطِلْبَتِكَ قَدْ مَثَلَتْ لَكَ الدُنيا بِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ غَداً ولا يُغْنِي عَنْكَ بُكاؤُكَ ولا يَنْفَعُكَ أَحْبَابُكَ .

وقال ابنُ رَجَب رحمه الله على كلام علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

فَبَيَّنَ أَمِيْرُ المؤمنين رضى الله عنه أن الدنيا لا تُذَمُّ مُطْلَقَا وأنها تُحَمدُ بالنسبة إلى مَن تزودَ منها الأعْمال الصَّالِحة وأن فيها مَسَاجِدُ الأنبياءِ ومَهْبَطُ الوَحْي .

وهي دَارُ التِجَارَةِ لِلْمُؤْمِنِين إكتَسَبُوا فيها الرحمةَ وربحُوا بها الجنَّةَ فَهِيَ نِعمَ الدارُ لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُه .

وأما ما ذُكِرَ مِن أنها تَغرُ وتَخْدَعُ فإنها تُنَادِي بِمَواعِظها وتنصَحُ بعِبَرها وتُبدِي عُيُوبَها بما تُرى مِن أَهْلِهَا مِن مَصَارِع الهلكى .

وتَقَلُّبِ الأحوال مِن الصِّحة إلى السُقم ومِن الشَبِيْبَةِ إلى الهَرَم ومِن الغِنَى إلى الفقْر ومِن العِز إلى الذُل ولكن مُحِبّها قَدْ أعماهُ وأصَمَّهُ حُبُّهَا . انتهى ا هـ .

وقال بعضُ العُلماء :

إعْلَمْ أنَّ الدُنيَا عِبَارَة عن كُلِّ ما يَشغَلُ عن اللهِ قَبْلَ الموت ، فكُلَّما لَكَ فيه حَظٌّ وغَرضٌ ونَصِيْبٌ وشهوةٌ ولذة في عَاجل الحالِ قبل الوَفَاةِ فَهِيَ الدنيا .

ولَيْسَ كُلُ ذَلكَ مَذْمُوم بَلِ المذْمُومُ المنهيُ عَن مَحَبَّتِهِ هُوَ كُلُ مَا فِيْهِ حَظٌ عَاجلٌ ولا ثمرةَ لَهُ في الآخرة .

وإذَا سَمِعْتَ بِذَمِّ الدنيا فاعْلم أنَّه لَيْسَ رَاجِعاً إلى زَمانِها الذي هو الليلُ والنهار المتعاقبان إلى قيامِ الساعة .

فإنَّ الله سبحانَه وتَعالى جَعَلَهُمَا خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أنْ يَذَّكَر أوْ أرَادَ شكُوْرَا .

ولَيْسَ الذمُ رَاجعاً إلى مَكَانِ الدنيا وهُوَ الأرْضُ ولا إلى ما أنْبتَهُ اللهُ فيها مِن الشَّجرِ والزَّرْعِ .

فإن ذلك كُلَّه مِن نِعم اللهِ على عبادِهِ لِمَا لَهُم فيه مِن المَنَافِع والمصَّالِحِ والاعْتِبارِ والاسْتِدَلالِ بذلكَ على وَحْدَانِيةِ اللهِ وقدْرَتِهِ وعَظَمتِهِ وحِكمتِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ .

قال جَلَّ وعلا : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ .

وإنما المذمومُ أفعالُ بني آدَمَ مِن المَعاصِي الكبائر والصغائر كالشرك وترك الصلاة وترك الزكاة أو الصوم أو الحج وكالكذب على الله أو على رسله أو كراهة ما أنزل الله أو قتل نفس بغير حق أو ظلم أو شهادة زور وكذا الكبر والحسد ونحو ذلك .

شِعْرا :

مَنْ يَذُمُّ الدُنْيَا فإني بِطَرِيْقِ الإنْصَافِ أثْنِي عَلَيْهَا
وعَظَتْنَا بكُلِ شَيءٍ لَوَانَّا حِيْنَ جَادَتْ بالوَعْظِ مِنْ مُصْطَفِيْهَا
نَصَحَتْنَا فَلَمْ نَرَ النُّصْحَ نُصْحاً حِيْنَ أَبْدَتْ لِأُهْلِهَا ما لَدَيْهَا
أعْلَمَتْنَا أنَّ المآلِ يَقِيْنَاً لِلْبِلَى حِيْنَ جَدَّدَتْ عَصْرَيْهَا
كَمْ رَأيْنَا مَصْرَعَ الأهْلِ والْـ أحْبَابِ لَوْ نَسْتَفِيْقُ بَيْنَ يَدَيْهَا
وَلَكَمْ مُهْجَةٍ بِزَهْرَتِهَا اغْـ ـتَرَّتْ فأدْمَتْ نَدَامَةً كفَّيْهَا
أتَرَاهَا أبْقَتْ عَلَى سَبإٍ مِنْ قَبْلِنَا حِيْنَ بَدَّلَتْ جَنَّتَيْهَا
يَوْمُ بُؤْسٍ لَهَا ويَوْمُ رَخَاءٍ فَتَزَوَّدْ مَا شِئْتَ مِن يَوْمَيْهَا
وَتَيَقَنْ زَوَالَ ذَاكَ وَهَذا تَسْلُ عَنْ مَا تَرَاهُ مِنْ حَادِثَيْهَا
دَارُ زَادٍ لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا وغُرُوْرٍ لِمَنْ يَمِيْلُ إلَيْهَا
مَهْبَطُ الوَحْي والمصَلَى الَّتي كَمْ عَفَّرَتْ صُوْرَةٌ بِهَا خَدَّيْهَا
مَتْجَرُ الأوْلِيَاءِ قَدْ رَبِحُوْا الْـ ـجَنَّةَ فِيْهَا وأوْرِدُوا عَيْنَيْهَا
رَغَّبَتْ ثُمَّ رَهَّبَتْ لِيَرَى كُـ ـلُّ لَبِيْبٍ عُقْبَاهُ مِن حَالَتَيْهَا
فإذَا أُنْصِفَتْ تَعَيَّنَ أنْ يُثْـ ـنِيْ عَلَيْهَا البَارُّ مِن وَلَدَيْهَا

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغفلةِ وَنَبِّهْنَا لاغْتِنَامِ أوقاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِن قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنَا بِمَا انْطَوَتْ عليهِ ضَمائِرُنَا وأكَنَّتْهُ سَرائِرُنَا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمعَائِبِ التي تَعْلَمُهَا مِنَّا ، وامْنُنْ علينَا يا مولانَا بتوبةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغْفِرْ لَنا ولِوَالِدَيْنَا ولِجميعِ المسلمين الأحْياءِ منهم والميتيْنَ بِرَحمَتِكَ يَا أرْحَمَ الراحمِيْنَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعِيْنَ .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وإنْ تُبْدُوْا مَا فِي أنْفُسِكُم أوْ تخفوه يُحَاسِبْكُم بِهِ الله ﴾ قِيْلَ إنَّ هَذِهِ الآية أعْظَم آية في المؤآخذَة .

ولَمَّا نَزَلَتْ بَكَى عَبدُالله بنُ عُمَر رضى الله عنهما فقال ابنُ عباس يَرحَمُ اللهُ أبَا عَبدالرحمن إن اللهَ تبارك وتعالى يقول : ﴿ لا يكلف اللهُ نَفساً إلاَّ وسْعَهَا ﴾ .

قال بعضُ الزهاد لا يكون العبد من المتقين حتى يُحَاسِبَ نَفْسَه أشد من مُحَاسَبةِ الشرِّيكِ لِشَرَيكه والشريكان يَتحَاسَبَان بَعْدَ العَمل .

وقال الحسنُ المؤمنُ قوَّامٌ على نَفْسِهِ يُحَاسِبُها لله تعالى وإنما خَفَّ الحسابُ على قومٍ حاسبُوا أنْفُسَهم في الدنْيا وإنما شَقَّ الحسابُ على قومٍ أخَذُوا هَذَا الأمْرَ مِن غَيْرِ مُحَاسَبَة . وفي حديث طلحة رضى الله عنه أنه لَمَّا شَغَلَهُ الطِّيْنُ في صَلاتِهِ فتَدَبَّر شُغْلَهُ .

فجعَل حَائطَهُ صَدَقَةً لله تعالى ندماً ورَجَاءً لِلْعِوض مِمَّا فَاتَه وتأدِيْباً لِنَفْسِهِ .

المهم أن يَعلم العبد أن أعدى عَدُوٍ لَهُ نَفْسُه التي بَيْنَ جَنْبَيْهِ وقَدْ خُلِقَتْ أمَّارَةً بالسوء أمارَة بالشرِ فَرَّارَةً مِن الخير .

والإنْسانُ مأمُورٌ بتَزْكِيتَهَا وتَقويْمِهَا وقَوْدِهَا بسَلَاسِل العِبَر إلى عِبَادِة رَبهَا وخالِقها ومَنْعِهَا عن لَذَّاتِهَا وشهواتها المُهْلِكَة .

فإنْ أهملَهَا شَرَدَتْ وَجَمَحَتْ ولَمْ يَظْفُر بها بَعْدَ ذلك وإن لازَمَهَا بالتَّوبِيْخِ والتَّقْرِيع والمُعَاتَبَةِ والعَذْلِ والمَلَامَةِ ولَمْ يَغْفُلْ عن تَذْكَيرِهَا وعِتَابها اعْتَدَلَتْ بإذنِ الله تعالى .

والنفسُ كالِطفْلِ إنْ تُمْهِلْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ثم يقول لنفسه فمالك تَفرحِيْنَ وتَضْحَكِيْنَ وتَشْتَغِلِيْنَ باللَّهْوِ وأنْتِ مَطلوبَةٌ لِهَذَا الأمرِ العَظِيمِ والخَطْبِ الجَسِيم ، وبَيْنَ يَدَيْكَ إحْدَى مَنْزِلَتَين الجنَّةِ أو النَّارِ فَكَيْفَ يَهْنَؤُكِ نَومٌ أو يَلَذُّ لَكَ مأكول أو مشروب وأنْتَ لا تَدْرِيْن في أيِّ الفريقين تكونِيْنَ ﴿ فريق في الجنَّة وفريق في السعير ﴾ .

وكَيْفَ تَنَامُ العَينُ وهي قَرِيْرَةٌ ... ولَمْ تَدْرِ في أيّ المكَانِيْنِ تَنْزِلُ

وقُلْ لَهَا أمَا تَعْلَمِيْنَ أنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قَرِيب وأن البَعْيدَ مَا لَيْسَ آتٍ .

أما تَعْلَمِيْنَ أنَّ الموتَ يأتِي بَغْتَةً مِن غَيرِ تَقْدِيْمِ رَسُولٍ ومِن غَيْرِ مُوَاعَدَةٍ وأنَّه لا يأتِي في شِتاءٍ دُوْنَ صَيْفٍ ولا في صَيْفٍ دُوْنَ شِتَاءٍ ولا في نَهَارٍ دُوْنَ ليل ولا في ليلٍ دُوْنَ نَهار ولا يَاتِي في الصِبَّا دُوْنَ الكبر ولا في الكِبر دُوْنَ الصبا .

بل كُلُ نَفْسٍ يُمكنُ أنْ يَأتيهَا الموتُ بَغْتَةً فإنْ لَمْ يأتِ الموتُ بَغْتَةً جَاءَ المَرَضُ لا مَحَالَةَ ثُمَّ المَرَضُ يُفْضِي إلى الموت فمالَكِ يَا نَفْسُ لا تستَعِدين والموت أقربُ إليكَ من حبل الوريد .

فَهَكَذَا مُعَامَلَةُ الزّهَادِ والعُبَّادِ في تَوْبِيْخِ أنْفسُهِم وعِتَابِها فإنَّ مَطْلَبَهُم مِن المناجاة الاسْتِرْضَاءَ ومَقْصُوْدهُم مِن المُعَاتَبَةِ التَّنْبِيْه والاستراعاء .

فَمَنْ أهْمَلَ مُعَاتَبَةَ نَفْسِهِ وتَوبِيْخَهَا وأهْمَلَ مُنَاجَاتِها لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ مُرَاعِيًا فَنَسْألُ اللهَ العظيم الحي القيوم مَعْرِفَةً حَقِيْقَةً بأحْوالِ أنْفُسِنا وغُروْرِهَا .

شِعْرا تَضَرعٌ إلى الله جل جلاله :

أتَيْتُكَ رَاجياً يَاذَا الجَـــلالِ ... فَفَرِّجْ ما ترى مِن سُوءِ حَالِيْ
عَصَيْتُكَ سَيِّدي وَيْلِي بِجَهْلِي ... وعَيْبُ الذَّنْبِ لم يَخْطُرْ بِبَالِيْ
إلَى مَنْ يَشْتَكِيْ المَمْلُوْكُ إلاَّ ... إلَى مَوْلاهُ يا مَوْلَى المَوَالِيْ
لَعَمْرِي لَيْتَ أُمِّيْ لَمْ تَلُدْني ... ولَمْ أُغْضِبْكَ في ظُلَم اللَّيَالِيْ
فَهَا أنا عَبْدُكَ العَاصِي فَقِيْرٌ ... إلى رَحْمَاكَ فاقْبَلْ لِيْ سُؤَالِيْ

فإنْ عَاقَبْتَ يَا رَبي تُعَاقِبْ مُحِقاً بالعَذَابِ وَبِالنّكَالِ

قال بَعْضُهم كَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ لَهُ زَوْجَةٌ لاَ تَرحَمُه ، وَوَلَدٌ يَعُقُّهُ ولا يَعْذُرُه ، وجَارُ سُوء لا يأمنه ، وصاحب مُتَمَلِّقٌ لا يَنْصَحُه ، وشريك لا يَنْصِفُه ، وعَدُوٌّ حَسُود لا يَهْدَؤُ عن عَدَاوتِهِ وَأذِيَّتِهِ .

ونَفْسٌ أمارة بالسُوء وتنهى عن الخير ، ودُنيا مُتَزَيِّنَةٌ ، وهَوَىَ مُهْلِكٌ ، وشهوةٌ غالبَةٌ لَهُ ، وغَضَبٌ قاهر ، وشيطانٌ مُغْوِي مُزَيِّنٌ لَهُ المَعَاصِي وضُعْفٌ مُسْتَوِلٍ عليه .

فإنْ تولاهُ اللهُ وَلَطَفَ بِهِ وانْقَذَهُ انْقَهَرَتْ لَهُ هَذِهِ كُلها وإنْ تَخَلَّى عَنْهُ وَوَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ اجْتَمَعَتْ عليه وأهْلَكِتْهُ .

يَنْبَغِي للإنْسانُ أنْ يُحاَسِبَ نَفْسِهُ كُلَّ لَيْلَة إذَا أوَى إلَى فِرَاشِهِ ويَنْظُر ما كَسَبَ في يَوْمِهِ مِن حَسَنَة فَيَحْمَدُ اللهَ ويَشْكُرُهُ عليها .

وما اكتْسَبَ مِن سَيئَةِ فَيَتُوبُ إلىَ اللهِ ويَسْتَغْفِرُهُ منها ويُهَيءُ نَفْسَهُ ويُرَتِّبُ أعْمَالِهُ المسْتَقْبلَةَ ويَجْتَهِدُ في أن تكُونَ أوْقَاتُهُ كُلُّها مُسْتَغْرقةً في طَاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ويُكْثِرِ سُؤَالِ اللهِ الإعَانَةَ والتَّوفيقَ والتَّسْدِيْدَ إنَّه القادر على ذلك .

شِعْرا :

لِيَبْكِ على الشَّبِيْبَةِ مَن بَكَاها كَمَا أبْكِي عَلَيْهَا مِلءَ جَفْنِي
ومَن يَكُ باتَ ذَا حُزْنٍ عَلَيْها فَمِثْلِي فليَبِتْ في فَرْطِ حُزْنِ
ومَنْ يَكُ سَالياً يَوْماً فإنِّيْ قَطَعْتُ عَلائِقَ السُّلْوَانِ عَني
عَجِبْتُ لِبَاكِي رَسْماً لِدَارٍ عَفَتْ آثَارُهَا أو سَيْرَ ظَعْنِ
ويَتْرُكُ نَفْسَهُ يَبْكِي عَلَيْهَا وقَدْ جُبِلَتْ عَلى ضَعْفٍ وَوَهْنِ

وقَدْ صَاحَ الحِمَامُ بِهَا أجِيْبِي إلاَمَ وفِيْمَ وَيْلَكِ ذَا التَّأنّي
ومِنْ بَعْدِ الحِمَامِ لَهُ حَدْيثٌ يُرِيْهِ مِن العَجَائِب كُلَّ فَنٍّ
حَدِيْثٌ مَا حَدِيْثٌ ما حَدِيْثٌ يُبِيْنُ لَهُ اليَقِيْن مِنَ التَّظَنّي
وعُمْرٌ يَنْقَضِي في غَيْرِ شَيءٍ ولَكِنْ في المُحَالِ مِن التَّمَنِي
ويَعْذُلُنِي إذَا أرْسَلْتُ دَمْعاً على وَجَنَاتِ ذِيْ حُسْرٍ وغَبْنِ
الاَ يَا صَاحِ والبَلْوَى ضُرُوْبٌ ودَعْتُكَ لِلَّذِيْ تَهْوَى فدعْنِيْ
إذَا أنَا لَمْ أبْكِ ذَهَابَ عُمْرِي فَمَنْ هَذَا الذِي يَبْكِيْهِ عَنِّي

اللَّهُمَّ وَفّقْنَا لِصَالحِ الأعْمَالَ ، وَنَجِّنَا مِن جميعِ الأهْوالِ ، وأمِّنّا مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزِلْزَالْ ، واغْفِرْ لَنَا ولِوَلِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ منهم والميتيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللهُ عَلَى محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعيْنَ .

فَصْــــلٌ

ومِن عُيوب النفسِ حِرْصُهَا على عِمَارَةِ الدُنيا والتَكثُّرِ منها .

ومُدَاوَاتُها أن يَعْلَم أن الدنيا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرارٍ ، وأن الأخرةَ هِيَ دَارُ القَرار والعاقل مَن يَعْمُل لِدَارِ قَراره لا لِمَراحِلِ سَفَره إلا بِقَدْر مَا يَتَزَوَّدُ بِهِ لِلْدّار الآخِرة .

قال الله جل وعلا : ﴿ إعلموا أنّما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكَاثُر في الأموال وَالأوْلَاد ﴾ ولأنَّ الله تعالى يقول : ﴿ والآخِـــرة خير وأبقى ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وإن الآخِرة هي دَارُ القرار ﴾ وقال : ﴿ وإنَّ الدار الآخِرة لهي الحَيَوان لو كانوا يعملون ﴾ .

ومِن عُيُوبِ النَّفْسِ كَثْرَةُ الذُنُوبِ والمَعَاصِي إلى أنْ يَقْسى القلبُ ، وعِلاجُها كَثرةُ ذِكْرِ اللهِ والاسْتِغْفار ، والتوبةُ في كل وَقْتٍ ، ومُدَاوَمَةُ التَّهَجُد ، والصيامُ ومُجَالَسَةُ الصَّالِحيْنَ ، وحُضُورُ مَجَالِسِ الذِكر .

ومِن عُيوبها سُرُوْرُها بِمَدْحِهَا وَطَلَبُهَا الرَّاحَةَ ، وهي مِن نَتَائِجِ الغَفْلةِ .

وعلاجُها التَّيَقُظُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وعِلْمُهَا بِتَقْصِيْرِهَا فِيما أُمِرَتْ بِهِ وارْتِكَابِهَا ما نُهِيْ عنه وتَوطِيْنَهَا بأنَّ الدنيا لا سُرُوْرَ فيها ولا رَاحَة .

وأنَّهَا سَجْنٌ قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سِجْنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر » فَيَنْبَغِي أن يَكُونَ عَيشهُ فيها عَيْشَ المسجُونين .

ومِن عُيوبها الإعجَابُ بطاعاتِها والمنَّةُ بها ونِسْيَانُ المنَقِّصَاتِ للأَعْمَال ومُدَاوَاتُها أنْ تَعْلَم أنَّ أفْعَالَهَا وإنْ أخلصَتْهَا فِهِيَ مَعْلُولَةٌ بأن أفْعَالَها لا تخْلُوْ مِن العِلَل ،وعَليه أنْ يَعْمَلَ في إسْقاطِ رُؤْيَةِ اسْتِحْسَانِهِ مِن أفعالِهَا .

ومِن عُيُوبها قِلَّةُ الاعْتِبَارِ بما يَرَاهُ مِن امْهَالِ الله إيَّاهُ في ذُنُوبِهِ ، ومُدَاوَاتها دَوَامُ الخشيَةِ وأنْ يَعْلَم أنَّ ذَلِكَ الإمْهَالِ لَيْسَ بإهْمَالٍ فإنَّ اللهَ تَعَالى مُسَائِلُهُ .

شــعرا :

فيا رَبِّ إنَّ العَبْدَ يُخْفِي عُيُوْبَهُ فاسْتُرْ بِحِلْمِكَ مَا بَدَا مِن عَيْبِهِ
وَلَقَدْ أتَاكَ وَمَالَهُ مِن شــافِعٍ لِذُنُوبِهِ فاقْبَلْ شَفَــاعَةَ شَيْبِــهِ

ومِنْ عَيُوبِ النَّفسِ الغَفْلَةُ والتَّسْوِيفُ والتواني والإصْرارُ ، وتَقْرِيْبُ الأمَلِ ، وتَبْعِيْدُ الأجَلِ ، ومُدَاوَاتُها بتوبةٍ تَحِلُّ الإصْرار وخوفٍ يُزِيْلُ التَّسْوِيفَ وَرَجَاءٍ يَبْعَثُ على قَصْدِ مَسَالِكِ العَمَلِ وذِكْرِ الله جَلَّ جَلاَلَهُ على اختلاف الأوْقاتِ وإهَانَةِ النَّفسِ بِتَقْرِيْبِهَا مِن الأجَلِ وبُعْدِهَا عن الأمَلِ .

ومِن عُيُوبِ النَّفسِ رُؤْيَتُهَا الشفقةَ عليها ومُدَاوَاتُهَا رُؤْيَةُ فَضْلِ اللهِ عليه في جميع الأحْوَال .

ومِن عُيُوبِ النَّفْسِ تألُفُ الخَواطِرِ الرَّدِيئةِ فَتَسْتَحْكِم عليها المخالفات .

ومُدَاواتُها رَدُّ تِلْكَ الخَواطِرِ في الإبتداء لِئَلا تَسْتَحْكِم وذَلِكَ بالذِّكْرِ الدَّائِمِ ومُلَازَمَة الخَوْفِ بالعِلْم أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَعْلَمُ ما في سرك قال الله جل وعلا : ﴿ ورَبُّكَ يَعْلَم ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ وإنْ تَجْهَر بالقول فإنَّه يَعْلَمُ السِرَّ وأَخْفَى ﴾ .

وقال عز من قائل : ﴿ أمْ يَحْسَبُونَ أنا لا نَسْمَعُ سِرهُم ونجواهم بَلَىَ ورُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُوْن ﴾ .

ومِن عُيوبِ النفسِ اشْتِغَالُهَا بإصْلَاحِ الظاهِرِ لِزينةٍ وغَفْلَةُ عن إصلاحِ الباطِنِ مَوْضِعُ نظرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وعلاجُهَا أن يَتَيَقَّنَ أنَّ الخَلْقَ لا يُكْرِمُوْنَهُ إلا بِمقْدَارِ ما جَعَل اللهُ لَهُ في قُلُوبِهِم .

ويَعَلَمَ أنَّ باطنَه مَوْضِع نَظَرِ اللهِ فَهُوَ أوْلَى بالإصلاحِ مِن الظاهر الذي هُوَ مَوْضِعُ نَظَرِ الخَلْقِ .

قال الله جل وعلا : ﴿ إن اللهَ كان عليكم رقِيْبًا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ لا يَنْظُر إلى صُورِكم ولا إلى أعْمَالِكم ولكن يَنظُر إلى قُلُوبكم » أخرجه مُسْلم .

ثناءٌ عَلَى اللهِ وتَضَرُّعٌ إليه جل جلاله

لَكَ الحَمْدُ يَاذا الجُوْدِ والمجدِ والعـلا   تَبَـارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَـــعُ

إلٰهي وخَلّاقِي وحِرْزِيْ ومَوْئِلِـيْ إلَيْكَ لَدَى الإعْسَارِ واليُسْرِ أفْزَعُ
إلٰهي لَئِنْ أبْعَدْتَنِي أوْ طَرَدْتَنِيْ فَمَنْ ذَا الذِي أرْجُوْ ومَنْ أتَشَفَّعُ
إلٰهي لَئِنْ جَلَّتْ وَجمَّتْ خَطِيئَتِي فَعَفْوُكَ عن ذَنْبِيْ أجَلُّ وَأوْسَعُ
إلٰهي لَئِنْ أعْطَيتُ نَفسيَ سُؤْلَها فَهَا أنَا في رَوْضِ النَّدامَةِ أرْتَعُ
إلٰهي فلا تقطَعْ رَجَائي ولا تُزِغْ فُؤَادِيْ فإنِّي خائِفٌ مُتَضَرِّعُ
إلٰهي فآنِسْنِي بِتَلْقِيْنِ حُجَّتِيْ إذَا كانَ لِيْ في القَبرِ مَثْوىً وَمَضْجَع
إلٰهي أذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ يَوْمَ لا بَنُونَ ولَا مَالٌ هُنَالِكَ يَشْفَعُ
ولا تَحْرِمَنِّيْ مِن شَفَاعَةِ أحْمَدٍ و صُحْبَةِ أخْيَار هُنَالِكَ خُضَّعُ
وصَلِّ عَلَيْهِ مَا دَعَاكَ مُوَحِّدٌ وناجَاكَ أقْوَامٌ بِبَابِكَ خُشَّعُ

اللَّهُمَّ آنظِمْنَا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِيْنَ ، واجْعلنَا مِنْ عِبَادِكَ المُخْلِصِيْن ، وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الدِين ، واحْشُرْنَا مَعَ الذين أنعمْتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحينِ واغْفِرْ لَنا ولوالدينَا ولِجميعِ المسلمينَ الأحْياءِ منهمْ والميتيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الراحمينَ .

فَصْلٌ

ومِن عُيوبِ النَّفْسِ مَحَبَّتُهَا الخوضِ في أُمُورِ الدنيا وحَدِيثها ، ومُدَاواتُها الاشتغالُ بالفِكرِ الدائِمِ في كلِ أوْقَاتِهِ فيما أمَامَهُ مِن الأمور الشَّدائِدِ ، والكرُوْبِ ، والأهْوَالِ ، والبَعْثِ ، والنُشورِ ، والحِسَابِ ، والمِيزانِ ، والصِراطِ ، والجَنَّةِ ، والنَّارِ ، والتَّفكُرِ في خلق السمواتِ والأرض .

ففي التفكر في هذه الأشياءِ مَا يُشْغِلُه عن الدنيا وأهْلِها ، والخَوضِ فيما هُمْ ضَائِعُونَ فيه ، ويَعْلَمُ أن ذَلِكَ مِمَّا لا يَعْنِيْهِ فَيَتْرُكُهُ لِأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يَقُول : « مِن حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيْهِ » أخرجه الترمذي .

ومِن عُيُوبِهَا إظْهارُ الطاعات ومَحَبَّةُ أنْ يَعْلَم الناسُ مِنه ذلك أو يَرَوْهُ .

وعِلَاجُهَا أنْ يَعْلَم أنه لَيْسَ إلى الخَلْقِ نَفْعُهُ ولا ضَرُّهُ ، قال الله جل وعلا : ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ الله بضر فلا كاشِفَ لَهُ إلا هو وإن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رَاد لِفضلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وهو الغفور الرحيم ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضر فلا كاشف له إلا هو وإنْ يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ .

ويَجْتَهِدُ في مُطَالَبَةِ نَفْسِهِ بالإخلاصِ في جميعِ أعْمالِهِ لِيُزِيْلَ عنه هَذا العَيْبَ فإن الله يَقُول : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مُخْلِصِيْنَ له الدين ﴾ وقال تعالى : فاعبد الله مُخلصاً له الدين ألا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ فمن كان يَرجو لِقَاءَ رَبه فلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادةِ ربه أحَدًا ﴾ وعن أبي هريرة مرفوعا قال الله تعالى : « أنا أغْنَى الشُركاءِ عن الشِركِ مَن عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ مَعِي فيه غَيري تَرَكْته وشِرْكَه » رواه مسلم .

وعَن الضحَاك بن قَيْس قال قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَقُول أنا خَيْرُ شَرِيكٍ فَمَنْ أشْرَكَ مَعِي شَرِيْكاً فهو لِشَرِيْكِي .

يا أيها الناسُ أخْلِصُوْا أعْمَالَكم فإنَّ الله تباركَ وتعالى لا يَقْبَلُ مِن الأعْمَالِ إلاَّ مَا خَلَصَ لَهُ » أخرجه البزار بإسناد لا بأس به .

وَوَرَدَ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يَقْبَلُ مِن العَمل إلاَّ ما كان خَالصاً وابتُغِي به وَجْهَهُ » رواه أبو داود والنسائي .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فيها إلاَّ مَا ابْتُغِيَ بِهِ وجْهَهُ » أخرجه الطبراني بإسنادٍ لا بأس به .

سُئِلَ الفضيلُ بنُ عِيَاض ما أخْلَصُ العَمَلِ وما أصْوَبُهُ قال إن العَمَلَ إذَا كان خالصاً ولم يكن صَواباً لَمْ يُقْبَلْ وإذا كان صَوَاباً ولَمْ يَكُنْ خالصاً لَمْ يُقْبَلْ حتى يكونَ خَالصاً صَواباً والخَالِصُ أن يكونَ لِلَّهِ والصَّوَابُ أن يكونَ عَلى السُنَّةِ .

إذا رُمْتَ أن تَنْجُو مَن النارِ سَالِماً ... وتَنْجُوَ مِن يَوْمٍ مَهُوْلٍ عَصَبْصَبِ
وتُحْظَى بِجَنَّاتٍ وحُوْرٍ خَرَائِدٍ ... وتَرْفُل في ثَوبٍ من المَجْدِ مُعْجِبِ
وفي هَذِهِ الدنيا تَعِيشُ مُنَعَّماً ... عَزِيزاً حَمِيْداً نَائِلاً كُلَّ مَطْلَبِ
فَمِلَّةَ إبْرَاهِيْمَ فاسْلُكْ سَبِيْلَهَا ... هِي العُرْوَةُ الوُثْقى لأهْلِ التَّقَرُّبِ
فَعادِ الذي عَادَى وَوَال الذي لَهُ ... يُوَالِيْ وأبْغِضْ في الإلِه وأحْبِبِ
فَمَنْ لَمْ يُعَادِي المُشْرِكِيْنَ ومَنْ لَهُمْ ... يُوَالِي ولم يُبْغِضْ وَلَم يتَجَنَّبِ
فَلَيْسَ على مِنْهَاجِ سُنَّةِ أحْمَدٍ ... ولَيْس على نَهْج قَوِيْمٍ مُقَرِّب
وأخْلِصْ لِمَوْلَاكَ العِبَادَةَ رَاغِباً ... إليه مُنِيْباً في العِبَادَةِ مُدْئِبِ
مُحَباً لأهْلِ الخَيْرِ لا مُتَكَرِّهاً ... ولا مُبْغِضاً أوْ سَالِكاً مَنْهَجاً وَبِ
وكُنْ سَلِساً سَهْلاً لَبِيْباً مُهَذَّباً ... كَرِيْماً طَلِيْقَ الوَجْهِ سَامِي التَّطَلُّبِ
إلى كُلِّ مَن يَدْنُو إلى مَنهَجِ التُّقَى ... فَخَير الوَرَى أهْلُ التُّقَى والتَّقَرُّبِ
ومَنْهَجُهُمْ خَيْرُ المَنَاهِجِ كُلِّهَا ... ومَوْكَبُهُمْ يَوْمَ اللِّقَا خَيْرُ مَوْكَبِ
فَهَذا الذي يُرْضَى لِكلِ مُوحِدٍ ... وهذا الذي يُنْجِي بِيَوْمٍ عَصَبْصَبِ
وذلِكَ يومٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهَوْلِهِ ... لَبِتَّ لَعَمْرِي سَاهداًذَا تَقَلُّبِ
وَلَمْ تَتَلَذَّذْ بالحَيَاةِ وَطِيْبِهَا ... وَأصْبَحْتَ فيها خَائِفاً ذَا تَرَقُّبِ

اللَّهُمَّ انظِمْنَا في سِلِك حِزبِكَ المُفلِحِيْنَ ، واجْعلنَا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين

وآمِنّا يومَ الفَزَعِ الأَكْبرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا مَعَ الذين أنعمْتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحين واغفِرْ لَنا ولِوالِدَيْنا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعِين .

فَصْــــلٌ

وقال رحمه الله :

فَمِنْ عُيُوبِ النَّفْسِ فُقْدَانُ لَذَّة الطاعَةِ ، وذلك مِن سُقْمِ القَلْبِ ، ومُدَاواتُها أكلُ الحَلال ومُدَاوَمَةُ ذِكْرِ اللهِ .

ومِنْ عُيُوبِ النَّفْسِ طَلَبُ الرِئَاسَةِ بالعِلْمِ والتَّكَبُرِ والافْتِخَارِ بِهِ والمُبَاهَاتِ بِهِ ، ومُدَاوَاتُهَا رُؤْيَةُ مِنَّةِ الله عَليه في أنْ جَعَلَهُ وِعَاءً لأحْكَامِهِ .

ورُؤْيَةُ تقصِيْرِ شُكرِهِ مِن نِعْمَةِ اللهِ عليه بالعلْمِ والحِكْمَة ، والْتِزَام التَّواضُعِ والإنكسارِ والشَّفَقَةِ على المؤمنين والنَّصِيْحَةِ لِعِبَادِ الله .

فإنَّه رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال :« مَن طَلَبَ العِلْمَ لِيُبَاهِي به العُلماء أو لِيُمَارِي به السُّفَاء أوْ لِيَصرفَ به وجُوهَ النَّاسِ إليه فَلْتَبَوَّا مَقْعَدَهُ مِن النارِ .

ولِذَلِكَ قال بَعْضُ العُلَماءِ مَن إزْدَادَ عِلْماً فَلْيَزْدَدْ خَشْيَةً فإنَّ اللهَ تعالى يَقُول : ﴿ إنما يَخْشَىَ اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ .

وقال رِجُلٌ لِلْشَّعْبِي أيُّها العَالِمُ فقالَ إنما العَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللهَ .

شــــعرا :

يَا رَبِّ حَقِّقْ تَوْبَتِي بِقَبُولِهَا   واشْفِ القُلُوبَ بأمْرِكَ الفَعَّـالِ

وامْحُ الشَّقَاوَةَ بالسَّعَادَةِ واكْفِني   بِكِفايَةٍ يَرْتَــاحُ مِنْهَــا بالِيْ
أرْجُوْكَ فيالدَّارَيْنِ قَطْــعَ عَلائِقي   عَمَّنْ سِـوَاكَ فأنْتَ أوْلى وَالِيْ
عَوَّدْتَنِي اللُّطْفَ الجَمِيْلَ تكَرُّماً   فاجْعَلْهُ دَوْماً يَا عَظِيْــمُ نَوَالِي
ثُمَّ اكْسِنِيْ سِتْرَ الحَيَــاةِ وفي المما   تِ وبَعْدَهُ واشْمِلْ بِذَاكَ عِيَالِي
وبِكِلْمَةِ التَّوحِيْدِ يَا مَوْلى الوَرَى   إجْعَلْ خِتَامَ القَوْلِ والأعْمَــالِ
ثُمَّ الصَّلاةُ على النبي وصَحْبِهِ   أهلِ الوَفَا والصِّدقِ في الأقْوالِ

ومما يعالج به العُجْبِ والكِبرِ والافتخار ما يلي :

أوَّلاً : أنْ يَعْتَقِدَ وَيَجْزِمَ بأنَّ التَّوفِيقَ الذي حَصَلَ لَهُ مِن الله فإنَّهُ إذَا رَآى التَّوفِيقَ مِن الله جَل وعَلا اشْتَغَلَ بشكرِ الله .

الثاني : أن يَنْظُرَ إلى النَّعْمَاءِ التي تَفَضَّلَ اللهُ بها عليه فإنه إذَا نَظَرَ فيها اشْتَغَلَ بشكر المَنعم وهو الله جل جلاله .

الثالث : أنْ يَخَافَ أنْ لا يُتَقَبَّلَ منه ، فإذَا اشْتَغَلَ بِخَوف عَدَمِ القَبُولِ ذَهَبَ عَنَه العُجْبُ بِنَفْسِهِ .

الرابعُ : أنْ يَنْظُرِ في ذُنُوبِهِ القَدِيْمَةِ والحَدَيْثة الكَبَائِرِ والصَّغائِرِ وربما أنْ يَكُونَ صَدَرَ منه قَولٌ أوْ فِعْلٌ يُحْبِطُ العَمَل ، فإذا استَحْضَرَ هذا خَافَ وذَهَبَ عنه عُجْبُهُ .

ومِن عُيُوبِ النَّفْسِ اسْتِكْشافَ الضُرِ ممَّنْ لا يَمْلِكه ، ورَجَاؤُهُ النَّفْع مِمَّنْ لا يَقْدِرُ عليه ، واهْتِمَامُه بالرِزْقِ وقد تَكَفَّلَ اللهُ له به .

ومُدَاوَتُه الرُجُوعُ إلى صَحةِ الإيمانِ بِما أَخْبَرَ اللهُ به في كتابه قال الله جل وعلا : ﴿ وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُر فلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُو وإنْ يُرِدْكَ بخَير فلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عباده﴾ الآية وقال عَزَّ مِن قَائِل : ﴿ وما من دابة في الأرض إلاَّ عَلَى الله رزقها ﴾ .

ومن عُيوب النّفس كَثْرةُ الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكر الله وما والاه .

ومُداوَاتُها تَحْقِيْقُهُ بأنَّهُ مأخُوذٌ بمَا يتكلم بِهِ وأنَّهُ مَكْتوبٌ عليه ومَسْؤُلٌ عنه قال الله جل وعلا : ﴿ وإن عليكم لَحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ ما يَلْفِظُ مِن قَولٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتيْد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مَسْؤُلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا خير في كثير مِن نجواهم إلاَّ مَن أمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوْفٍ أَوْ إصلاح بين الناس ﴾ الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : « وهل يَكُبُّ الناس في النار على مَنَاخِرهم إلاَّ حَصَائد أَلْسِنَتِهِمْ » .

ومن عُيوب النَّفْس كَثرةُ التمني ، ومُدَاوَاتُهَا أنْ يَعْلَمَ أنَّه لا يَدْرِي ما يَعْقبُ التّمني أيجُرُهُ إلى خير وهو ما يُرْضِيْهِ أَوْ يَجُرُّهُ إلى ما يُسْخِطُه .

فإذا أيْقَنَ إتِّهامَ عَاقِبَةِ تَمَنِّيْهِ اسْقَطَ عَن نَفْسِهِ ذلك وَرَجَعَ إلى الرِّضَا والتسليم .

فيَسْتريْح ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وعَسَى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعَسَى أن تُحبُوا شيئاً وهُو شرٌ لكم واللهُ يَعْلمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ .

فائدة نفيسة : ينبغي لطالِب العلم أن يتأملها ويأخذ لمستقبله فِكرة قال بَعْضُ العُلماءِ لَمْ أَزَلْ بُرْهَةً مِن عُمْرِي أَنظُرُ اخْتِلاَفَ الأُمَّة والتمِسُ المنهاجَ الواضح والسَّبيل القاصِدَ وأطلبُ مِن العِلم والعَمَلِ واسْتَدِلُ على طَرِيْقِ الآخِرَةِ بإرْشَادِ العُلماء .

وعَقَلْتُ كثيرًا مِن كلام اللّهِ عَزَّ وجَل بتَأويْلِ الفُقَهاءِ وَتَدَبَّرْتُ أحْوَالَ الأمَّةِ ونَظَرْتُ في مَذَاهِبِهَا وأقَاوِيْلِهَا فعَقَلْتُ مِن ذَلِكَ ما قُدِّرَ لي .

ورأَيْتُ إخْتِلافَهُم بَحْرًا عَمِيقًا غَرِقَ فيه ناسٌ كَثِير وسَلِمَ مِنهُ عِصَابَةٌ قليلة .

ورأَيْتُ كُلَّ صِنْفٍ منهم يَزْعُمُ أن النجَّاة لِمَنْ تبِعَهُم وأن المهالكَ لِمَنْ خَالفَهَمْ .

ثُمَّ رَأيتُ الناسَ أَصْنَافًا فمنهم العالِمُ بِأمْرِ الآخرة لِقَاؤُهُ عَسِيْر وَوُجُودُهُ عَزِيْز .

وهُو مَن يُعِدُّ نَفْسَهُ في الدنيا لِثَواب الآخرةِ والقُرْبِ مِن العَزِيْزِ الحَكِيم .

ومنهم الجَاهِلُ فالبُعْد منه غَنِيْمَة .

ومنهم المُتَشَبِهُ بالعُلماء مَشْغُوفٌ بِدُنْيَاه مُؤْثِرٌ لَهَا .

ومنهم حَامِلُ عِلْمٍ مَنسُوْبٌ إلى الدِيْنِ مُلْتِمسٌ بِعِلْمِهِ التَّعْظِيْمَ وَالعُلُوّ .

يَنَالُ بالدِّين مِن عَرَضِ الدُنْيَا .

ومنهم حَامِلُ عِلْمٍ لا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَ ما حَمَلَ .

ومنهم المُتَشَبِّهُ بالنُّسَاكِ مُتَحَرٍّ لِلْخَيْرِ لَا غِنَاءَ عِنْدَهُ ولا نَفَاذَ لِعِـلْمِهِ ولا مُعْتَمَدَ على رَأْيِهِ .

ومنهم المَنْسُوْبُ إلى العَقْلِ والدَّهَاءِ مَفْقُوْدُ الوَرَعِ والتُّقَى .

ومنهم مُتَوادُّونَ على الهَوَى وَاقِفُوْنَ ولِلدُّنْيَا يَذِلُّوْنَ ورِيَاسَتِها يَطْلُبُون .

ومنهم شَيَاطِينُ الإِنس عن الآخرة يَصُدُّونَ وعلى الدنيا يَتَكَالَبُون وإلى جَمْعِها يُهْرَعُون وفي الاسْتِكْثَارِ منها يَرْغَبُون .

فهم في الدنيا أحْيَاء وفي العُرْفِ مَوْتَى .

فَتَفَقَّدْتُ في الأَصْنَافِ نَفْسِي وضِقْتُ بذلك ذَرْعًا فَقَصَدْتُ إلى هُدَى المُهْتَدين بِطَلَبِ السَّدَادِ والهُدَى واسْتَرْشَدْتُ العِلْمِ وأَعْمَلْتُ الفِكْرَ وأَطَلْتُ النَّظَرَ .

فَتَبيَّنَ لي مِن كتابِ اللّهِ عز وجل وسُنَّةِ رسوله ﷺ وإجماع الأُمَّةِ أنَّ اتِّبَاعَ الهَوى يُعْمِي عن الرُّشْدِ ويُضلُّ عن الحق ويُطِيْلُ المكث في العَمَى .

فَبَدَأْتُ أولاً بإسْقَاطِ الهَوى عن قَلْبي وَوَقَفْتُ عندَ اخْتِلاف الأُمَّةِ مُرْتَادًا لِطَلَبِ الفِرْقَةِ الناجِيَة .

حَذَرًا مِن الأَهْـوَاءِ المُرْدِيَةِ والفِرقةِ الهَالِكَة مُتَحَرِّزًا مِن الاقْتِحام قبلَ البَيَانِ والتَمِسُ سَبِيْل النجاةِ لِنَفْسِي .

ثم وَجَدْتُ باجْتِماع الأُمَّةِ في كتابِ اللّهِ المُنَزَّل أَنَّ سَبِيْلِ النجاةِ في التَّمَسُكِ بتقوى اللّهِ وأَدَاءِ فرائضِهِ .

والورع في حَلاَلِهِ وحَرَامِهِ وجميع حدوده .

والإخلاص لله تعالى بطَاعَته .

والتَّأسِي بِرَسُولِهِ ﷺ فطَلَبْتُ مَعْرِفَةَ الفرائض والسُّنَن عِندَ العُلماءِ في الآثـارِ فَرَأيْتُ إجْتِمَاعًـا واختـلافًـا وَوَجَدْتُ جَمِيعَهُم مُجْتَمِعِيْنَ على أنَّ عِلْمَ الفَرائِضِ والسُنَنِ عندَ العُلماءِ باللّهِ وأمرِهِ الفُقهاءِ عند اللّهِ العَامِلين بِرِضْوانِهِ .

الوَرِعِيْنَ عن مَحَارِمِهِ المُتَأَسِّيْنَ برسوله ﷺ والمُؤثِريْنَ الآخِرَةَ على الدنيا أُولَئكَ المُتَمَسِّكُونَ بأمْرِ اللّهِ وسُنَنِ المُرسَلِين .

فالتَمَسْتُ مِن بَيْنِ الأُمَّـةِ هَذا الصِّنْفَ المُجْتَمِـع عَليهم والمُـوصُوفِيْنَ بآثارهم واقْتَبَسْتُ مِن عِلْمِهِم فَرَأيْتُهُم أَقَلَّ مِنَ القَلِيْلِ .

ورأيْتُ عِلْمَهُم مُنْـدَرِسًـا كما قال رسول الله ﷺ بدأ الإسلام غريْبًا وسَيَعُوْدُ غريْبًا كما بدأ فطُوْبَى لِلْغُرَباءِ وهم المُتَفرِدُونَ بِدِيْنِهِم .

فعَظُمَتْ مُصِيْبَتِي لِفَقْدِ الأوْلِيَاءِ الأَتْقِيَاء الأبرار وخَشِيتُ بَغْتَةَ الموتِ أنْ يَفْجَأني عَلَى اضْطَرابٍ مِن عُمُري لاختلافِ الأُمَّةِ .

فانْكَمَشْتُ في طَالِبِ عِلمٍ لَم أجِدْ لِي مِن مَعْرفَتِهِ بُدًا ولم أقَصرْ في الإحْتِيَاطِ .

فَقَيَّضَ لِي الرءُوفُ بِعِبادِهِ قَوْمًا وجَدْتُ فيهم دَلائِلَ التَّقْوَى وأعلامَ الوَرَعِ وإيْثارَ الآخِرَة على الدنيا .

ووَجَدْتُ إرْشَادَهُم ووَصَايَاهُم مُوافِقةً لأفاعيل أئِمَّةِالهُدَى .

وَوَجَدْتُهم مُجْتَمِعِينَ على نُصْحِ الأُمَّةِ لا يُرَجُّونَ أبدًا في مَعْصِيتَه ولا يُقَنِّطُونَ أبدًا مِنْ رَحْمَتِهِ .

يَرْضَونَ أبدًا بالصبر على البَأْسَآءِ والضَّرَّآءِ والرضا بالقضاء والشكرِ على النعماء يُحَبِّبُوْن اللّهَ إلى العَبْدِ بذِكرهم أياديه وإحْسَانِهِ ويَحُثُونَ العِبَادَ على الإنابة إلى الله تَعَالى عُلَمَاءُ بعَظَمَتِهِ تعالى عُلَمَاءُ بعَظِيم قدرَتِهِ وعُلماءُ بكتابهِ وسُنَّتِهِ فُقَهاءُ في دِيْنِهِ عُلَماءُ بما يُحِبُّ ويكره وَرِعِين عن البِدعِ والأهْوَاء تارِكِينَ لِلتَّعَمُّقِ والإغلاءِ مُبْغضِيْنَ للْجِدَالِ والمِرَاءِ مُتَوَرِعِينَ عن الاغْتِيَابِ والظُّلم مُخالِفِينَ لأهْوَائِهم مُحَاسِبِيْنَ لأنْفُسِهم مالِكِين لجَوارِحِهم وَرِعِيْنَ في مَطَاعِمِهم ومَلابِسِهم وجَمِيعِ أحْوَالِهِم مُجَانِبِينَ لِلشُبُهَاتِ تارِكِينَ لِلشهواتِ مُجْتزِئِن بالبُلْغَةِ مِن الأَقْواتِ مُتقلِّلِيْنَ مِن المُبَاحِ مُشْفِقِين مِن الحِسابِ وجِلِينَ مِن المعادِ عُلماءُ بأمر الآخِرة وأقَاويْل القِيَامَةِ رَاجِينَ مِن الكريم المنان جَزيْلَ الثواب وخائِفِين مِن أَلِيمِ العِقاب وذلك أوْرَثَهُم الخَوْفَ الدَّائم والهَمَّ المُقِيم فَشُغِلُوا عن سُرُورِ الدنيا ونعِيمها فَتَبَيَّنَ لِيْ فَضْلُهُمْ واتَّضَحَ لِي نُصْحُهُم وأيْقَنْتُ أنهم العَامِلُونَ بطَرِيْقِ الآخِرة والمتأسُونَ بالمُرْسَلِين والمَصَابِيْح لِمَنْ اسْتَضَاءَ بهم والهادُونَ لِمَن اسْتَرْشَد أ . هـ .. قُلْتُ فَبِمِثْلِ هَؤلآءِ إنْ وُجِدُوْا فَلْيَقْتَدِ المقتدون .

ما هَذِهِ الدَّارُ إلاَّ لِلْفَنَا خُلِقَتْ ... ما هَذِهِ الدَّارُ إلاَّ دَارُ مِضْمَارِ
يا رَبَّ نَوِّرْ قُلُوباً طَالَمَا غَفَلَتْ ... ما هَذِهِ الدارُ إلاَّ عَبْرُ أَسْفَارِ
ونَحْنُ في غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا ... كأنَّنَا غَنَمٌ في بَيْتِ جَزَّارِ
نَلْهُوْ وَنَلْعَبُ في دَارِ الغُرورِ وَمَا ... في القَلْبِ مِن وَاعِظٍ نَاهٍ بإنْذارِ
فَخُذْ لِنَفسِكَ زَاداً لِلرَّحِيل إلَى ... دَارِ البَقَاءِ ولا تَرْحَلْ بأوْزَارِ
أيْنَ المُلوكُ وأبْنَاءُ الملوك وَمَنْ ... شَادُوْا المَصَانِعَ مِن بَرٍّ وجبَّارِ
أتى على الكُلِ ما أوْدَاهُم وَسَطَا ... رَيْبُ المَنُونِ بِها امْضَاءُ نَهَّارِ

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الإيمانَ هادِماً لِلسيئآت ، كَمَا جَعَلْتَ الكُفْرَ عَادِمَاً لِلْحَسَنَاتِ ، وَوَفقنا للأعْمَالِ الصَّالِحاتِ ، واجْعلنَا مِمَّنْ توكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ ، واسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ ، وَدَعَاكَ فأجَبْتَهُ ، واغْفرْ لَنَا ولِوالِدَيْنَا ولِجميعِ المسليمن الأحْياءِ منهم والميتين برحمتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحمِيْنَ وصلى الله على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

فَصْــــلٌ

قال الله تَبَارَكَ وتَعَالى : ﴿ إنَّ النفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُوء إلاَّ ما رَحم ربي ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ وأما مَن خَافَ مقامَ ربه ونهى النفس عن الهوى فإنَّ الجَنَّة هي المأوى ﴾ .

فعلى الإنْسان العاقل أن يُحَاسِبَ نَفْسَهُ ويَتَفَقَّدَهَا ولا يَغْفُل عنها ويَنظر في عُيُوبِهَا بِدِقَّةٍ وَيُصْلِحُهَا ويُعَالِجُهَا بالأدْوِية النافِعَة لَهَا مِمَّا سَيَأْتي ذِكْرُهُ .

وقال بعضُ العُلماء أصلُ كُل مَعْصِيَةٍ وشَهْوَةٍ الرِضَا عن النَّفْسِ لأنَّه أصلُ جَميعِ الصِفَاتِ المذمُومةِ وعَدمُ الرضا عن النفسِ أصْلُ الصفاتِ المحمودة ،

وذلك لأنَّ الرضا عن النفس يُوجِبُ تَغْطِيَةَ عُيُوبِهَا ومَساويْها وقَبَائِحها فَيصِيْرُ قَبِيْحُهَا حَسنَا عنده كما قيلَ :

وعَيْنُ الرضا عن كُل عَيْبٍ كَلِيْلةٍ كَما أنَّ عَيْنَ السُخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

وعَدمُ الرَضا عن النَّفْس على العَكسِ من هذا لأن العبدَ إذْ ذَاكَ يَتَّهِمُ نَفْسَه ويَتَطَلَّب عُيُوبَها ولا يَغْتَرُ بما يَظهر مِن الطاعة والانْقياد كما في الشطر الأخير من بيت الشعر :

كَمَا أنَّ عَيْنَ السُخْطِ تُبْدِي المساويا

آخر : ولَسْتُ بَراءِ عَيْبَ ذالودِ كلِهِ ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيا

واعْلم وفقنَا اللهُ وإيَّاكَ وجميع المسلمين لما يُحِبُه ويَرْضَاهُ أنَّ مَن رَضِيَ عن نَفْسِهِ اسْتَحْسَنَ حَالَها وسَكَنَ إليها ومَن اسْتَحْسَنَ حالَ نَفْسِهِ وسَكَنَ إليها اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الغَفْلَةُ .

وبالغَفْلَةِ يَنْصَرِفُ قَلْبُه عن التَّفَقُدِ والمُرَاعَاةِ لِخَواطِرِهِ فَتَثُوْرُ حِيْنئِذٍ دَوَاعِيْ الشهوة على العبد .

ولَيْسَ عنده مِن المراقبةِ والملاحظةِ والتَّذْكِيرِ ما يَدْفَعُهَا بِه ويَقْهَرُهَا .

فتصير الشهوةُ غَالِبَةً لَهُ بِسَبَبِ ذلك ومَن غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ وَقَعَ في المَعَاصِي .

وأصلِ ذلك كُله رِضَاه عن نَفْسِهِ ومَن لم يَرْضَ عن نَفْسِهِ لم يَسْتَحْسِنْ حَالَهَا ولم يَسْكُنْ إليها .

ومَنْ كان بهذا الوَصْفِ كَانَ مُتَيَقِّظاً مُنْتَبِهاً للطَوارِق وبالتَّيَقُضِ والتَّنَبُهِ يَتَمَكَنُ من تفقُدِ خَوَاطِره ومُرَاعَاتِها .

وعند ذلك تَخْمُدُ نِيْرانُ الشَّهْوَةِ فلا يكونُ لَهَا عليه غَلَبَةٌ ولا قُوةٌ فَيَضْعُفُ العبد حِيْنَئِذٍ بصِفةِ العِفَّةِ .

فإذا صار عَفيْفاً كان مُجْتَنِباً لِكُلِّ مَا نَهَاهُ اللهُ عنه مُحَافِظَاً على جميع ما أَمَرَهُ بِهِ وهَذا هُوَ مَعْنَى الطَّاعةِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ وأصلُ هَذا عَدَمُ الرَضا عن نَفْسِهِ .

فإذاً يجبُ على الإنْسان أنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ ويلْزَمُ مِن ذلك عَدَمُ الرِضا عنها وبقَدْرِ تَحقُقِ العبدِ في مَعْرفة نَفْسِهِ يصلح له حَالُه ويَعْلُو مَقَامُه .

وكَانَ العُلمـاء المخلصـونَ يَذُمُونَ نُفُوسَهم ويَتهِمُوْنَهَا ولا يرضون عنها .

قال بعضُهم من لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الأوقات ولم يُخَالِفْهَا ولَمْ يَجُرَّهَا إلى مكروهها فَهُوَ مَغْرُوْر ، ومَنْ نَظَر إليها باسْتِحْسَانِ شيء منها فقد أهلكها .

وكَيْفَ يَرضَى عنها عَاقِلٌ وهي الأمارةُ بالسُوءِ . وقال بعض العلماء لا تَسْكُنْ إلى نَفْسِكَ وإن دامت في طَاعَةِ الله .

وقال آخر : ما رَضِيْتُ عن نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْن .

وقَالَ بَعْضُهم أيُّها العَبدُ حَاسِبْ نَفْسَكَ في خَلواتِكَ وتَفَكَّرْ في انْقِضَاءِ مُدَّتِكَ ، وذَهَابِ أوْقَاتِكَ ، واعْمل في زَمانِ فَرَاغِكَ ، لِوَقْتِ شِدَّتِكَ .

قال صلى الله عليه وسلم :« نِعْمَتَان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس الصحةُ والفراغ » .

وتَدَبَّرْ ، واحْرَصْ على ما تَمْلأُ بِهِ صَحِيْفَتَكَ مِن الحَسَنَاتِ ، وانْظُر هَلْ نَفسَكَ مَعَكَ أوْ عَلَيكَ في مُجَاهَدَتِكَ لَقَدْ سَعِدَ مَنْ حَاسَبَها ، وفاز وَاللهِ مَنْ حَارَبَهَا وقام باسْتِيْفَاءِ الحقوق منها ، وطالبها ، وكُلَّما وَنَتْ وتَكَاسَلَتْ عَاتَبَهَا وَوَبَّخَهَا وَكلَّما توقَّفَتْ جَذَبَهَا وكُلَّما مَالَتْ إلى آمَالِ هَوَاهَا رَدَّهَا وغلَبَها .

قال عليه الصلاة والسلام : « الكيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموت والعَاجِزُ مَن أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلى اللهِ الأماني » .

وقال عُمَرُ بن الخَطَّاب رَضى الله عنه حَاسِبُوا أنْفُسَكُم قَبل أنْ تحاسَبُوا

وطَالِبُوْهَا بالصِّدْقِ في الأعْمَالِ قَبْلَ أنْ تُطَالَبُوْا وزنُوا أعمالكم قَبْلَ أنْ تُوْزَنُوا فإنَّهُ أهْوَنُ عَلَيْكم في الحِسَابِ غَداً وتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأكْبرِ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُوْنَ لا تَخْفَى منكم خَافِيَة » .

شِــعْرا :

يَا نَفْسُ قَبْلَ الرّدَى لَمْ تُخْلقَي عَبَثَا ... تَجَهَّزِي بِجَهازٍ تَبلُغــينَ بِهِ
قَبْلَ اللِّزامِ فَلا مَلْجَـا ولا غَوثَا ... وسَـابِقِي بَغْتَـةَ الآجَالِ وانْكَمِشِي
إنّ الرّدَى وارِثُ البَـاقِي ومَا وَرَثَا ... ولا تَكُـدِّي لِمَنْ يَبْقَى وتَفتَقِـرِي
واسْتَيَقِظِي. لا تَكُونِي كَالّذِي بَحَثَا ... واخْشَيْ حَوادِثَ صَرْفِ الدَّهْرِ في مَهَلٍ
فَوافَتْ الحَرْثَ مَحْرُوثاً كَمَا حُرِثَا ... عَنْ مُدْيَةٍ كَانَ فِيْهَا قَطْعُ مُدَّتِهِ
أوْ الغُبَـارُ يَخَـافُ الشَّيْنَ والشَّعَثَا ... مَنْ كَانَ حِيْنَ تُصِيْبُ الشَمسُ جَبْهتهُ
فَسَـوفَ يَسكُنُ يَوْماً رَاغِمـاً جَدَثَا ... ويَألَفُ الظِّلَّ كَيْ تَبْقَى بَشَـاشَتُهْ
يُطِيلُ تَحْتَ الثَرَا في جَوْفِهَـا اللَّبَثَا ... في قَعْرِ مُوْحِشَـةٍ غَبْرَاءَ مُقْفِرَةٍ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لا تَضُرُّهُ المَعْصِيةُ ولا تَنْفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغَفْلةِ وَنَبِّهْنَا لاغْتِنَامِ اوقاتِ المهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنَا من قَبَائِحِنَا ولا تُؤاخِذْنَا بما انْطَوَتْ عَلَيْهِ ضَمائِرُنَا واكَنَّتْهُ سَرائِرُنَا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التي تَعْلَمُهَا مِنا ، وامنُنْ عَلَيْنَا يا مَولانَا بتوبةٍ تمحُو بهَا عَنَا كُلَ ذَنْبٍ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ولِجَمَيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْياءِ منْهم والميتيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ عَلَى محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعيْنَ .

فَصْـــلٌ

مَوَاعِظ وَفَوائِد ونصائح

في وَصيَّة الإمَام عَليّ بن أبي طَالِب لابْنِهِ الحَسَنِ أَحْيِيْ قَلْبَكَ بالمَوْعِظَةِ وأمِتْهُ بالزّهَادَة وَقوِّهِ باليَقين وَنوِّرهُ بالحِكمَةِ وَذَلِّلْهُ بذِكْرِ المَوْتِ وقرِّرْهُ بالفَنَاءِ وبصّرْهُ بفَجَاعِ الدّنيا وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدّهرِ وَفُحْش تَقلُّبِ الليالِي وَالأيّامِ وَاعْرِضْ عليه أخْبارَ المَاضِيْنَ وَذَكِّرْهُ بِمَا أصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِن الأولِيْنَ وَسِرْ في ديارهِمْ وآثارِهم وَانْظُرْ فِيْما فَعَلُوا وعَمَّا انْتَقَلُوا وَأيْنَ حَلّوا وَنَزَلُوا فإنَّكَ تَجِدْهُمْ قَدْ انتقلوا عَنْ الأحِبَّة وَحَلّوا في دَارِ غُرْبَةٍ وَكَأنَّكَ عَنْ قَلِيْلٍ قَدْ صِرْتَ كَأحَدِهِمْ فأصْلِحْ مَثْوَاكَ ولا تبعْ آخِرَتِكَ بِدُنْياكَ إلَى أنْ قالَ - يَا بُنَيَّ ، أكْثِرْ مِن **ذِكْرِ** المَوْتِ وَذِكْر مَا تَهجمُ عَلَيْه وَتُفْضِي بَعْدَ الموتِ إلَيه حَتَّى يَأتِيَكَ وقَدْ أخذْتَ حِذْرَكَ وشَدَدْتَ لَهُ إزْرَكَ وَلا يَأتِيْكَ بَغْتَة فَيَبْهُرَكَ وَإيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ بِمَا ترى مِن إخْلادِ أهْلِ الدُّنْيَا إلَيها وَتَكَالُبِهُم عَلَيْهَا فَقَدْ نَبَّأكَ اللهُ عَنها وَنَعَتَتْ لَكَ نَفْسها وَتكشفتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيْهَا فَإنَّ أهْلَها كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ يُهِرُّ بَعْضُها بَعْضا أيْ يَنْبَحُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَيَأكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَها وَيَقْهَرَ كَبِيْرُهَا صَغِيْرُها نَعمٌ مُعَقَّلةٌ وَأخْرَى مُهْمَلةٌ قَدْ أضَلَّتَ عُقُوْلَهَا وَرَكَبتْ مَجْهُوْلَهَا سُرُوْحُ عَاهَةٍ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ **يُقِيْمُهَا** وَلا مُقِيْمٌ يَسِيْسُهَا سَلَكَتْ بِهْم الدّنْيَا طَرِيْقَ العَمَى وَأخذَتْ بِأبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الهُدَى فَتَاهُوا في خَيَراتِهَا وغَرَقُوا في نِعْمَتِهَا وَاتّخذَوْهَا رَبّاً فلَعِبَتْ بهم وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا ، واعْلَمْ أنَّ مَنْ كَانَ مطيَّتَهُ الليلُ والنَّهَارُ فَإنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإنْ كَانَ وَاقِفا وَيَقْطَعُ المسَافَةَ وَإنْ كَانَ مُقِيْمًا .

وقال بَعْضُ السلف لَوْلَا أَنِّي أكرهُ أنْ يُعْصَى الله ، تَمَنيْتَ أن لا يَبْقَى في هذا المُصْرِ أحَدٌ إلاَّ وَقَعَ فيَّ واغْتَابَنِي .

فأيُّ شيءٍ أهنأ مِن حَسَنَةٍ يَجِدُهَا الرجُلُ في صَحَيْفَتِهِ يَومَ القِيَامَةِ لَمْ يَعْمَلْهَا ولَمْ يَعْلَمْ بِهَا .

وقال يَحْيَ بنُ مُعَاذ لَسْتُ آمُركُمْ بِتَركِ الدنيا آمُرُكُم بِتَركِ الذُنُوب ، تَرْكُ الدنيا فَضِيْلَةٌ وتَرك الذُنُوب فَرِيْضَةٌ وأَنْتُم إلى إقامَةِ الفَرِيْضَةِ أحْوَجُ منكم إلى الحَسَنَاتِ .

وقال لا تكُنْ مِمَّنْ يفضَحُهُ يومَ مَوْتِهِ مِيْراثُهُ، ويَومَ حَشْرِهِ مِيْزَانُه .

وقال إبراهيمُ الخَوَّاص دَوَاءُ القَلْب في خَمسةِ أشيَآء : قِراءةِ القرآنِ بالتدبر ، وخلاءِ البَطْنِ ، وقيامِ الليل ، والتَّضَرعِ عند السحر ، ومُجَالَسةِ الصَّالِحِين .

وقال على قَدْرِ إعْزَازِ المرءِ لأمرِ اللهِ يُلْبسُه اللهُ مِن عِزه ، ويُقِيْمُ لَهُ العِزَّ في قُلُوب المؤمنين .

وقال يوسف بن الحسين على قدر خوفكَ من الله يَهَابُكَ الخَلْقُ، وعَلَى قدر حَبِّكَ اللهُ يُحبُّكَ الخلق ، وعلى قدر شُغلكَ بأمر اللهِ يُشْغَلُ الخلقُ بأمْرِكَ .

وقال آخرُ وقد سُئِلَ عَنْ الصُّحْبَةِ فقال مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِحُسْنِ الأدبِ ودَوَامِ الهَيْبَةِ والمراقبةِ .

والصُّحْبَةِ مَعَ الرسولِ باتباعِ سُنَّتِهِ وَلُزُوْمِ ظَاهِرِ الحكم .

والصحبةُ مَعَ أوْلياءِ اللهِ بالاحترامِ والخِدْمَةِ .

والصَحبةِ مَعَ الأهْلِ والوَلِدِ بِحُسْنِ الخُلقِ .

والصَحبةُ مَعَ الاخْوانِ بِدَوامِ البِشْرِ لهم والإنْبَسَاطِ مَعَهُم ما لم يكن إثما .

والصَحبةُ مَعَ الجُهّالِ بالدُعَاءِ لَهُمْ وَالرِحْمةِ عليهم ورُؤْيَةِ نعمةِ الله عليكَ إذْ عَافَاكَ مِمَّا ابْتَلاهُم به .

وقالَ بَعْضُ السَلَف لَقِيْتُ رَجُلاً في بَرِيَّةٍ فَقُلْتُ مِن أيْنَ ، فقال مِنْ قومَ ﴿ لا تلهيهم تجارَة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ قُلْتُ وإلى أيْنَ قال إلى قوم ﴿ تتجافى جُنوبهم عن المضاجع ﴾ .

يا هَذا مَثِّلْ لِنَفْسِكَ صَرْعَةَ الموت وَمَا قَدْ عَزَمْتَ أنْ تفعلَ حِيْنَئِذٍ وَقْتَ الأسْرِ فافْعَلْهُ وَقْتَ الاطْلَاقِ .

ومَثِّلْ نَفْسَكَ في زَاوِيَةٍ مِن زَوَايَا جَهنَّم وأنْتَ تَبْكِي أبَدًا وأبْوابُها مُغْلَقةٌ وسُقوفها مُطْبَقَةٌ وهي سَوْدَاءُ مُظْلِمَة .

لا رَفِيْق تأنَسُ به ولا صَدِيْق تشكو إليه ولا نومَ يُرِيْحُ ولا نَفْسَ ولا طَعَامَ إلا الزَّقُوم ولا شَرَابَ إلا الحَمِيْم .

قال كَعْب إنَّ أهْلَ النارِ لَيَاكُلُونَ أيْدِيَهُم إلى المناكب مِن النَّدَامَة على تفريطِهم وما يَشعُرون بذالِكَ .

فَانْتَبِه يا غَافل لاغْتنامِ عُمرِكَ وازْرَعْ في رَبِيْعِ حَيَاتِكَ قبل جُدُوْبَةِ أرْضِ شَخْصِكَ .

وادَّخِرْ مِن وَقْتَ قُدرَتِكَ لِزَمَنِ عَجْزَكَ واعْتَبِرْ رَحْلَكَ قَبلَ رَحِيْلِكَ .

فكأنك بِحَرْب التَّلَف قَدْ قَامَتْ على سَاق وانْهَزَمَتْ جُيُوشُ الأمَلِ .

وإذا بِمَلَكِ الموتِ قَدْ بَارَزَ الرُوحَ يَجْتَذِبُها بخَطَاطِيف الشَّدائِد مِن تَيَّارِ العُروق .

وقد أوثق كِتاف الذَّبِيْحِ وحَارَ البَصَرُ لِشِدَّة الهَوْلِ .

ولا تَسْألْ عن حَالِ المُحْتَضر وما نَزَلَ به مِن الكُرُوب والسَّكَراتِ .

فَتَيَقَظْ يا مِسْكِيْنُ وتَهَيأ لِتلك الساعة وحَصِّلْ زاداً قبل العوْزِ .

سَتَنْدمُ إنْ رَحَلْتَ بِغَيْرِ زَادٍ   وتَشْقَى إذْ يُنَادِيْكَ المُنَادِيْ
فَمَا لَكَ لَيْسَ يَعْمَلُ فيكَ وَعْظٌ   ولا زَجْـرٌ كأنَّكَ مِن جَمَــادِ
فلا تَأمَنْ لِذِى الدُنْيَا صَـلَاحاً   فإنَّ صَلَاحَهَا عَيْنُ الفَسَــادِ
ولا تَفْـرَحْ بِمَـالٍ تَقْتَنِيْـــهِ   فإنَّكَ فِيْهِ مَعْـكُوْس المُرَادِ
وَتُبْ عَمَّـا جَنَيْتَ وأنْتَ حَيٌّ   وكُنْ مُتَيَقِضـاً قَبْلَ الرُقَـادِ
أتَرْضَى أنْ تَكُونَ رَفِيْقَ قَومٍ   لَهُمْ زَادٌ وأنْتَ بِغَـيْرِ زَادِ

وقال أحدُ العُلماء أنَّ مِن النَّاسِ ناسٌ لَوْ مَاتَ نِصْفُ أحَدِهم مَا انْزَجَرَ النصفُ الآخَرُ ولا أُحْسِبُنِيْ إلا منهم .

وقال آخَرُ : فائِدةُ الصُحْبَةِ إنَّما هِيَ لِلزِّيَادَةِ في الحَال وعَدَمِ النُقْصان فيها فإيَّاكَ وصُحْبَةَ مَن لا يُنْهِضُكَ حَالُه ولا يَدُلُّكَ على اللهِ مَقَالُه .

فَصُحْبَةُ مَن يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ وإنْ كانَ عَالِماً شَرٌ مَحْض ولا فائدة فيها لأنَّ عِلْمَهُ في الغالب غَيرُ نافع له .

وجهلهُ الذي أوجَبَ رِضَاءَهُ عَنْ نَفْسِه صَارَ غايةَ الضرر لأنَّه فاتَه العلم الذي يُرِيْهَ عَيْبَه حتَّى لا يَرْضى عن نَفْسِه الأمارةِ بالسوء .

فعلى العاقل اللَّبِيْبِ مُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ دَائماً والمُحَاسَبَةُ هي مطَالَعَةُ القَلْبِ وإعمالُ اللسان وإعمالُ الجوارح .

فاجْعَل ذُنُوبَكَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ فإنْ غَفَلْتَ عَنها اجْتَمَعَتْ بسُرْعَةٍ وكَثُرتْ .

وتأمل وفكِّر فَلو أنَّكَ وضَعْتَ في كل مَعْصِيَةٍ تُحْدِثُهَا حَجَراً في دَارِكَ لا امْتَلأ بَيْتُكَ في مُدَّةٍ يَسِيْرَةٍ .

فمثلاً عنْدكَ غِيْبَةٌ أو عندك كَذِب أو عندكَ ريَاء أو عندَكَ عقوق أو قطيعة رحم .

أو ظلمَ لِمُسْلم أو لِنَفْسِكَ أو لأهْلِكَ أو لأولادِكَ أو لِجيرانِكَ أو تُعامِل مُعَاملةً لا تَجُوز .

أو عندَكَ كُفَارَ خُدَّام أو سَوَّاقِين أو عندكَ مَلاهِي كالتلفاز والفيديو أو عندك صُور أو تشرب الدُخان أو حلق لحية أو إسْبَال أو تشبه بكفار أو سفر لبلادهم .

أو لَكَ أولادٌ يَدْرسُون عند الكفار برضا مِنْكَ أو أكَلُكَ وشرُبُكَ ولُبْسَكَ مِن شَرَكَاتٍ تَتعامَلُ بالرِّبَا أو أنَّ عَمَلَك لا تُؤدَيْهِ كامِلاً مُكَملاً وتَأخُذ ما عليه كامِلَا .

وأنْتَ تَقْرأ : ﴿ ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ الآيَة .

أولاَ تَتَنَسَّخُ مِن الزكَاة إو نحو ذلك مِمَّا لا يَحْصُرهُ العَدُّ .

فَتَيَقَّظْ وحَاسِب نَفْسَكَ وفتش عليها بِدِقَّةٍ وأسأل الله الحي القيوم أن يَتَجَاوَزَ عَنْكَ .

فَيَا وَيْحَ أهْلِ الظُلْم واللَّهْوِ وَالغِنَا إذَا أقْبلَتْ يَومَ الحِسَابِ جَهَنَّمُ
ورَاعَهُمُ مِنْهَا تَغَيُّظُ مُحْنَقٍ لِخَوفِ عَذَابٍ فِي لَظَاهَا يُحَطِّمُ
إذَا مَارَآهَا المُجْرُمُوْنَ وأيْقَنُوا بأنَّ لَهُم فيها شَرابٌ ومَطْعَمُ
ضَرِيْعٌ وزَقُّومٌ وَيَتْلُوه مَشْرَبٌ حَمِيْمٌ لأمْعَاءِ الشَّقِيِّينَ يَهْدِمُ
ومَنْ قَطِرَانٍ كَسْوَة قد تَسَرْ بَلُوْا وسِيْقُوْا لِمَا فيه العَذابُ المخَيِّمُ

اللَّهُمَّ إنَا نَسْأَلُكَ نَفْساً مُطْمَئِنَّةً ، تُؤمِنُ بِلقَائِكْ وتَرْضَى بِقَضائِكْ ، وتَقْنَعُ بِعَطَائِكْ ، يا أرْأفَ الرائفين ، وأرحَمَ الراحمين .

اللّٰهُمَّ أنا نَسْأَلُكَ التوفيق لِمَا تُحبُّه مِن الأعْمَال ، ونَسْأَلُكَ صِدْقَ التوكلِ عليكْ ، وحُسْنَ الظَنِّ بِكَ يَا رَبَّ العَالِمين .

اللّٰهُمَّ اجْعَلْنا من عِبَادِكَ المُخْبِتِين ، الغُرِّ المُحَجَّلِين الوَفْدِ المُتَقَبَّلِين والله أعلم وصلى الله على محمد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسلم .

فَصْــــلٌ

أَخْرج البخاري عن سِمُرَةَ قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مِمَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُول لِأصْحَابِهِ هَلْ رَآى أحَدٌ منكم رُؤْيَا .

وإنَّهُ قال لَنَا ذَاتَ غَداةٍ إنَّهُ أتاني آتِيَان فقالا لي انْطَلِقْ فانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فأخْرَجَاني إلَى الأرض المقدَّسَةِ فأتَيْنَا على رَجُل مُضْطَجِعٌ .

وإذا آخَرُ قائمٌ عَليهِ بِصَخْرَةٍ وإذَا هُوَ يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَهُنَا فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُوْدُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ما فَعَلَ في المَرَّةِ الأوْلَى .

قُلْتُ لَهُمَا سُبْحَانَ اللهِ ما هَذا قَالَا لِي انْطَلِقْ فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ وإذَا آخَرُ قَائِمٌ عليه بِكَلُّوب مِن حَدِيْد وَإذَا هُوَ يَأتِي أحَدَ شِقَّيْ وجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفَاه ومَنْخِرَهُ إلى قَفَاهُ .

ثم يَتَحوَّلُ إلى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ما فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّل فَمَا يَفْرغُ مِن ذَلِكَ الجانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِب كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلَ في المَرَّةِ الأوْلَى .

قُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَان قالا لِيْ انْطَلِقْ فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا على مثل التَّنُّور فإذا

فيه لَغَطٌ وأصْوَاتٌ فاطَّلَعْنَا فِيْهِ فإذَا فِيه رِجَالٌ ونِسَاءٌ عُرَاةٌ فإذَا هُمْ يأْتِيْهم لَهَبٌ مِن أسْفَلَ منهم فإذا أتاهُم ذلكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا .

قُلْتُ ما هَؤُلَاءِ قالا لِيْ انْطَلِقْ فانطَلَقْنَا فأتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أحْمَرَ مِثْلَ الدَّمِ وإذا في النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ وإذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيْرَةٌ وإذَا ذَالِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما سَبَحَ ثُمَّ يَأتِي الذي جَمَعَ عنده الحِجَارَةُ فَيَفْغَر لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرَا فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إليه كُلَّما رَجَعَ إليه فَغَرَ لَهُ فَاهُ فألْقمهُ حَجَراً .

قُلْتُ لَهُمَا ما هَذَانِ قالا انْطَلِقْ فأتَيْنَا على رَجُلٍ كَرِيْهِ المِرْآةِ كأكْرَهِ مَا أنْتَ رَاءٍ وإذَا هُوَ عِنْدَهُ نارٌ يَحُشُهَا ويَسْعَى حَوْلَهَا فَقُلْتُ لَهُمَا ما هَذا قالا لِيْ انْطَلِقْ فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا على رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيْهَا مِن كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيْعِ وإذَا بَيْنَ ظَهْرَي الرَّوْضَةِ رجُلٌ طَوِيْلٌ لَا أكَادُ أرَى رَأسَهُ طُوْلاً في السَّماء وإذَا حَوْلَ الرَّجُل مِن أكْثَرِ الوِلْدَانِ رَأيْتَهُمْ قَطْ .

قَالَا لِيْ انْطَلِقْ فانْطَلَقْنَا فأتَيْنَا إلى رَوْضَةٍ عَظِيْمَةٍ لم أرَ رَوْضَةً قَطْ أعْظَمَ مِنْهَا ولا أحْسَنَ قالا لِيْ إرْقَ فِيْهَا فارتَقَيْنَا فانْتَهَيْنَا فيها إلى مَدِيْنَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ ولَبِنِ فِضَّةٍ فأتَيْنَا بَابَ المدِيْنَةِ .

فاسْتَفْتَحْنا فَفِتُحَ لَنَا فَدَخلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ مِن أحْسَنِ ما أنْتَ رَاءٍ وشطْرٌ كأقْبَحِ ما أنْتَ رَاءٍ .

قَالَا لَهُمْ إذْهَبُوا فَقَعُوْا في ذلك النَّهْرِ ، فإذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كأنَّ مَاءَهُ المَحْضُ في البَيَاض فَذَهَبُوْا فوقَعُوْا فيه ، ثُمَّ رَجَعُوْا إلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ السُوْءُ عَنْهُمْ فَصَارُوْا في أحْسَنِ صُوْرَةٍ .

قالا لِيْ هَذِهِ جَنَّةُ عَدِنٍ ، وهَذَاكَ مَنْزِلُكَ فَسَمَا بَصَرِي صُعُداً فإذا قَصرٌ

مِثْلَ الرَّبَابَةِ البَيْضَاء قَالَا لِيْ هَذَا مَنْزِلُكَ قُلْتُ لَهُمَا بارَكَ اللهُ فِيكُمَا ذَرَانِي فَأَدْخُلَه قالَا لِيْ أَمَّا الآنَ فَلَا وَأَنْتَ دَاخلُهُ .

قُلْتُ لَهُمَا فإنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَة عَجَبًا فما هذا الذي رَأَيْتُ .

قَالَا أَمَّا الرَّجُلَ الذي أَتَيْتَ عليه يُلْثَغُ رَأْسُهُ بالحَجَر فإنَّهُ الرجُل يأخُذ القُرآنَ فَيَرْفُضُهُ ويَنَامُ عن الصلاةِ المَكْتُوبَةِ يُفْعَل بِهِ إلى يَوم القِيَامَةِ .

وأَمَّا الرَّجُلُ الذي أَتَيْتَا عليه يُشَرْ شَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ ومَنْخِرُهُ إلى قَفَاهُ وعَيْنَهُ إلى قَفَاه فإنَّهُ الرَّجُل يَغْدُ مِن بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ فَيَصْنَعُ به إلى يَوْمِ القِيَامَةِ .

وأَمَّا الرجالُ والنِّساءُ العُرَاة الذين في مِثْلِ التَّنُورِ فإنَّهُم الزُّنَاةُ والزَّوَانِي .

وأَمَّا الرجُلُ أَتَيْتَ عَليه يَسْبَحُ في النَّهْرِ ويُلْقَم الحِجَارة فإنَّهُ آكِلُ الرِّبَا .

وأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيْهُ المِرْآة الذي عندهُ النارُ يَحُشُّهَا فإنَّهُ مالكُ خازِنُ جَهَنَّم .

وأَمَّا الرجُلُ الطَوِيْلُ الذي في الروضَةِ فإنَّهُ إبْرَاهِيم صلى الله عليه وسلم .

وأَمَّا الولدانُ الذين حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلى الفِطْرَةِ قالُوا يا رسول الله وَأَوْلَادُ المشركين قال « وأولادُ المشركين » .

وأَمَّا القومُ الذين كانو ا شَطْرٌ مِنْهم حَسَنٌ وشطر منهم قَبِيْح فإنهم قوم خَلَطُوا عَمَلاً صالحاً وآخر سَيئاً ، تجاوَزَ الله عنهم وأنا جبريْل وهَذَا مِيْكائِيْل .

وأَخْرَجَ بنُ عَسَاكِرَ عَنْ عَلي نحوه : فَمَضَيْتُ وإذَا بِتَلٍّ اسْوَدَ عَليه قَومٌ مُخَبَّلُون تَنْفَخُ النارِ في أَدْبَارِهِم فَتَخْرُجُ مِن أَفْوَاهِهِمْ ومَناخِرِهِمْ وآذَانِهم وأَعْيُنِهِمْ .

إلى أنْ قال : وأمَّا صَاحِبُ الكَوُّب الذِي رَأيْتَ فأُولئكَ الذينَ كانُوا يَمْشُوْنَ بَيْنَ المؤمنين بالنَّمِيْمَةِ فَيُفسدُوْنَ بَيْنَهُمْ فَهُمْ يُعَذَّبُوْنَ بِهَا حتى يصيروا إلى النار .

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا بَدِيْعَ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ نَسْأَلُكَ أَنْ تُوفِّقَنَا لِمَا فِيْهِ صَلَاحُ دِيْنِنَا وَدُنْيَانَا وَحسِنْ عَاقِبَتَنَا وَأَكْرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْــــلٌ

ولِلْخَطِيْبِ عن أبي مَوْسَى مَرْفُوعًا رَأيْتُ رِجَالاً تُقْرَضُ جُلُودُهُم بِمقَارِضَ مِن نَارٍ قُلْتُ مَا شَأْنُ هَؤُلَاءِ قال هَؤُلَآء الذين يَتَزَيَّنُونَ إلى مَا لا يَحلُّ لَهُم وَرَأيْتُ خِباءً خَبِيْثَ الرِّيْح فيه صِيَاحٌ قُلْتُ ما هَذا قال هُنَّ نِسَاءٌ يَتَزَيَّنَّ إلى مَا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ .

ولِلْبَيْهَقِي عن أبي سعيد في حديث الإسراء قال : « ثم مَضَيْتُ هُنَيْهَةً فإذا أنَا بأخْونَةٍ عَلَيْهَا مُشَرَّحٌ لَيس يَقْرَبُهُ أَحَدٌ وإذا أنَا بأخْونَةٍ عَلَيْهَا لَحْمٌ قَدْ أَرْوَحَ وَنَتَنَ ، عَندها أناسٌ يَأْكُلُونَ منها قُلْتُ يَا جبْرِيل مَاهَــؤُلَاء قــال قومٌ مِن أُمَّتِكَ يَتْرُكُونَ الحَلَالَ ويأْتُونَ الحَرَام .

ثم مَضَيْتُ هُنَيْهَةً فإذا أنا بأقْوَام بُطُوْنُهُم أمْثَالَ البُيُوتِ كُلَّمَا نَهَضَ أحَدَهُم خَرَّ يَقُولُ اللَّهُم لا تقمِ السَّاعَةَ وهم عَلَى سَابِلَةِ آلِ فِرعَون فَتَجِيءُ السَّابِلَةُ فَتَطَأَهُم فَسَمِعْتُهُمْ يَضِجُّونَ إلى اللهِ .

قُلْتُ يا جِبْرِيْلُ مَن هَؤُلَاء قال هَؤُلَآء مِن أمَّتِكَ الذين يَأْكُلُونَ الرِّبَاء ثم

مَضَيْتُ هُنَيْهَةً فإذا أنا بأقْوامٍ مَشافِرُهُمْ كَمَشَافِرِ الإبل فَتُفْتَحُ أفْواهِمْ ويُلْقَمُونَ مِن ذلكَ الجَمْر ثم يَخْرُجُ مِن أسَافِلِهم .

قُلْتُ مَنْ هؤلآء قال هَؤُلآءِ مِن أمَّتِكَ الذين يأكُلُونَ أمْوَالَ اليَتامَى ظُلْمَا ، ثم مَضَيْتُ هُنَيْهَةً فإذَا أنا بأقوام يُقْطَعُ مِن جُنُوبِهم اللَّحْم فيُلْقَمُون فيَقَالُ كُلْ كَمَا كُنْتَ تأكُلُ مِنْ لَحْمِ أخِيْكَ .

قُلْتُ مَنْ هَؤُلآء قال هَؤُلآء اللّمَازُوْن .

وله عن عَدي عن أبي هريرة في حديث الإسْرَاء ثم أتَى على قَوم عَلى أقْبَالِهِم رِقَاعٌ وعَلَى أدْبَارِهم رقاعٌ يَسْرحُونَ كَما تَسْرَحُ الإبلُ والغَنَم ويأكُلُونَ الضَّرِيْعَ والزَّقُومَ ورَضْفَ جَهنَّم وَحِجَارَتَها .

قُلْتُ مَنْ هَؤُلآءِ قال هَؤُلآء الذينَ لا يُؤَدُّوْنَ صَدَقَاتِ أمْوالِهم ثم أتَى عَلَى قَومٍ بَيْنَ أيْدِيْهِم لَحمٌ يَنْضِجُ في قِدْرٍ ولَحْمٌ آخَرُ خَبِيْث فجعَلُوا يأكُلُونَ مَنْ النيءِ وَيَدَعُونَ النَّضِيْج الطَّيب .

قُلْتُ مَنْ هَؤُلآء قال الرجُلُ يقوم مِن عند امْرأته حَلَالاً فيأتِي المرأة الخَبِيْثَةَ فَيَبَيْتُ مَعَهَا حَتَّى يُصْبِح والمرأةُ تقوم مِن عِند زَوْجِهَا حَلَالاً طَيِّباً فَتَأتِي الرجُلَ الخَبِيْثَ فَتَبيْتُ عنده حَتَّى تُصبِح .

ثم أتَى عَلى رَجُل قد جَمَع حُزْمَةَ عَظِيْمَةً لا يَسْتَطِيْعُ حَمْلَهَا وهو يَزِيْدُ عَلَيْهَا فَقَالَ ما هذا قال هَذَا الرَّجُلُ يَكُونُ عندَهُ أمَانَاتُ الناسِ لا يَقْدِرُ على أدَائِها وهو يَحْمِلُ عليها .

ثم أتى على قَوم تُقْرَضُ ألْسِنَتُهُمْ وشِفَاهُهُمْ بِمَقارِيْضَ مِن حَدِيْد كُلَّما قُرِضَتْ عادَتْ كَما كَانَتْ لا يُفَتَّرُ عنهم مِن ذلك شيءٍ قال ما هَؤُلآء قال خُطَبَاء الفِتْنَةِ .

ولأبي داوود عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بأقوام لهم أظفار من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم قُلْتُ مَن هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيْل قال الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعْرَاضِهم .

وأخْرَجَ ابن خَزَيْمَةَ وابن حبان عن أبي أمامة وسَنَده جَيِّد قال خَرَجَ عَلَينا رسول الله ﷺ بَعد صلاة الصُبْح فقال : « إنِّي رأيْتُ رُؤْياً وهِيَ حَقٌ فاعْقِلُوهَا أتاني رَجُلٌ فأخَذ بِيَدِي فاسْتَتْبَعَني حَتَّى أتى جَبَلا وعْراً فقال لِيْ إرْقَهُ فَقُلْتُ لا أسْتَطِيْعُ فَقَال إني سَأُسَهِّلُه لَكَ فَجَعَلْتُ كُلَّمَا رَفَعْتُ قدمي وضَعْتُهَا على دَرَجَةٍ حتى اسْتَوَيْتُ إلى سَوَاءِ الجَبَلِ .

فانْطَلَقنا فإذا نَحْنُ برِجَالٍ ونِسَاء مُشَقَّقَةً أشْدَاقُهُم قُلْتُ مَنْ هَؤُلاَء قال هؤُلآء الذين يَقُولُونَ ما لاَ يَفْعَلُون .

ثم انْطَلَقْنَا فإذا نَحْنُ برجالٍ ونِسَاءٍ مُسَمَّرة أعْيُنهم وآذانهم قُلْتُ ما هَؤُلآء قال هولاء الذين يُرُوْنَ أعْيُنَهُمْ ويُسْمِعُونَ آذَانَهُمْ ما لا يسْمَعُوْن .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِنساءٍ مُعَلَّقَاتٍ بِعَرَاقِيْبِهِنَّ مُصبُوبَةٌ رؤوْسُهُنَّ تَنْهَشُ أقدامَهُنَّ الحَيَّاتُ قُلْتُ ما هؤُلآء قال هَؤلآء الآتِي يَمْنَعُن أولاَدَهُنَّ ألْبَانَهُنَّ .

فانْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ ونِسَاءٍ مُعَلَّقِينَ بِعَراقبِهِمْ مَصبُوبةٌ رُؤُوسُهُمْ يَلْحَسُون مِن ماءٍ قَلِيْلٍ وحَمَإٍ قُلْتُ ما هَؤلآء قال هَؤلآء الذين يَصُوْمُونَ ثم يُفْطِرون قبل تحِلَّةِ صوْمهم .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ ونِسَاءٍ أقْبَح شيءٍ مَنْظِراً وأقْبَحَهُ لُبُوْساً وأنْتَنُهُ رِيْحاً كان رِيَحُهُم المراحِيض قُلْتُ مَن هَؤلآءِ قال هَؤلآء الزَّانُونَ والزُنَاةُ .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِمَوْتَي أشَدُ شَيءٍ إنْتِفَاخاً وأقْبَحُهُ رِيْحاً قُلْتُ مَن هَؤلآءِ قال هَؤُلآءِ مَوْتَى الكفار .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ تَحْتَ الشَّجر قُلْتُ مَنْ هَؤلآء قال هَؤُلآءِ مَوْتَى المُسْلِمِيْنَ .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِغلمَانٍ وجَوَارٍ يَلْعَبُون بين نَهرَيْن قُلْتُ مَنْ هَؤلآء قال هَؤُلآء ذُرِيَّةُ المؤمنين .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بِرِجَالٍ أحْسَنَ شَيءٍ وُجُوها وأحْسَنَهُ لُبُوساً وأطْيَبهُ رِيْحاً كأنَّ وجُوْهَهُمْ القراطيس قُلْتُ ما هَؤلآء قال هَؤلآء الصِّدِيْقُونَ والشُهَداء والصالحون .

ثم انْطَلَقْنَا فإذَا نَحْنُ بثلاثة يشربُونَ خَمْراً لَهُمْ ويتَغَنَّوْنَ قُلْتُ مَنْ هَؤُلآءِ قال زَيْدُ بنُ حَارِثَةٍ وجَعْفر بنُ أبِي طَالِبٍ وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَة » .

وَلِلترمدي وصَحَّحَهُ عن عمارة بنِ عُمَيْر قال لَمَّا قُتِلَ عُبَيْدالله بن زياد أتى بِرَأسِهِ ورُؤسِ أصْحَابِهِ فألْقِيَتْ في الرَّحبَة فجاءَتْ حَيَّةٌ عَظِيْمَةٌ فَتَفَرَّقَ الناسُ مِن فَزَعِهَا فتخَلَّلَتِ الرُؤُوْسَ حَتَّى دَخَلَتْ في مَنْخِرِ عُبَيْدِالله بنِ زِياد .

ثم خَرَجَتْ مِن فِيْهِ ثم دَخَلَتْ مِن فِيْهِ وخَرَجَتْ مِن أنْفِهِ فَفَعَلَتْ بِهِ مِرَاراً ثُمَّ ذهَبَتْ ثم عَادَتْ فَفَعَلَتْ بِهِ مِثْلَ ذلك مِرَاراً مِن بَيْنِ الرؤوْسِ ولا يَدْرُوْنَ مِن أيْنَ جَاءَتْ ولا أيْنَ ذَهَبَتْ .

وقال ابنُ القيم رحمه الله وحدثنا أبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ الحَرَّاني أنَّهُ خرج مِن دَارِهِ بآمُد بَعْدَ العَصر إلى بُسْتَان فَلَما كَانَ قبلَ غُرُوبِ الشمسِ تَوَسَّطَ القُبُورَ وإذَا قَبْرٌ منها وهو جَمْرةُ نارٍ مِثْلُ كُوْرِ الزُّجَاجِ والميتُ في وَسَطِهِ قال وسَألْتُ عن صاحِبِ القَبْرِ فإذَا هو مكَّاسٌ قد تُوفي في ذلك اليوم .

ولِلْبَيْهَقِي في الشُعب عن عبد الحميد بن محمود المعولي قال كُنْتُ جَالِساً

عند أبن عباس فأتاهُ قَومٌ فقالوا إنَّا خَرَجْنا وَمَعَنا صاحبٌ لَنا حَتَّى أتَيْنا ذَا الصِّفَاحِ فَمَاتَ فَهَيئْنَاه ثم انْطَلَقْنا فَحَفَرْنا لَهُ قَبراً ولَحَّدْنَا لَهُ فلما فَرَغْنَا مِن لَحْدِهِ فإذَا نَحْنُ بأسْوَدَ قَدْ مَلأَ اللَّحْدَ وحَفَرنَا لَهُ مَكَاناً آخَرَ فلما فَرَغْنَا مِن لَحدِهِ إذا نَحْنُ بأسْــوَدَ قَدْ مَلأَ اللَّحْدَ فقال ابنُ عباس ذَلِكَ عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُ انْطَلِقُوا فإدْفُنُوهُ في بَعْضِهَا فوالذِي نَفْسِي لو حَفَرْتُم الأرضَ كُلَّهَا لَوَجَدْتُمُوهُ فيها فانْطَلَقْنَا فَدَفَنَّاهُ في بَعْضِهَا » نسأل الله أنْ يُوَفِقَنَا للأعْمَال الصالحة وحُسْن الخاتمة إنه جواد كريم .

قصيدة فيها تَضَرُّعٌ إلى رَبَ العِزةِ والجَلالِ والكِبرِيَاء والعَظمة :

يا ذَا الجَلالِ ويا ذا الجُودِ والكَرمِ ... قَدْ جِئْتُكَ خَائِفاً مِن زَلَّةِ القَدَمِ
ذَنْبِي عَظِيمٌ وَأرْجُوْ مِنْكَ مَغْفِرةً ... يَا وَاسِعَ العَفْوِ والغُفْرانِ والكَرَمِ
دَعَوْتُ نَفْسِي إلَى الخَيْرَاتِ فامْتَنَعَتْ ... وأعْرَضَتْ عن طَرِيْقِ الخَيْر والنِّعَمِ
خَسِرْتُ عُمْرِي وَقَدْ فَرَّطْتُ في زَمَنِي ... في غَيْرِ طَاعَةِ مَوْلَايَ فَيَا نَدَمِي
حَمَلْتُ ثِقْلاً مِنَ الأوْزَارِ فِي صِغَرِيْ ... يَا خَجْلَي في غَدٍ مِن زَلَّةِ القَدَمِ
رَاحَ الشَّبَابُ وَوَلَّى العُمْرِ فِي لَعِبٍ ... وما تَحَصَّلْتُ مِن خَيْرٍ ولَمْ أقُمِ
زَمَانَ عَزْمِيَ قَدْ ضَيَّعْتُهُ كَسَــلاً ... والعُمْرُ مِنِّيْ انْقَضَى فِي غَفْلَةِ الحُلُمِ
قَدْ انْقَضَتْ عِيْشَتِيْ بالذُلِ وَاأسَفِي ... إنْ لَمْ تَجِدْ خَالِقِيْ بالعَفْوِ والكَرَمِ
ذِيْ حَالَتِي وانْكِسَارِي لا تُخَيِّبْنِي ... إذَا وَقَعْتُ ذَلِيْلاً حَافِي القَدَمِ
أتَيْتُ بالذُّلِ والتَّقْصِيْر والنَّــدمِ ... أرْجُو الرِّضا مِنْكَ بالغُفْرانِ والْكرمِ
سَارَ المجدُّوْنَ في الخَيْراتِ واجْتَهَدُوْا ... يا فَوْزَهُم غَنِمُوْا الجَنَاتِ والنِّعَمِ
شِفَاءُ قَلْبِيَ ذِكْرُ اللهِ خَالِقِنَــا ... يَا فَوْزَ عَبْدٍ إلى الخَيْرَاتِ يَسْتَقِمِ
صَفَتْ لِأهْلِ التُّقى أوْقَاتُهــم سَعِدُوْا ... نَالُوا الهَنَـا والمُنَى بالخَيْـرِ والكَـرَمِ
ضَيَّعْتُ عُمْري ولا قَدَّمْتُ لِيْ عَمَــلاً ... أنْجُو بِهِ يَوْمَ هَوْلِ الخَوْفِ والزَّحَــمِ

طُوْبَى لِعَبْدٍ أطَاعَ اللهَ خَالِقَهُ   وقَامَ جَنْحَ الدُّجى بالدَّمْعِ مُنْسَجِمِ
ظَهْرِيْ ثَقِيْلٌ بِذَنبي آهِ واأسَفِيْ   يَومَ اللِّقَاءِ إذَ الأقْدَامُ في زِحَمِ
أرْجُوكَ يا ذَالعُلاَ كَرْبِي تُفرِّجُهُ   واشْفِ بِفَضْلِكَ لِي بَلْوَايَ مَعْ سَقَمِيْ

غَفَلْتُ عن ذِكْرِ مَعْبُوْدِي وَطَاعَتِهِ   وقَدْ مَشَيْت إلَى العَصْيَانِ في هَمِمِ
فاغْفِرْ ذُنُوبِي وكُنْ يَا رَبِّ مُنْقِذَنَا   مِن الشَّدَائِد والأهْوَالِ والتُّهَمِ
قد أثْقَلَتْنِي ذُنُوبٌ مَا لَهَا أحَدٌ   سِوَاكَ يَا غَافِرَ الزَّلاَّتِ واللَّمَمِ
كُنْ مُنْجِدِيْ يَا إلٰهي واعْفُ عن زَلَلِيْ   وَتُبْ عَليَّ مِن الآثامِ واللَّمَمِ
لاَحَ المَشِيْبُ وَوَلَّى العُمْرُ في لَعِبٍ   وصِرْتُ مِن كَثْرةِ الأوْزَارِ في نَدَمِ
مَضَى زَمَاني ومَا قَدَّمْتُ مِن عَمَلٍ   يا خَجْلَتِي مِن إلٰهي بارِيَ النَّسَمِ
نَامَتْ عُيُوني وأهْلُ الخَيرِ قَدْ سَهِرُوْا   أجْفَانُهُمْ في ظَلامِ اللَّيلِ لَمْ تَنمِ
قامُوا إلى ذكْرِ مَوْلاهُم فَقَرَّبَهُمْ   وخَصَّهُم بالرِّضَا والفَضْلِ والكَرَمِ
ولَيْسَ لِي غَيْرَ رَبِّ الخَلْقِ مِنْ سَنَدٍ   أرْجُوْهُ يُوْلِيْني بالغُفْرانَ والكَرَمِ
لَا أرْتَجي أحَداً يومَ الزِحَامِ سِوَى   رَبِّ البَرِّيَةِ مُوْلى الفَضْلِ والكَرِمِ
ثم الصلاةُ على المختارِ مِنْ مُضَرٍ   مُحَمَّدٍ المُصْطَفى المَخْصُوصِ بالكَرَمِ

اللَّهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المُفْلِحِين وألْبِسْنَا خِلَعَ الإيْمَانِ واليَقِيْن ، وَخُصَّنَا مِنْكَ بالتَّوفِيْقِ المُبين ، وَوَفِّقْنَا لِقَوْلِ الحَق واتْبَاعِهِ وَخلِّصْنَا مِنَ البَاطِل وابْتِدَعِهِ ، وَكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا وَلَا تَجْعَل لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا يَدَا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغَدا وَلَا تُشْمِتْ بِنَا عَدوّاً وَلَا حَاسِداً ، وارْزُقْنَا عِلْمَاً نَافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلا ، وَفَهْمَاً ذَكِيّاً صَفِيّا وَشِفَاً مِنْ كُلِّ دَاء ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الراحمين وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــــــلٌ)

عن بريدة قال : سمع النبي ﷺ رجُلاً يقول : اللهم أني أسألك بأني أشهد أنكَ أنتَ الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

فقـال رسـول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى أخرجه أبو داود والترمذي .

وعن أنس رضى الله عنه قال : دعا رجل فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام يا حي ياقيوم .

فقال النبي ﷺ : أتدرون بما دعا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، أخرجه أصحاب السُّنَن .

عن سعد بن أبي وقاص قال قال : قال رسول الله ﷺ : « دعـوة ذِى النـون إذْ دَعَى وهـو في بطن الحـوت لا إلـه إلا أنت سُبْحَانَكَ إني كنت من الظالمين » .

فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له ، رواه الترمذي والنسائي والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وعن معاوية بن أبي سُفيان قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول « مَن دَعَا بهؤلاء الكلمات الخمس لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه (لا إله إلا الله والله أكبر لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك

وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعن معاذ بن جبل قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا وهو يقول (ياذا الجلال والاكرام) فقال « قد اسْتُجِيْبَ لَكَ فَسَلْ » رواه الترمذي .

اللهم اجعلنا مُكْثِرِينَ لِذِكرك مُؤَدِّيْنَ لحَقِّك حافظين لأمرك راجين لِوَعْدِكَ راضين في جميع حالَاتنا عَنك .

راغبين في كُلِّ أمُورنا إليكَ مُؤَمِّلينَ لِفَضْلِك شاكرين لِنِعَمِك .

يا مَن يحب العفو والإحسان ، ويأمر بهما أعفُ عنا ، وأحْسِنْ إلينا .

فإنكَ بالذي أنت له أهلٌ من عَفوك أحق منا بالذي نحن له أهل مِن عُقُوبتك .

اللهم ثَبّتْ رَجَاءَكَ في قلوبنا ، واقطعه عَمَّنْ سِوَاك ، حتى لا نَرْجُوا غيرَكَ ولا نستعين إلا إياك ، يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم الأكرمين .

اللهم هب لنا اليقين والعافية ، وإخلاص التوكل عليك ، والاستغناء عن خلقك .

واجعل خير أعمالنا ما قارب آجالنا .

اللهم أغننا بما وفقتنا له من العلم ، وزينا بالحلم وأكرمنا بالتقوى وجَمِّلْنَا بالعافية .

اللهم افتح مَسَامعَ قلوبنا لِذِكرك وارزُقنا طاعتك وطاعةَ رسولك ووفقنا للعمل بكتابك وسنة رسولك .

اللهم إنا نسألك الهدى ، والتُّقَى والعَافِيَةَ والغِنى ، ونعوذ بكَ مِن دَرَكِ الشقَاءِ ، ومن جهْدِ البَلاء ومن سُوْءِ القَضاء ومن شَماتَةِ الأعداء .

اللهم لك الحَمْدُ كُلَّه ، ولك الملكَ كُلَّه ، وبيَدِكَ الخير كلّه ، وإليك يَرْجعُ الأمر كله عَلانِيتُه وسِرُه ، أهلُ الحمدِ والثناءِ أنْتَ ، لا إله إلا أنت سُبحانك إنك على كل شىء قدير .

اللهم اغفر لنا جميع ما سَلَفَ منا مِن الذنوب ، واعْصَمْنَا فيما بَقى مِن أعمارنا ، ووفقنا لِعَمَلٍ صَالحٍ تَرضَى به عنا .

اللهم يا سامعِ كل صوت ، ويا بارىء النفوس بعد الموت ، يامَن لا تشتبهُ عليه الأصوات ، ياعظيم الشأن ، يا واضِح البرهان، يا مَن هو كل يوم في شأن ، اغفر لنا ذنوبنا إنكَ أنت الغفور الرحيم .

اللهم ياعظيم العفو ، ياواسع المغفرة ، ياقريب الرحمة ، ياذ الجلال والاكرام ، هب لنا العافية في الدنيا والآخرة .

اللهم ياحيُّ وياقيومِّ فَرِّغْنَا لما خَلَقْتَنَا له ، ولا تُشْغِلْنَا بما تَكَفَّلْتَ لنا به ، واجعلنا مِمن يُؤمِنُ بلقَائِك ، ويَرْضَى بقَضَائِك ، ويقنعُ بعطائك ، ويخشَاكَ حَقَّ خَشْيَتِك .

اللهم اجْعَلْ رِزْقَنَا رَغَدَا ، ولا تشمِتْ بنَا أحَدَا .

اللهم رَغِّبْنَا فيما يبقى ، وزهدنا فيما يَفنى ، وهب لنا اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه ، ولا يُعَوَّلُ في الدين إلا عليه .

اللهم إنا نسألك بعزك الذي لا يرام وملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفينا شر ما أهمنا وما لا نهتم به وأن تعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

اللهم ياعليم ياحليم ياقوي ياعزيز ياذَ المن والعطا والعز والكبرياء يامَن تَعْنُوْا له الوجُوه وتخشع له الأصوات .

وفقنا لصالح الأعمال وأكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك إنك على كل شيٍء قدير .

اللهم إنا نسألك رحمَةً مِن عندكَ تَهْدِي بها قُلُوْبَنَا ، وتَجْمعُ بها شَمْلَنَا ، وتَلمُ بها شَعَثَنَا ، وترفع بها شاهدنا ، وتَحفَظُ بها غائِبَنَا ، وتزكى بها أعمالنا ، وتلهمنا بها رشدنا ، وتعصمنا بها من كل سوء يا أرحم الراحمين .

اللهم ارزقنـا من فضلك ، وأكفنا شر خلقك ، وأحفظ علينا دِيْنَنَا وصحةَ أبداننا .

اللهم ياهادِي المضلين وياراحم المذنبين ، ومُقِيْلَ عثرات العـاثرين ، نسألك أن تُلْحِقنا بعبادك الصالحين الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصـديقـين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين .

اللهم ياعالم الخفيات ، ويارفيع الدرجات ، ياغافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا أنت إليك المصير.

نسـألك أن تذيقنا برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، ياأرحم الراحمين وأرَافَ الرائِفين وأكرمَ الأكرمين .

اللهم اعْتِقْنَا مِن رقِّ الذُنُوبْ ، وخَلِّصْنَا مِن أشَرِ النُّفوسْ ، وأذْهِبْ عَنَّا وَحْشَةَ الإِسَاءَةْ ، وطَهِّرْنا مِن دَنَسِ الذنوبَ ، وباعِدْ بَيْنَنا وبَيْنَ الخَطَايَا وأجرْنا مِن الشيطان الرجيم .

اللهم طَيِّبْنَا لِلَقَائِكْ ، وأهِّلْنَا لِوَلائِكْ وأدْخِلْنَا مَعَ المَرْحُومِينْ مِن أَوْلِيَائِكْ ، وتَوفَّنَا مُسْلمين والحقنَا بالصالحين .

اللهم أعِنَّا على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْن عِبَادَتِكْ ، وتِلَاوَةِ كِتَابِكْ ، واجْعَلْنَا من حِزْبِكَ المُفْلحِينَ ، وأيِّدْنَا بجُنْدِكَ المَنْصُورين ، وارْزُقْنَا مُرافقَةَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عليهم مِن النبيين والصِّديقين والشهداء والصَّالحين .

اللهم يا فالقَ الحب والنَّوَى ، يا مُنْشِىء الأجْسَادِ بَعْدَ البلَى يا مُؤْوِيْ المُنْقَطِعِينَ إليهْ ، يا كافي المُتَوَكِّلينَ عليه ، انقطَعَ الرَّجَاءُ إلا مِنْكْ ، وخابَت الظُنُون إلا فِيْكْ ، وضَعُفَ الاعْتِمَاد إلا عَلَيْكْ نسألُكَ أنْ تُمْطِرَ مَحْلَ قُلُوبِنَا مِن سَحَائِب بِرِّكْ واحْسَانِكْ وأن توفقنا لِموجِباتِ رحمتك وعَزَائِم مغفرتك إنكَ جواد كريم رؤوف غفور رحيم .

اللهم إنَّا نسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وعملاً متقبلاً ، ونسألك بركة الحياة وخير الحياة ، ونعوذ بك من شر الحياة ، وشر الوفاة .

اللَّهُمَّ إنا نَسْأَلُكَ باسْمِكَ الأعْظَمِ الأغَرِّ الأجَلِّ الأكرم الذي إذا دُعِيْتَ به أجَبْتَ وإذا سُئِلْتَ به أعْطَيْتَ .

ونَسْأَلُكَ بوَجْهِكَ الكَرِيْمِ أكْرَمَ الوُجُوه ، يا مَن عَنَتْ لَهُ الوُجُوهُ ، وخَضَعَتْ لَهُ الرِقَابُ ، وخَشَعَتْ لَهُ الأصْوَاتُ ، ياذَ الجَلالِ والأكرام .

ياحَيُّ ياقَيُّومُ ، يَامَالِكَ الملك ، يَامَن هُوَ على كُلِّ شيءٍ قَدِيْرٌ ، وبكل شيءٍ عَلِيم ، لا إله إلاَّ أنْتَ ، بَرحْمَتِكَ نَسْتَغِيْثُ ، ومِن عَذَابِكَ نَسْتَجِير .

اللهم اجعلنا نَخْشَاكَ حَتَّى كأننا نَرَاكَ ، واسْعِدْنا بتقْواك ، ولا تُشْقِنَا بِمَعْصِيَتك .

اللهَم إنك تسمعُ كلامَنَا ، وتَرى مَكاننا ، وتَعْلم سِرّنَا ، وعَـلاَنِيَتنـا لا يَخْفَى عليكَ شيءٌ مِن أمْـرِنا نحن البؤساءَ الفُقَراءُ إليك ، المُسْتِغيْثُون المُسْتَجِيْرُونَ الْوجِلُونَ المشفقُونَ المعترفُون بِذُنُوبنا .

نَسْـألُـكَ مَسـألـةَ المسكين ، ونَبْتَهِلُ إليك إبْتِهَالَ المُذْنبِ الذَّلِيْل ، ونَدْعُوْكَ دُعَاءَ الخَائف الضرير .

اللهم يامَن خَضَعَتْ لَهُ رِقَـابنَـا ، وفـاضَتْ لَهُ عَبارَاتُنَا ، وذَلَّت له أجْسَامُنَا ، ورَغِمَتْ لَهُ أُنُوْفُنَا لا تجْعَلْنَا بِدُعَائِك أشقياء ، وكن بنا رؤفًا ياخير المَسْؤُلين .

اللهم إنـا نَسْـأَلُكَ نَفْساً مُطْمَئِنَّةً ، تُؤمِنُ بلقَائِكْ وتَرْضَى بِقَضائِكْ ، وتَقْنَعُ بعَطَائكْ ، يا أرأف الرائفين ، وأرحم الراحمين .

اللهم إنـا نَسْـأَلُكَ التوفيق لما تُحِبُّه مِن الأعمال ، ونسألُكَ صِدْقَ التوكل عليكْ ، وحُسْنَ الظَنِّ بكَ يَارَبَّ العالمين .

اللهم اجعلنا مِن عِبادِكَ المُخْبِتِين ، الغُرِّ المُحَجَّلِين الوَفْدِ المُتَقَبَّلِين .

اللهم إنا نَسْأَلُكَ حَيَاةً طَيِّبةً ، ونَفْساً تَقِيَّة ، وعِيْشَةٍ نَقِيَّة ، ومِيْتَةً سَوِيَّة ، ومَرَداً غَيْرَ مُخْزي ولا فاضح .

اللَهم اجعلنـا من أهل الصلاح والنجاح والفلاح ، ومن المؤيدين بنصرك وتأييدك ورضاك يارب العالمين .

« اللهم مالكَ الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تَشَاء وتُعِز مَن تشاء وتُذِلُ مَن تشاء بِيَدِكَ الخيرُ إنكَ على كل شيء قــــــدير » .

ياوَدُوْدُ يَاذَا العَرش المجيد يامُبْدِيءُ يامُعِيْدِ يافَعَالٌ لما تُريد نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركانَ عَرشك وبقُدرتِكَ التي قدرتَ بها على جميع خلقكَ وبرحمتك التي وسِعَت كل شيء لا إله إلا أنت أن تغفـر ذُنوبَنا وسَيئاتِنا وأنْ تبدلها لنا بحسنات إنك جوادٌ كريم رؤوفٌ رحيم .

اللهم افتح لدعائنا باب القبول والإجابة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك ياأرحم الراحمين .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين ، ، ،

عبدالعزيز بن محمد بن سلمان